الأعمال الكاملة

انطون تشيكوف

الجزء الثانى
الروايات القصيرة

أسامه عبد الرحمن

مقدمة

فيعصر يتسم بالمعرفة والمعلومات والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسات الأمة العربية إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسست بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاًمن محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره .

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحدا لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها .

أطلقت المؤسسات برنامج ترجم، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم .

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب فياليوم الواحد

وتأمل المؤسسات في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسات الثقافية المتمثلة في تمكين الأجيال القادمةمن ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات .

أسامة عبد الرحمن

الراهب الأسود

أصيب أندريه فاسيليفتش كوفرين صاحب الماجستير في الفلسفة بالإرهاق وانهارت أعصابهلكنه لم يعالج،بل تحدث ذات مرة،بصورة عابرة،مع طبيب من أصدقائه وهما يحتسيان الخمر،فنصحه هذا بقضاء الربيع والصيف في الريفوبالمناسبة فقد تلقى رسالة طويلة من تانيا بيسوتسكايا، طلبت منه فيها أن يأتي إلى ضيافتهم في بوريسوفكا فقرر أنه بالفعل بحاجة إلى السفر .

في البداية وكان ذلك في أبريل سافر إلى ضيعة عائلتهم كوفرينكا، حيث أمضى هناك وحيدا ثلاثة أسابيع ثم انتظر حتى أصبحت الطرق صالحة، فسافر بالخيول إلى وصيه ومربيه السابق بيسوتسكى خبير البساتين المعروف في روسيا كلها كانت المسافة من كوفرينكا إلى بوريسوفكا، حيث كان يعيش آل بيسوتسكى، لا تزيد على سبعين فرسخا، وكان السفر على طريق ربيعى لين، وفي عربة مريحة بزنبركات متعة حقيقية .

كان منزل بيسوتسكى ضخما، بأعمدة وأسود تساقط منها الملاط، وبحاجبيقف في الفراك بجوار المدخل

وامتدت حديقة عتيقة، جهمة وصارمة، مخططة على الطريقة الإنجليزية، حوالى فرسخ كامل من المنزل حتى النهر، وانتهت هنا بشاطئ طيني جرفى منحدربشدة، نمت فوقه صنوبرات بجذور عارية تشبه المخالب الكثة وفيالأسفل لمعت المياه بعزلة وخواء، وحلقت طيور البكاشين بزعيق شاك، وكان يسود هنا دائما مزاج خاص يغرى بتأليف الأناشيد الملحمية ولكن بجوار المنزل، في فنائه وفي بستان الفواكه الذي كان يشغل مع المشاتل حوالي ثلاثين ديسياتينا (الديسياتينا مقياس روسى قديم لمسطح الأرض يعادل ١,٠٩ هكتار) ، كان الجو مرحاً ومفعماً بالفرحة حتى في الطقس السيئ لم ير كوفرين في أي مكان آخر مثل هذه الورود المدهشة والزنابق والكاميليا، مثل هذه الأقحوانات العديدة الألوان، ابتداء من الأبيض الناصع وانتهاء بالأسود كالسناج،وعموما مثل هذه الثروة من الزهور التي كانت لدى بيسوتسكى كان الربيع قد بدأ لتوه، وكانت الروعة الحقيقية لأحواض الزهور لا تزال مختبئة بعد في الدفيئات، ومع ذلك فقد كان ما يزدهر منها بحذاء الممرات، وهنا وهناك في الخمائل كافيا لكي تشعر - وأنت تتجول في البستان -بأنك في ملكوت الألوان الرقيقة، وخاصة في ساعات الصباح الباكر، عندما يلمع الندى على كل ورقة .

أما قسم الديكور من البستان، والذي كان بيسوتسكى نفسه يسميه في احتقار بالتوافه، فقد ترك في نفس كوفرين أيام الطفولة انطباعا خياليا. أية شواذ ومسوخ منتقاة بدقة، وتشويهات للطبيعة كانت هنا! كان هنا تكعيبات من أشجار الفواكه، وشجرة كمثرى على شكل حور هرمى، وأشجار بلوط وزيزفون على صورة كرات، ومظلة من شجرة تفاح، وأقواس وزخارف وشمعدانات، بل وحتى رقم ١٨٩٢ من أشجار البرقوق - الرقم المشير إلى السنة التي بدأ فيها بيسوتسكى يزاول فلاحة البساتين، وكنت ترى هنا أحياناً شجيرات جميلة باسقة، بجذوع مستقيمة ، ولكن إذا ما حدقت فيها بإمعان تعرفت في هذه الشجيرات على عنب الثعلب أو الزبيب الرومي أما أكثر ما كان يضفي البهجة والرونق الحي على البستان، فهو الحركة الدائبة فمن الصباح الباكر وحتى المساء كان أناس بعربات و مجارف ورشاشات ينقبون كالنملحول الأشجار والخمائل وفي الممرات .

وصل كوفرين إلى آل بيسوتسكى مساء، في حوالي العاشرة ووجد تانيا وأباها يجور سيميونيتش في قلق بالغ فقد كانت السماء الصافية النجمية والترمومتر ينبئان بصقيع في الصباح، بينما رحل البستاني إيفان كارليتش إلى المدينة، ولم يكن هناك من يعتمد عليه وأثناء العشاء دار الحديث فقط عن صقيع الصباح، وتقرر ألا تذهب تانيا إلى الفراش، وفي الساعة الواحدة تتجول في البستان لترى هل كل شيء على ما يرام، أما يجور سيميونيتش فسيستيقظ في الساعة الثالثة

جلس كوفرين مع تانيا المساء كله، وبعد منتصف الليل مضي معها إلى البستان. كان الجو باردا وفاحت في الفناء بشدة رائحة الدخان. ففي بستان الفواكه الكبير الذي كان يدعى بالتجاري وكان يعود على يجور سيميونيتش بدخل صاف يبلغ عدة آلاف روبل سنويا، انتشر فوق الأرض دخان أسود كثيف خانق وغطى الأشجار لينقذ من الصقيع هذه الآلاف كانت الأشجار موزعة هنا بنظام رقعة الشطرنج، وكانت صفوفها مستقيمة منتظمة، كأنها طوابير جنود، فأضفى هذا الانتظام الصارم الدقيق، مع كون الأشجار كلها بارتفاع واحد، وأغصان وجذوع متشابهة تماماً، أضفى على الصورة طابع الرتابة، بل والملل سار كو فرين وتانيا عبر صفوف الأشجار التي كانت تشتعل بجوارها أكوام من الروث والقش وشتى المخلفات، وكانا أحياناً يقابلان عمالاً يحومون في الدخان كالظلال لم تكن مزهرة سوى أشجار الكرز والبرقوق وبعض أنواع التفاح، بيد أن البستان كله كان غارقاً في الدخان، فلم يتنفس كوفرين بملء رئتيه إلا بجوار المشاتلقال وهو يهز كتفيه :

منذ الطفولة كنت أعطس هنا من الدخان ولكني حتى الآن لا أفهم كيفيستطيع الدخان أن يحمي من الصقيع .

فأجابت تانيا - :الدخان يحل محل السحب عندما لا تكون موجودة.

وما الحاجة إلى السحب؟ - في الجو الملبد بالسحب لا يحل الصقيع صباحاً .

هكذا !وضحك وأمسك يدها كان وجهها العريض، الجاد للغاية والمقرور وذو الحاجبين الأسودين الدقيقين، وياقة معطفها المرفوعة التي كانت تعوق رأسها عن التحرك بحرية، وهي كلها، النحيلة الممشوقة، في فستانها المرفوع قليلا حتى لا يبلله الندى، تثير فيه الدهشة والتأثر .

وقال - :يا إلهي، لقد أصبحت كبيرة !عندما سافرت من هنا آخر مرة، منذ حوالي خمس سنوات، كنت بعد طفلة تماماً كنت نحيلة جداً، طويلة الساقين، حاسرة الرأس، ترتدين فستاناً قصيراً، وكنت أغيظك بالكركيماذايفعل الزمن؟!.

فتنهدت تانيا - :نعم،خمس سنوات !كم مر منذ ذلك الحين قل لي يا أندريوشا بصدق -قالت بحيوية وهي تحدق في وجهه : هل نسيتنا؟ وعموما فما لي أسأل؟ أنت رجل، تحيا الآن حياتك الخاصة، الشيقة، أنت شخص بارز والاغتراب طبيعى تماماً! ولكن مهما كان يا أندريوشا، فإنني أود أن تعتبرنا أهلك ولناالحق في ذلك .

-أنا أعتبركم يا تانيا - أنتقول الحق؟ - نعم، أقول الحق .

-أدهشك اليوم أن لدينا هذه الكثرة من صورك ولكنك تعرف أن أبي معجب بك وأحياناً يخيل إلى أنه يحبك أكثر مني إنه فخور بك فأنت عالم، رجل فذ، وقد شققت لنفسك مستقبلاً باهراً، وهو واثق من أنك أصبحت كذلك.

لأنه هو الذي رباك وأنا لا أصرفه عن هذا الاعتقاد ليكن<

حل الفجر وكان هذا ملحوظاً بصفة خاصة من ذلك الوضوح الذي أخذت تبرز به في الهواء أعمدة الدخان وأغصان الأشجار وصدحت البلابل، وتناهى من الحقول صباح السمان .

وقالت تانيا :

.ولكن حان الوقت لننام. ثم إن الجو بارد - وتأبطت ذراعه - شكرا يا أندريوشا على مجيئك معارفنا هنا ليسوا ممتعين، وحتى هؤلاء قليلون ليس لدينا سوى البستان، البستان، البستان، ولا شيء غيره وقالت ضاحكة - شتامب، نصف شتامب، أوبورتو، رينيت، بوروفينكا(، التلقيح، التطعيم.. حياتنا كلها كلها ابتلعها البستان، حتى إنني لا أحلم أبدا بشيء سوى بأشجار التفاح والكمثرى بالطبع هذا حسن، مفيد، ولكني أحيانا أتوق أيضا إلى شيء أخر من أجل التنويع .أذكر عندما كنت تأتي إلينا في الإجازات أو هكذا بلا مناسبة.

كان جو المنزل يصبح أكثر انتعاشاً وإشراقاً، كما لو كانت الأغطية قد نزعت عن النجف والأثاثكنت أنا طفلة آنذاك، ومع ذلك كنت أفهم .تحدثت طويلا وبعاطفة قوية.

ولسبب ما دار بذهنه أنه من الجائز خلال الصيف أن يتعلق بهذا المخلوق الصغير الضعيف الكثير الكلام، ويغرم به ويحبه ففي مثل وضعهما كان هذا شيئاً محتملاً جداً وطبيعياً؛ وفتنته هذه الفكرة وأضحكته، فمال إلى الوجه الرفيق المهموم وغني بصوت خافت :أنيجين، لن أخفى حبي شامب: اسم جذع الشجرة من الجذر إلى الفروع أوبورتو، أسماء أنواع من التفاح.

حينما عادا إلى المنزل كان يجور سيميو نيتش قد استيقظ ولم يشعر كو فرين برغبة في النوم فاندمج في الحديث مع العجوز، وعاد معه إلى البستان كان يجور سيمونيتش طويل القامة، عريض المنكبين، بكرش كبير، وكان يعانى من اللهاث، ولكنه كان يسير دائما بسرعة إلى درجة يصعب معها اللحاق به وكان مظهره ينم عن القلق البالغ، يسرع دائما إلى مكان ما وعلى وجهه تعبير، كأنما لو تأخر دقيقة واحدة لضاع كل شيء.!

يا لها من حكاية يا أخى متوقفاً بين الحين والحين ليلتقط أنفاسه على سطح الأرض صقيع كما ترى، ولو رفعت الترمومتر على عصا لمسافةذراعين فوق الأرض فستجدالجو دافئا فلماذا هكذا؟ فقال كوفرينضاحكاً

-لا أدري حقاً.

-أم.. طبعا لا يمكن معرفة كل شيء مهما كان العقل واسعا فلن يتسعلكل شيء أنت مهتم أكثر بالفلسفة، أليس كذلك؟.

-بلي، أقرأ محاضرات في علم النفس، ولكني أشتغل عموما بالفلسفة

- ألا تمل؟

- بالعكس، لا أحيا إلا على ذلك .

وفقك الله - قال يجور سيميونيتش وهو يمسد سالفيه الأشيبين متفكراًوفقك الله أنا مسرور جدا من أجلك مسرور يا أخي .

ولكنه أصاخ السمع فجأة، وأصبح وجهه رهيبا، وركض جانبا، وسرعانما غاب وراء الأشجار في سحب الدخان .

من أوبرا تشايكوفسكي ديفجيني أنيجين المأخوذ عن رواية بوشكين الشعرية وتانيا هواسم التدليل من الاسم الكامل تاتيانا .

من هذا الذي ربط الحصان إلى شجرة التفاح؟- تناهت صرخته البائسة الملتاعة من هذا الوغد المحتال الذي تجاسر على ربط الحصان إلى شجرة التفاح؟ يا إلهي يا إلهى! أفسدوا البستان، دنسوه، لوثوه !ضاع البستان !هلك البستان! يا إلهي !.

وعندما عاد إلى كوفرين كان وجهه منها، وقال بصوت باك وهوبشيح بيديه :

-ماذا أفعل لهؤلاء الملاعين؟ ستيوبكا نقل الروث ليلاًوربط الحصان إلى شجرة التفاح! لف عليها الوغد اللجام بشدة، حتى إن اللحاء جرح في ثلاثة مواضعهل رأيت؟! أقول له وهو لا يفقه شيئاً بل يطرف بعينيه: قليل عليه الشنق !.

وإذ هدأت ثورته عانق كوفرين وقبله في خده ودمدم :

حسنا، وفقك الله وفقك الله أنا سعيد جداً بمجيئك سعيد سعادةلا توصفشكراً لك .

وبعد ذلك، وبنفس المشية السريعة والوجه المهموم، طاف بالبستان كله، وفرج ربيبه السابق على المشاتل والدفيئات وحظائر التربة ومنحليه اللذين كان يسميهما أعجوبة هذا القرن .

وأثناء طوافهما أشرقت الشمس وأضاءت البستان بنور ساطع وانتشر الدفء وإذ توقع كوفرين يوماً طويلاً صافياً مرحاً،تذكر أن ذلك ليس إلا بداية مايو، وأن الصيف كله ما زال أمامه، صيف طويل صاف مرح مثل هذا اليوم، وفجأة تحرك في قلبه إحساس فرح فتى كذلك الذي كان يراوده في الطفولة

عندما كان يركض في هذا البستان وإذا به يعانق العجوز ويقبله برقةومضيا كلاهما إلى البيت منفعلين، وشرعا يشربان الشاى من أقداح خزفية عريقة مع الكريم والكعك الدسم المشبع وذكرت هذه التفاصيل كوفرين بطفولته وصباه مرة أخرى واتحد الحاضر الرائع بصور الماضي التي استيقظت فيه، فضاقت بهما روحه، ولكنه أحس بالراحة .

وانتظر حتى استيقظت تانيا، فشرب معها القهوة، وتنزه، ثم ذهب إلى غرفته وجلس يعمل كان يقرأ بإمعان، ويسجل ملاحظات، وأحياناًً يرفع بصره وينظر إلى النوافذ المفتوحة أو إلى الزهور النضرة التي لا تزال مبللة بالندى والموضوعة في أصيص على الطاولة، ثم يعود ببصره إلى الكتاب، وبدا له أن كل عرق في بدنه ينتفض ويرقص من المتعة .

وظل في الريف يواصل نفس الحياة القلقة المضطربة التي كان يحياها في المدينة كان يقرأ ويكتب كثيراً، ويتعلم اللغة الإيطالية، وعندما يتنزه كان يفكر بلذة في أنه سيعود ليواصل العمل قريباً وكان ينام قليلاً جداً لدرجة أثارت دهشة الجميع فإذا نعس في النهار صدفة لنصف ساعة فلا ينام الليل، وبعد ليلة من السهاد يشعر بالحيوية والمرح وكأن شيئاً لم يكن .

كان يتحدث كثيراً، ويحتسي النبيذ ويدخن السيجار وكانت آنسات من جارات تانيا زرن كثيراً، كل يوم ، ويعزفن مع تانيا على البيانو ويغنين كان يأتي شاب ، يعزف جيداً على الكمان

وكان كوفرين يستمع إلى العزف والغناء بنهم ويرهق منهما، وكان الإحساسالأخير يتجلى بدنياً في انطباق جفنيه وميل رأسه جانباً .

وذات مرة جلس بعد شاي المساء في الشرفة يقرأ وفي تلك الأثناء كانت تانيا في غرفة الجلوس تغنى سوبرانو، وإحدى الآنسات تغنى كونتر التو والشاب يعزف على الكمان،وهم يتدربون على سير نادا براج المعروفة وأصغي كوفرين إلى الكلمات وكانت بالروسية ولم يستطع أبداً أن يفهم معناها وأخيراترك الكتاب وأصاخ بإمعان ففهم: سمعت فتاة مصابة بالوهم في الحديقة ليلاً أصواتا غامضة، رائعة وغريبة إلى درجة كان ينبغي معها أن تعتبرها هارمونيا مقدا، ليس مفهوما لنا نحن الفانين ولهذا يعود أدراجه طائراً إلى السماء .

وأخذ جفنا كوفرين ينطبقان فنهض وتمشي في غرفة الجلوس مرهقاً، ثم فيالصالة وعندما توقف الغناء تأبط ذراع تانيا وخرج معها إلى الشرفة وقال :

-منذ الصباح تشغل بالي إحدى الأساطير لا أذكر هل قرأتها في كتاب ما أو سمعتها، ولكنها أسطورة غريبة، لا مثيل لها فهي قبل كل شيء لا تتميزبالوضوح فقبل ألف عام سار راهب، يرتدي السواد، في الصحراء، في مكان ما في سوريا أو الجزيرة العربية وعلى بعد عدة أميال من المكان

الذي كان يسير فيه رأى الصيادون راهبا آخر كان يمشي ببطء على سطح البحيرة وكان هذا الراهب الثانى سراباً والآن انسى كل قوانين البصريات،التي يبدو أن الأسطورة لا تعترف بها، واسمعي التالي من ذلك السراب تكون سراب آخر، ومن الآخر تكون ثالث، حتى إن صورة الراهب الأسود أصبحت تتنقل بلا نهاية من إحدى طبقات الجو إلى الأخرى وشوهد تاره في أفريقيا، وتارة في أسبانيا، وتارة في الهند، وتارة في أقصى الشمال وأخيراً تجاوز نطاق الغلاف الجوي الأرضي وأصبح الآن يضرب في الكون دون أن يصادف محيطاً تنطفئ صورته فيه وربما يرونه الآن في مكان ما على المريخ، أو في إحدى نجوم الصليب الجنوبي ولكن أهم ما في الأمر ياعزيزتى، الشيء المحوري في الأسطورة، هو أنه بعد ألف عام بالضبط من ذلك الزمن الذي كان الراهب فيه يقطع الصحراء، سيعود السراب ثانية إلى الغلاف الجوي الأرضى ويظهر للناس وكما لو كانت هذه الأعوام الألف على وشك الانقضاء وحسب مغزى الأسطورة فعلينا أن نتوقع ظهور الراهب الأسود بين يوم وليلة .
-سراب غريب قالت تانيا التي لم تعجبها الأسطوره فضحك كوفرين قائلاً :

-ولكن أغرب ما في الأمر أنني لا أستطيع أبداً أن أتذكر من أين وردت هذه الأسطورة إلى رأسى؟ هل قرأتها؟ هل سمعتها؟ أم ربما رأيت الراهب الأسود في المنام؟ أقسم أنني لا أذكر ولكن الأسطورة تشغل بالي إنني أفكر فيها اليوم طوال النهار

وترك تانيا تنصرف إلى ضيوفها وخرج من المنزل وتجول متفكراً بجوار أحواض الزهور كانت الشمس تغرب ولأن الزهور قد رشت لتوها بالماء فقد تضوعت برائحة رطبة مثيرة للأعصاب وتردد الغناء في المنزل من جديد، وبدا صوت الكمان من بعيد أشبه بصوت بشري وأجهد كوفرين فكره ليتذكر أين قرأ أو سمع الأسطورة، ومضى على مهل إلى الحديقة فبلغ النهر دون أن يلحظ .

وهبط إلى النهر على الدرب الممتد على الشاطئ الشديد الانحدار بجوار الجذور العارية، فأزعج البكاشين وأفزع بطتين وعلى ذؤابات الصنوبرات الجهمة كانت آخر أشعة الشمس الغاربة تنعكس هنا وهناك، ولكن المساء كان قد حلتماماً على سطح النهر وعبر كوفرين إلى الضفة الأخرى فوق قنطرة. أصبح أمامه الآن حقل واسع مغطى بجودار فتى لم يزدهر بعد ولم يكن هناك مسكن بشري أو روح حية على مدى البصر، وبدا أن الدرب، لو سرت عليه، لأفضى بك إلى ذلك المكان الغامض المجهول الذي هبطت فيه الشمس لتوها، والذي يتوهج فيه المغيب بهذا الاتساع والعظمة .

وفكر كوفرين وهو يسير على الدرب: يا للرحابة والحرية والهدوء هنا ! يبدو أن الدنيا كلها تنظر إلى، وقد كتمت أنفاسها في انتظار أن أفهمها.

وها هو ذا الجودار يتموج، ومس نسيم المساء الخفيف رأس كوفرين الحاسر برقة وبعد دقيقة هبت دفقة ريح ثانية، ولكنها أقوى، فصخب الجودار، وتناهي من الخلف هزيم الصنوبرات المكتوم وتوقف كوفرين مأخوذاً فعند الأفق تصاعد من الأرض حتى السماء عامود أسود طويل،يشبه الزوبعة أو دوامة الهواء ولم تكن حدوده واضحة، ولكن كان من الممكن منذ الوهلة الأولى إدراك أنه لم يكن ثابتا في مكانه، بل يتحرك بسرعة رهيبة، يتحرك إلى هنا بالذات، نحو كوفرين مباشرة، وكلما اقترب أصبح أصغر وأوضح وارتمى كوفرين جانباً في الجودار ليفسح له الطريق، وبالكاد تمكن من ذلك .

مرق بجواره، راهب في حلة سوداء، برأس أشيب وحاجبين أسودين، وقد عقد ذراعيه على صدره ولم تكن قدماه الحافيتان تمسان الأرض وبعد أن مرق إلى مسافة ثلاث أذرع التفت إلى كوفرين، وأومأ برأسه وابتسم له ابتسامه رقيقة ولكنها في الوقت نفسه ماكره ولكن كم كان وجهه شاحباً، شاحباً إلى درجة فظيعة، ونحيلاً! وأخذ يكبر مرة أخرى فعبر النهر طائراً، وارتطم دون صوت بالشاطئ الطين والصنوبرات، ونفذ من خلالها، ثم اختفى كالدخان .

ودمدم كوفرين - :أرأيتم إذن وهكذا فالأسطورة صادقة .

لم يحاول أن يشرح لنفسه هذه الظاهره الغريبة، وأرضاه فحسب أنه استطاع أن يرى بهذا القرب والوضوح لا حلة الراهب السوداء فقط، بل ووجهه وعينيه أيضاً، فعاد إلى المنزل وهو يشعر باضطراب لطيف .

في الحديقة وفي البستان كان الناس يغدون ويروحون في هدوء، وفي المنزل كانوا يعزفون، إذن فهو وحده الذي رأى الراهب وتملكته رغبة شديدة في أن يخبر بذلك تانيا ويجور سيميونيتش، ولكنه أدرك أنهما، في الغالب، سيعتبران روايته هذياناً، وسيفزعهما ذلك؛ فمن الأفضل إذن أن يصمت وأخذ يضحك بصوت عال، ويغني، ويرقص المازوركا، وكان يشعر بالمرح، فاعتبر الجميع الضيوف وتانيا أن وجهه يبدو اليوم بصورة خاصة، نورانيا، ملهماً، وأنه شخص طريف للغاية .

بعد العشاء، عندما انصرف الضيوف، ذهب إلى غرفته وتمدد على الكنبة،فقد كان يريد أن يفكر في الراهب ولكن سرعان ما دخلت تانيا .

خذيا أندريوشا، اقرأ مقالات أبى قالت وهي تقدم له رزمة من الكراريسوملازم المطبعة - مقالات ممتازة إنه يكتب بصورة رائعة .

دعيك من المبالغة! قال يجور سيمونيتش الذي دخل في أثرها وهو يضحك بتصنع؛ فقد كان خجلاً لا تصغ إليها من فضلك، لا تقرأ! وعموماًإذا أردت أن تنعس فلتقرأها إذن، وسيلة منومة رائعة .

فقالت تانيا بيقين راسخ في رأيي أنها مقالات عظيمة اقرأها يا أندريوشا، وأقنع بابا بأن يكتبأكثر بإمكانه أن يكتب دورة محاضرات كاملة في فلاحة البساتين .

قهقة يجور سيمونيتش بتوتر، وتضرج وجهه، وأخذ يقول عبارات من تلكالتي يقولها المؤلفون المحرجون عادة وأخيراً بدأ يستسلم .

في هذه الحالة اقرأ أولاً مقالة جوشيه ثم هذه المقالات الروسية - دمدم وهو يقلب الكراريس بأصابع مرتعشة - وإلا فلن تكون المسائل مفهومه لك فقبل أن تقرأ اعتراضاتي ينبغي أن تعرف علام أعترض وعموماً، كلام فارغ في غاية الملل ثم إن موعد النوم قد حان، كما أظن .

خرجت تانيا وجلس يجور سيميونيتش إلى جانب كوفرين على الكنبةوزفر بعمق .

-نعم يا أخي شرع يقول بعد فترة صمت - هكذا يا عزيزي الماجستير ها أناذا أكتب مقالات، وأشارك في المعارض، وأحصل على ميداليات ويقولون إن التفاحة عند بيسوتسكى بحجم الرأس، ويقولون أن بيسوتسكى كون لنفسه ثروة من البستان وباختصار، كوتشوبى غنى وشهير ولكن السؤال هو: وما جدوى ذلك؟ صحيح أن البستان رائع، نموذجي ليس بستاناً، بل مؤسسة كاملة ذات أهمية كبرى على مستوى الدولة.

لأنه إذا جاز التعبير خطوة إلى العصر الجديد للاقتصاد الروسي والصناعة الروسية ولكن ما جدواه؟ ما الهدف؟عملكم يشهد لنفسه بنفسه .

لا أقصد هذا المعنى إنني أريد أن أسأل: ما الذي سيحدث للبستان عندما أموت؟ لن يبقى بعد وفاتي شهراً واحداً بهذه الصورة التي تراه عليها إن سر النجاح ليس في كون البستان كبيراً والعمال كثيرين، بل في أنني أحب هذا العمل، أتفهم؟ أحبه ربما أكثر من نفسي انظر إلى، إنني أصنع كل شيء بنفسي إنني أعمل من الصباح إلى المساء التطعيم كله أجريه بنفسي، والتقليم بنفسي، والشتل بنفسي، كل شيء بنفسي وعندما يساعدني أحد أشعر بالغيرة وأستثار إلى حد الخشونة السر كله في الحب، أي في العين المدبرة اليقظة وفي الأيدي المدبرة، وأيضاً في ذلك الإحساس الذي يراودك عندما تذهب ضيفاً إلى أحد ما لمدة ساعة فتشعر وأنت هناك بأن قلبك في غير مكانه، وأنت نفسك على غير طبيعتك إذ تخشى أن يحدث شيء للبستان فمن ذا الذي سيعتنى به بعد أن أموت؟ من ذا الذي سيعمل؟ البستاني؟ العمال؟ نعم؟ إذنفلتسمع ما أقوله لك يا صديقي العزيز : إن العدو الأول لعملنا ليس الأرنب أو الخنفساء أو الصقيع، بل الشخص الغريب .

فسأله كوفرين ضاحكاً :وتانيا؟ لا يمكن أن تكون أكثر ضرراً من الأرانب إنها تحب هذا العملوتفهمه .

-نعم، إنها تحبه وتفهمه لو أن البستان آل إليها بعد وفاتي وأصبحت صاحبته، فليس هناك بالطبع من هو أفضل من ذلك ولكن ماذا لا قدر اللهلو تزوجت؟ - همس يجور سيميونيتش، ونظر إلى كوفرين بفزع تلك هي المسألة!ستتزوج، وتنجب أطفالاً، وعندها لا يصبح لديها وقت للتفكير في البستان إن أكثر ما أخشاه أن تتزوج من شاب ما، ويتملك الجشع هذا الشاب فيؤجر البستان للبائعات، فيذهب كل شيء إلى الشيطان في أول سنة! النساء في عملنا هذا لعنة مسلطة !.

تنهد يجور سيميونيتش وصمت قليلاً ثم قال - :ربما كانت هذه أنانية، ولكني أقول لك بصراحة : أنا لا أريد أتانيا أن تتزوج أخاف ! يوجد هنا غندور يزورنا بكمان ويطنطن عليه وأعرف أن تانيا لن تتزوجه، أعرف جيدا، ومع ذلك لا أطيق رؤيته! وعموماً يا أخي فأنا فعلاًغريب الأطوار أعترف بذلك .

نهض يجور سيميونيتش، وذرع الغرفة منفعلاً، وكان واضحاً أنه يريد أنيقول شيئاً مهماً للغاية ولكنه لا يجرؤ .

إنني أحبك بحرارة وسوف أكون صريحاً معك - قرر أخيراً أن يقول، وقد دس يديه عميقاً في جيبيه أنا أنظر إلى بعض الأمور الحساسة ببساطة، وأقول مباشرة ما أفكر فيه، ولا أطيق ما يسمى بالأفكار المكنونة

أقول لك بصراحة: أنت الشخص الوحيد الذي لا أخشى أن أزوجه ابنتي أنت رجل ذكي، ذو قلب، ولن تسمح لعملى المحبوب أن يهلك أما السبب الرئيسي فهو أنني أحبك كابنى وأفخر بك ولو نشأت بينك وبين تانيا علاقة فليكن سأكون مسروراً جداً، بل وسعيداً أقول لك هذا بصدق، دون تكلف.

عنوان إحداها: حول المحصول الانتقالي، وعنوان الأخرى: تعليق قصير على مقال السيد س حول تقليب التربة لإقامة بستان جديد، وكان عنوان الثالثة: مرة أخرى عن التطعيم بالأكمام النائمة، وهكذا دواليك ولكن أية نبرة منفعلة، عصبية، أي حماس يكاد يكون مرضيا ! ها هي ذي مقالة بعنوان يبدو مسالما للغاية وبمحتوى محايد، وهي تتحدث عن تفاح أنطونوفكاالروسي ولكن يجور سيميونيتش يبدأها وينهيها وبين هاتين العبارتين شلال دافق من الكلمات اللاذعة الموجهة إلىالجهل العلمي للسادة خبرائنا المعترف بهم في فلاحة البساتين الذين يراقبون الطبيعة من منابرهم الجامعية، أو إلى السيد جوشيهالذي أحرز نجاحه بفضل الجهلة والهواة، ثم أسف غير مناسب، وغير صادق، على أنه لم يعد من الممكن جلد الفلاحين الذين يسرقون الفواكه ويحطمونالأشجار أثناء ذلك .

وفكر كوفرين: قضية جميلة، لطيفة، وسليمة، ولكن حتى هنا تلتهب الغيرة وتشتعل الحرب لا بد أن الأشخاص العقائديين هم في كل مكان ومجال عصبيون ويتميزون بحساسية عالية ربما كان ذلك

مطلوباً .

وتذكر تانيا التي تعجبها جداً مقالات يجور سيميونيتش قصيرة القامة، شاحبة نحيلة إلى درجة بروز عظام الترقوة عيناها مفتوحتان باتساع، داكنتانذكيتان، تحدقان دائما بإمعان وتبحثان دائما عن شيء ما ومشيتها، كمشية أبيها، دقيقة، متعجلة وهي تتحدث كثيراً، وتهوى الجدل، وخلال ذلك تصاحب كل عبارة، حتى التافهة بحركات الوجه واليدين يبدو أنها عصبية إلى أقصىحد .

وواصل كوفرين القراءة، ولكنه لم يفهم شيئا فتركها وذلك الانفعال اللطيف، الذي رقص به المازوركا واستمع إلى الموسيقى منذ قليل، أصبح الآن يعذبه ويثير فيه أفكارا كثيرة فنهض، وأخذ يذرع الغرفة، وهو يفكر في الراهب الأسود وخطر بذهنه أنه إذا كان هو وحده الذي رأى هذا الراهب الغريب، الخارق، فهذا يعني أنه مريض وبلغ به الأمر حد التهيؤات وأخافه هذا الخاطر، ولكن لوقت قصير .

ولكني أشعر بالراحة، ولا أسبب أذى لأحد، إذن فليس في تهيؤاتى أيشىء سيئ - فكر كوفرين، ومن جديد أحس بالراحة .

وجلس على الكنبة ووضع رأسه بين يديه وهو يكتم فرحة غير مفهومة ملأت كل كيانه، ثم راح وجاء مرة أخرى، وجلس إلى المكتب ليعمل ولكن الأفكار التي قرأها في الكتاب لم ترضه كان يرغب في شيء عملاق،لا حدود له، مذهل

وقبيل الصباح نزع ملابسه وأوى مكرهاً إلى الفراش، فمن المفروض في النهاية أن ينام؟.

وعندما سمع كو فرين وقع خطوات يجور سيميونيتش الذي خرج إلى البستان، دق الجرس وأمر الخادم أن يحضر له نبيذا وشرب عدة كؤوس من نبيذ لافيت بلذة، ثم تغطى حتى رأسه وغام وعيه، ثم نعس .كان يجور سيميونيتش وتانيا كثيراً ما يتشاجران فيكيل كل منهما للآخركلمات مسيئة .

وفي هذا الصباح تشاجرا بسبب شيء ما وبكت تانيا وانصرفت إلى غرفتها ولم تخرج للغداء ولا لتناول الشايوفي البداية ساريجور سيميونيتش متخذاً سيماء الأهمية،عابا، كما لو كان يريد أن يظهر أن مصالح العدالة والنظام بالنسبة له أسمى من أي شيء في الدنيا، ولكنه لم يستطع أن يصمد طويلاًوسرعان ما انهارت معنوياته وأخذ يتجول في الحديقة حزيناً ويتنهد: آه، يا إلهي، يا إلهى!ولم يذق في الغداء لقمة واحدة وأخيراً مضى مذنباً، معذب الضمير إلى الباب الموصد فطرقه ونادى بوجل - :تانيا! تانيا !.

فسمع من خلف الباب صوتاً ضعيفاً، أرهقته الدموع ولكنه في الوقتنفسه حازم - :دعني أرجوك .

وانعكست كآبة السادة على البيت كله، حتى على العاملين في البستان .

وكان كوفرين منهمكاً في عمله الشيق، ولكن حتى هو، أحس في النهاية بالملل والحرج ولكي يبدد المزاج العام السيئ بشكل ما، قرر أن يتدخل، فدق باب غرفة تانيا قبيل المساء وسمحت له بالدخول .

-عيب، عيب، ألا تخجلين؟ - بدأ يقول مازحاً وهو ينظر بدهشة إلى وجهتانيا الباكى، الحزين، المغطى ببقع حمراء - الأمر جد هكذا؟ عيب عليك.

-آه لو تعلم كيف يعذبني! قالت تانيا وانهمرت دموع مريرة غزيرة من عينيها الواسعتين لقد عذبني تماماً! استطردت وهي تلوي ذراعيها أنا لم أقل له شيئاً أبداً قلت فقط إنه لا داعي للاحتفاظ بعمال زائدين، طالما من الممكن في أي وقت استئجار عمال يومية العمال العمال لا يفعلون شيئاً طوال أسبوع أنا هذا فقط ما قلته، فصرخ في، وانهال على بكلمات مسيئة، مهينة جداً، لماذا؟

فقال كوفرين وهو يسوى شعرها - :كفى، كفى تشاجرتما وبكيت فيكفي لا يصح الزعل طويلاً، هذا ليسحسناً خاصة وإنه يحبك بلا حدود .

فمضت تانيا تقول وهي تشهق :

-إنه إنه أفسد حياتي لا أسمع منه سوى الإساءات والإهانات

إنه يعتبرني زائدة في بيته حسناً، إنه على حق سأرحل من هنا غدا، وألتحق بمكتب تليغراف ليكن.

طيب، طيب، طيب لا داعي للبكاء يا تانيا لا داعي يا عزيزتي كلاكماسريع الغضب، عصبى، وكلاكما مخطئ هيا، هيا أصالحكما .

كان كوفرين يتكلم بلطف وإقناع، بينما واصلت تانيا البكاء وكتفاها تنتفضان، وراحت تعصر بديها وكأنما حلت بها حقاً فاجعة رهيبةوممازادمن إشفاقه عليها أن مصابها كان بسيطا بينما كانت تعاني منه بشدة أية أشياء تافهة كانت كافية لجعل هذا المخلوق تعيساً طول النهار، بل ربما طول العمر؟ وبينما كان كوفرين يهدئ تانيا، راح يفكر في أنه لن يجد في الدنيا كلها، ولو أعياه البحث غير هذه الفتاة وأبيها أحداً يحبه كواحد منهم، كشخص عزيز قريب ولولا هذان الشخصان لما عرف في الغالب حتى الممات، هو الذي فقد أباه وأمه في طفولته المبكرة معنى المودة الصادقة، وذلك الحب الساذج المسالم الذي نكنه فقط للأشخاص القريبين للغاية الذين تربطنا بهم أواصر الدم وأحس أن أعصابه شبه المريضة، المستثارة تستجيب لأعصاب هذه الفتاة الباكية المنتفضة، كالحديد إلى المغناطيس وما عاد في وسعه أبداً أن يحب امرأة صحيحة، قوية، حمراء الخدين، ولكن تانيا الشاحبة الضعيفة، التعيسة، أعجبته .

فراح يمسح شعرها وكتفيها بسرور، ويضغط على راحتيها، ويمسح دموعها وأخيراً كفت عن البكاء وظلت طويلاً تشكو من أبيها وحياتها الشاقة التي لا تحتمل في هذا البيت وتتوسل إلى كوفرين أن يتفهم وضعها ثمأخذت شيئاً فشيئاً تبتسم وتتنهد إذ بلاها الله بهذا الطبع السيئ، ولكنها في النهاية ضحكت بصوت عال، ووصفت نفسها بالحمقاء وانفلتت راكضة من الغرفة .

وعندما خرج كوفرين إلى البستان بعد ذلك بقليل، كان يجور سيميونيتش وتانيا يتنزهان معاً في الممر، كأن شيئاًلم يكن، وكان كلاهما يأكلان خبز الجودار بالملح، فقد كانا جائعين .

ذهب كوفرين إلى الحديقة مسروراً من أنه وفق في أن يلعب دور المصلح وبينما كان جالساً على الأريكة يفكر سمع وقع عربات وضحكاً نسائياً لقد وصل الضيوف وعندما ارتمت ظلال المساء على البستان، ترددت بوهنأنغام كمان وأصوات تغني، فذكره ذلك بالراهب الأسود ترى أين يهيم الآن هذا اللامعقول البصري، في أي بلد أو في أي كوكب؟.

وما إن تذكر الأسطورة ورسم في خياله ذلك الشبح الأسود الذي رآه في حقل الجودار حتى خرج من وراء الصنوبرة، قبالته تماماً بدون صوت، دون أدنى حفيف، رجل متوسط القامة، برأس أشيب حاسر، متشحا بالسواد، حافي القدمين، أشبه بالشحاذ

وفي وجهه الشاحب كوجه ميت، برز بحدة حاجباه الأسودان اقترب هذا الشحاذ أو الجوال من الأريكة دون صوت فجلس، وهو يومئ برأسه محيياً، فعرف فيه كوفرين الراهب الأسود ومضت دقيقة وهما يتبادلان النظر كوفرين بذهول، والراهب برقة، وكما في المرة السابقة، بشيء من المكر، وبتعبير من يعرف شيئاً ويخفيه .

وقال كوفرين :ولكنك سراب فلماذا أنت هنا ولماذا أنت جالس لا تتحرك؟ إن هذا لايتفق والأسطورة .

فأجابه الراهب بعد فترة، بصوت خافت، ملتفتاً بوجهه نحوه: هذه سيان الأسطورة والسراب وأنا كل ذلك من وحي خيالك المستشارأنا شبح .

فسأله كوفرين -:إذن فلست موجودا؟.

فكر كما تشاء أجاب الراهب وابتسم بوهن أنا موجود في خيالك،وخيالك جزء من الطبيعة، إذن فأنا موجود في الطبيعة .

فقال كوفرين :

-وجهك عجوز وذكى جداً، ومعبر إلى أقصى حد، كأنك عشت بالفعل أكثر من ألف عام لم أكن أعرف أن خيالي قادر على خلق هذه الخوارق ولكن لماذا تنتظر إلى بهذا الإعجاب؟ هل أروق لك؟ .

-نعم أنت واحد من أولئك القلائل الذين يدعون بأبناء الله المختارينأنت تخدم الحقيقة الخالدة وأفكارك، ونواياك، وعلمك المدهش، وحياتك كلها تحمل بصمات إلهية، سماوية، لأنها مكرسة لما هو حكيم وجميل، أي لما هو خالد .

تقول: الحقيقة الخالدة ولكن هل يستطيع الناس بلوغ الحقيقة الخالدة،وهل هم بحاجة إليها إذا لم تكن هناك حياة خالدة؟.

فقال الراهب - :بل هناك حياة خالدة - أتؤمن بخلود البشر؟.

نعم، طبعاً إن مستقبلاً عظيماً باهراً ينتظركم،أنتم البشر وكلما كثر أمثالك على الأرض، تحقق هذا المستقبل أسرع فلولاكم، أنتم الذين تخدمون الغاية الأسمى، وتعيشون بوعي وحرية،لكانت البشرية تافهة ولو تطورت وفق النظام المألوف لظلت طويلاً تنتظر نهاية تاريخها الأرضي أما أنتمفسوف تدخلونها ملكوت الحقيقة الخالدة قبل الأوان بضع آلاف من السنين، وتلكهي الخدمة الجليلة التي ستقدمونها، أنتم تجسدون البركة الإلهية التي لميحظ بها البشر .فسأل كوفرين - :وما هي غاية الحياة الخالدة؟.

-كغاية كل حياة: المتعة إن المتعة الحقيقية هي في المعرفة، والحياة الخالدة ستقدم منابع عديدة لا تنفد للمعرفة، وفي هذا المعني بالذات قيل: إن في بيت أبى منازل كثيرة.

فقال كوفرين وهو يفرك يديه من المتعة - :آه لو تدري كم أستمتع بسماعك - !مسرور جداً .

لكني أعرف أنك حينما تمضي سوف يؤرقني السؤال عن طبيعتك أنتشبح، تهيؤات إذن فأنا مريض نفسياً، مجنون؟.

حتى لو كان كذلك فيم الخجل؟ أنت مريض لأنك عملت فوق طاقتك وأجهدت نفسك، وهذا يعني أنك ضحيت بصحتك في سبيل الفكرة، وقريباً يحل الوقت الذي تهبها فيه حياتك أيضاً فهل هناك ما هو أفضل؟ إن هذا هو ما تسعى إليه عادة كل الشخصيات الموهوبة النبيلة .

-وإذا ما كنت أعرف أنني مريض نفسياً، فهل أستطيع إذن أن أثق فينفسي؟.

-ولماذا تعتقد أن العباقرة، الذين يثق بهم العالم أجمع، لم يروا هم أيضاً أشباحاً؟ ألا يقول العلماء الآن أن العبقرية صنو الجنون يا صديقي، الأصحاء والطبيعيون هم فقط الأشخاص العاديون، أفراد القطيع إن الاعتبارات التي تذكر بخصوص عصر القلق، والإرهاق، والإنحلال إلخ، لا يمكن أن تثير أحداًسوى أولئك الذين يرون غاية الحياة في الحاضر، أي أفراد القطيع .

ولكن الرومان قالوا .mens sana in corpore sano :

-ليس كل ما قاله الرومان أو الإغريق حقيقة فالمزاج العالي، والاستثارة، والنشوة، أي كل ما يميز الأنبياء والشعراء وشهداء الفكرة عن الناس العاديين، يتنافر مع الجانب الحيواني في الإنسان، أي مع صحته البدنية أكرر: إذا أردت أن نكون صحيحاً وطبيعياً، فاذهب إلى القطيع .

فقال كوفرين :

-غريب أنك تكرر ما يطوف كثيراًفي ذهني كأنك تلصصت وتنصت إلى أفكاري المكنونة ولكن دعنا نترك الحديث عن شخصى ما الذي تعنيه بالحقيقة الخالدة؟.

لم يرد الراهب وتطلع كوفرين إليه فلم يميز وجهه تضببت ملامحه وتلاشت ثم أخذ يختفي رأس الراهب، ويداه، واختلط بدنه بالأريكة وغسق المساء، ثم تلاشى تماماً .

-انتهت التهيؤات! - قال كوفرين ثم ضحك - يا خسارة .

وعاد أدراجه إلى البيت مرحاً وسعيداً لم تهدهد تلك الكلمات القليلة التي قالها له الراهب الأسود غروره، بل روحه كلها، وكيانه كله أن يكون منالمختارين، أن يخدم الحقيقة الخالدة، أن يكون في عداد أولئك الذين سيجعلون البشرية جديرة بملكوت الله قبل الأوان بعدة آلاف من السنين

أي يريحون الناس من عدة آلاف سنين لا مبرر لها من النضال والذنوب والعذاب، أن يهب الفكرة كل شيء: صباه وقواه وصحته، أن يكون مستعداًللموت في سبيل خير الجميع يا له من قدر سام سعيد! وومض في ذاكرته ماضيه، البريء، الطاهر، المفعم بالعمل، وتذكر ما تعلمه وما علمه هو نفسه للآخرين، فقرر أنه لم تكن هناك مبالغة فيما قاله الراهب .

كانت تانيا تسير نحوه في الحديقة وكانت قد غيرت فستانهاقالت :

-أنت هنا؟ ونحن نبحث عنك ونفتش ولكن ماذا بك؟ قالت بدهشة وهي ترى وجهه المفعم بالإعجاب والبريق وعينيه المليئتين بالدموع كم أنت غريب يا أندريوشا. فقال كوفرين وهو يضع يديه على كتفيها :

-أنا مبسوط يا تانيا بل أكثر من مبسوط، أنا سعيد! تانيا، يا تانيا العزيزةأنت مخلوق لطيف للغايةتانيا العزيزة، كم أنا مسرور، كم أنا مسرور !ولثم يديها بحرارة واستطرد :

-لقد عشت منذ قليل لحظات مشرقة، خلابة، سامية ولكني لا أستطيع أن أروى لك كل شيء لأنك ستعتبرينني مجنوناً أو لا تصدقينني فلنتحدث عنك تانيا العزيزة الرائعة! إنني أحبك وأصبحت آلف حبك أصبح قربك ولقاؤنا عشر مرات في اليوم حاجة لا غنى عنها لروحي لا أعرف كيف سأعيش بدونك عندما أعود إلى دارى

فضحكت تانيا: - أوه! سوف تنسانا بعد يومين نحن ناس صغار، وأنت رجل عظيم فقال كوفرين - كلا، فلنتحدث جدياً ! سوف آخذك معى يا تانيا حسناً؟ هل تأتين معى؟ هل تريدين أن تصبحى لى؟.

-أوه! - قالت تانيا وأرادت أن تضحك ثانية، ولكنها لم تفلح، وظهرتبقع حمراء على وجهها .

وترددت أنفاسها بتلاحق، واندفعت تسير بسرعة، ولكن ليس باتجاهالمنزل، بل إلى عمق الحديقة .

-أنا لم أفكر في ذلك لم أفكر! - قالت وهي تعصر يديها كأنما فييأس .

وسار كوفرين خلفها وهو يقول بنفس الوجه المشرق الطافحبالإعجاب :
-إنني أريد حباً يستولي على كل كيانى، وهذا الحب لا يستطيع أن يهبه ليإلا أنت يا تانيا أنا سعيد !سعيد !

كانت مذهولة، فانطوت وانكمشت كأنما كبرت فجأة عشرة أعوام، أما هوفكان يراها رائعة ويعبر عن إعجابه بصوت عال - :كم هي جميلة !عندما علم يجور سيميونيتش من كوفرين أنه لم تنشأ بينه وبين تانيا علاقةفحسب، بل سيكون عرس أيضاً، أخذ يذهب ويجيء طويلاًمن ركن إلى ركن محاولاً إخفاء اضطرابه وأصابت الرعشة يديه، وانتفخ عنقة وتضرج، فأمر بإعداد العجلة الخفيفة ورحل إلى جهة ما

وعندما رأت تانيا كيف أهوى بالسوط على الحصان، وكيف شد العمرة عميقاً على رأسه، حتى أذنيه تقريباً، أدركت كنه مزاجه، فأغلقت غرفتها على نفسها وبكت طول النهار .

في الدفيئات كان الخوخ والبرقوق قد نضجا وكان تغليف هذه البضاعة الرقيقة والنزقة وإرسالها إلى موسكويتطلب كثيراً من العناية والجهد والمشاغل ولما كان الصيف حاراً وجافاً، فقد كان ينبغى رى كل شجرة، الأمر الذي استهلك الكثير من الوقت والأيدي العاملة، وظهرت الديدان بكمية رهيبة، فكان العمال، وحتى يجور سيميونيتش وتانيا، يسحقونها بأصابعهم مباشرة، مما أثار تقزز كوفرين البالغ وعلاوة على ذلك فقد حان الوقت لتلقي الطلبات التوريد الفواكه والأشجار في الخريف والقيام بمكاتبات كثيرة وفي إبان هذه الفترة الحرجة، حين بدا أن أحداً لا يملك دقيقة فراغ حل أوان أعمال الحقول، التي انتزعت من البستان أكثر من نصف العمال وكان يجور سيميونيتش، الذي اسمر بشدة، يركض معذباً، ، تارة إلى البستان، وتارة إلى الحقل، ويصرخ بأنهم يمزقونه إرباً، وأنه سيطلق رصاصة على رأسه .

أضف إلى ذلك مشاغل جهاز العروس، الذي كان آل بيسوتسكى يولونه أهمية غير قليلة ومن رنين المقصات ودق ماكينات الخياطة، ودخان المكاوى،ومن نزق مصممة الأزياء، تلك السيدة العصبية السريعة الغضب، دارت رؤوس كل أهل البيت

وكأنما نكاية بهم أخذ الضيوف يأتون كل يوم، فكان لا بد من تسليتهم وإطعامهم، بل وإبقائهم للمبيت أحياناً ولكن كل هذه الأشغال الشاقة مرت دون أن تلاحظ، وكأنما من خلال الضباب وكانت تانيا تشعر وكأنما دهمها الحب والسعادة بغتة، رغم أنها كانت منذ الرابعة عشرة من عمرها واثقة لسبب ما بأن كوفرين سيتزوج منها بالذات كانت تشعر بالذهول والدهشةولم تصدق نفسها وتارة تغمرها فرحة بحيث تود لو حلقت إلى عنان السماء فتصلي هناك لله، وتارة تتذكر فجأة أنه سيكون عليها في أغسطس أن تفارق عشها الحبيب وتترك أباها، أو تواتيها من حيث لا يعلم إلا الله فكرة أنها تافهة، ضحلة وغير جديرة برجل عظيم مثل كوفرين، فتمضي إلى غرفتها وتوصدها عليها وتبكي بحرقةلعدة ساعات وعندما يزورهم ضيوف يخيل إليها بغتة أن كوفرين جميل بصورة غير عادية، وأن جميع النساء مغرمات به ويحسدنها، فتمتلئ روحها بالإعجاب والفخر، كأنما انتصرت على العالم أجمع، ولكن ما إن يبتسم كوفرين لآنسة ما، حتى تنتابها رعشة الغيرة، فتمضي إلى غرفتها، فإلى الدموع ثانية واستولت عليها تماماً هذه المشاعر الجديدة، فكانت تساعد أباها بطريقة آلية ولا تلاحظ الخوخ أو الديدان أو العمال، أو مرور الوقت بهذه السرعة .

-عندما كان صغيراً يتربى عندي كان له مثل ذلك الوجه الملائكي الصبوح الطيب ونظراته وحركاته وحديثه رقيقاً ورشيقاً مثلما لدي أمه وذكاؤه؟ كان دائماً يذهلنا بذكائه يكفي أنه أصبح ماجستير ليس صدفة!

ليس صدفة! انتظر يا إيفان كارليتش وسترى كيف سيصبح بعد عشر سنوات! لن تبلغه يدك !. ولكن يجور سيميونيتش الحقيقى يستدرك فجأة، فيصبح وجهه رهيباً،

ويمسك برأسه ويصيح :

-الشياطين! أفسدوا البستان، دنسوه، لوثوها ضاع البستان! هلكالبستان ! أما كوفرين فكان يعمل بدأبه السابق ولم يلاحظ الهرج وصب الحب المزيد من الزيت على النار وبعد كل لقاء مع تانيا كان يعود إلى غرفته سعيداً، معجباً، وبنفس الهيام الذي قبل به تانيا منذ قليل وباح لها بحبه، ينكب على كتاب أو على مخطوطه كان ما قاله الراهب الأسود عن أبناء الله المختارين، عن الحقيقة الخالدة، عن مستقبل البشرية الباهر وغير ذلك، يضفي على عمله أهمية خاصة، غير عادية، ويملأ روحه بالاعتزاز والإدراك لسموه وكان يلتقي بالراهب الأسود مرة أو مرتين أسبوعياً، في الحديقة أو في المنزل، فيتحدث معه طويلاً، ولكن ذلك لم يخفه، بل بالعكس، أثار إعجابه، لأنه أصبح على ثقة تامة بأن مثل هذه الرؤى لا تراود إلا المختارين، البارزين، الذين وهبوا حياتهم لخدمة الفكرة .

وذات مرة جاء الراهب أثناء الغداء فجلس بجوار النافذة في غرفة الطعام وفرح كوفرين، وأدار حديثاً مع يجور سيميونيتش وتانيا بمهارة كبيرة عما يمكن أن يكون شبقاًللراهب

وأصغى الضيف الأسود وهو يهز رأسه ببشاشة، وأصغى يجور سيميونيتش وتانيا أيضاً وهما يبتسمان بمرح، دون أن يفطنا إلى أن كوفرين لا يتحدث إليهما، بل إلى تهيؤاته .

لم يلاحظوا كيف اقترب صيام الرفع، وسرعان ما تبعه يوم العرس الذي احتفلوا به، حسب رغبة يجور سيميونيتش الملحة، بفرقعة، أي بازدحام مشوش استمر يومين وأكلوا وشربوا بحوالي ثلاثة آلاف روبل، ولكنهم بسبب الفرقة الموسيقية المؤجرة السيئة، والأنخاب الزاعقة، وهرولة الخدم، بسبب الصخب والزحام لم يقدروا مذاق النبيذ الفاخر أو المزات المدهشةالمجلوبة من موسكو .

ذات ليلة طويلة من ليالي الشتاء كان كوفرين راقداًفي الفراش يقرأ رواية فرنسيةوكانت تانيا المسكينة، التي كانت تعاني من الصداع كل مساء لعدمتعودها على المعيشة في المدينة، نائمة منذ وقت طويل، وأحياناً تتفوه هاذية بعبارات ما غير مترابطة .

ودقت الساعة الثالثة فأطفأ كوفرين الشمعة ورقد وظل ممدداً فترة طويلة بعينين مغمضتين، لكنه لم يستطع أن ينام لأن الجو في غرفة النوم، كما خيل إليه، كان حاراً، وكانت تانيا تهذي وفي الرابعة والنصف أشعل الشمعة ثانية وفي تلك اللحظة رأي الراهب الأسود جالساً في المقعد قرب السرير

-مرحباً - قال الراهب، ثم صمت قليلاً وسأله - فيم تفكر الآن؟ فقال كوفرين :

-في الصيتفي الرواية الفرنسية، التي كنت أقرأها لتوى بصور المؤلف شخصا، عالماً شاباً، يرتكب حماقات ويذوي من الحنين إلى الصيتهذا الحنين غير مفهوم لى .

-لأنك ذكيأنت تنظر إلى الصيت بلا مبالاة، كدمية لا تثير اهتمامك - نعم، هذا صحيح .

-والشهرة لا تروق لك فما هو الأمر المغرى، أو المسلي، أو ذو العبرة في أن ينقشوا اسمك على تمثال القبر، ثم يمحو الزمن هذه الكتابة مع طلائها المذهب؟ ثم إنكم، ولحسن الحظ، أكثر من أن تحتفظ الذاكرة البشرية الضعيفة باسمائكم .

فقال كوفرين موافقاً - مفهوم، ثم ما الداعي لتذكرها؟ لكن هيا نتحدث عن شيء آخر عنالسعادة مثلاً ما هي السعادة؟.

عندما دقت الساعة الخامسة، كان جالساً في السرير، مدلياً ساقية علىالبساط، يتحدث مخاطباً الراهب :

في الماضي أحس أحد السعداء في نهاية الأمر بالخوف من سعادته لفرط ما كانت عظيمة! ولكي يتقى غضب الآلهة.

وكان نفس الشيء تقريباً يحدث ليجور سيمونيتش كان يعمل من الصباح إلى المساء،دائماً يقصد على عجل جهة ما، ويفقد أعصابه ويتوتر، ولكن ذلك كله كان يجري في شبه حلم مسحور وكأنما كان يستقر داخله شخصان: أحدهما يجور سيميونيتش الحقيقي، الذي كان، وهو يصغي إلى تقرير البستانى إيفان كارليتش عن المخالفات، يغلى غضباً ويمسك رأسه بيديه في يأس، والثاني شخص آخر، غير حقيقى، كأنما شبه ثمل، يقطع فجأة حديث العمل، ويربت على كتف البستاني ويشرع يدمدم :

-أيا ما كان الأمر، فالدم يعني الكثير لقد كانت أمه امرأة مدهشة، في غايةالنبل والذكاء كان من الممتع أن تنظر إلى وجهها الطيب الصبوح الصافي كوجه ملاك كانت ترسم بروعة، وتنظم الأشعار، وتتحدث بخمس لغات أجنبية، وتغنى المسكينة، عليها الرحمة، ماتت بالسل .

ويتنهد يجور سيميونيتش غير الحقيقي، ويصمت قليلاً، ثم يستطرد : ضحى لهم بخاتمه الأثير أتدرى؟ أنا أيضاً، مثل بوليقراط، بدأت أقلق نوعاً ما من سعادتي إذ يبدو لى غريباً أنني لا أشعر من الصباح إلى المساء إلا بالفرحة فقط، وهي تملأ كل كيانى، وتطغى على كل المشاعر الأخرى أنا لا أعرف ما الحزن أو الأسي أو الملل ها أناذا لا أنام، وينتابني الأرق، ولكني لا أشعر بالملل أقول لك بجدية، لقد بدأت أستغرب.

فذهل الراهب وقال :

-فلماذا؟ هل الفرحة شعور خارق؟ أليس من المفروض أن تكون هي الحالة الطبيعية للإنسان؟ وكلما ارتقى الإنسان في تطوره الذهني والخلقي، وكلما أصبح أكثر تحرراً، أصبحت الحياة تجلب له المزيد من المتعة إنسقراط وديوجين ومرقس أوريليوس كانوا يشعرون بالفرحة لا بالحزن كماأن الرسول قال: افرحوا كل حين فلتفرح إذن ولتكن سعيداولكن قد تغضب الآلهة؟ - قال كوفرين مازحاً ثم ضحك لوأنهم حرموني من الرفاهية واضطروني إلى حياة البرد والجوع فلا أظن أن ذلك سيروق ليوفي تلك الأثناء كانت تانيا قد استيقظت وأخذت تنظر إلى زوجها بذهول ورعب كان يتحدث مخاطباً المقعد، وهو يشيح بيديه ويضحك وكانت عيناه تلمعان وكان في ضحكه شيء ما غريبأندريوشا مع من تتحدث؟ سألته تانيا وهي تشد يده التي مدها نحوالراهب أندريوشا! مع من تتحدث؟ فقال كوفرين محرجاً.

-أه؟ مع من؟ معه ها هو ذا جالس قال مشيراً إلى الراهب الأسودلا أحد هنا لا أحد! أندريوشا، أنت مريض !.

وعانقت تانيا زوجها والتصقت به كأنما تحميه من الرؤى وأغمضتعينيه بيدهاوانتحبت وبدنها كله يرتجفأنت مريض! سامحني يا حبيبى، يا عزيزى، ولكني لا حظت من وقتطويل أن روحك مضطربة أنت مريض نفسياً يا أندريوشا.

وانتقل ارتجافها إليه ونظر مرة أخرى إلى المقعد، الذي أصبح الآن خاوياًٍ، فأحس فجأة بضعف في يديه وقدميه، وتملكه الخوف، وراح يرتديملابسهودمدم وهو يرتعش :

-هذا لاشيء يا تانيا لا شيء فعلاً أنا معتل قليلاً ينبغي أن أعترفبذلك.فقالت تانيا وهي تحاول كتمان النحيب :

-أنا لاحظت منذ وقت طويل وبابا أيضاً لاحظ أنت تكلم نفسك، وتبتسم ابتسامات غريبة ولا تنام أوه يا إلهي،يا إلهي أنقذنا قالت برعب لكن لا تخف يا أندريوشا، لا تخف، بالله عليك لا تخف.

وراحت هي الأخرى ترتدي ثيابها الآن فقط، عندما نظر كوفرين إليها، أدرك كل خطورة وضعه، أدرك ما الذي يعنيه الراهب الأسود وأحاديثة معه لقد أصبح واضحاً له الآن أنه مجنون.

لبسا ملابسهما وهما لا يدريان لماذا وخرجا إلى الصالة، هي في المقدمة وهو خلفها وهنا أيضاً كان يقف يجور سيميونيتش، الذي نزل ضيفاً عليهما، في الروب، حاملاً شمعة بعد أن أيقظه النحيب.

وقالت تانيا وهي ترتعش كالمحمومة :

-لا تخف يا أندريوشا، لا تخفبابا، هذا سيزول كل شيءسيزولولم يستطع كوفرين أن يتحدث من شدة الانفعال وأراد أن يقول لحميه بلهجة مازحة

:هنئني، يبدو أنني جننت ولكنه حرك شفتيه فقط وابتسم بمرارةوفي التاسعة صباحاً ألبسوه المعطف الصوفي ومعطف الفراء، ولفعوهبشال، ونقلوه في عربة إلى الطبيب وبدأ يعالجحل الصيف من جديد، ونصح الطبيب بالانتقال إلى الريف وكان كوفرين قد شفى، ولم يعد يرى الراهب الأسود، ولم يبق إلا أن يعزز قواه البدنية وأثناءإقامته لدي حميه في الريف أخذ يشرب اللبن بكثرة، ويعمل ساعتين فقط في اليوم، وامتنع عن شرب الخمر وعن التدخين.

وعشية عيد القديس إيليا أقاموا في المنزل صلاة المساء وعندما أعطى الشماس المبخرة للقس فاحت في الصالة العتيقة الضخمة رائحة كرائحة القبور، فأحسن كوفرين بالملل وخرج إلى البستان ودون أن يلاحظ الزهور الفاخرة، تجول في البستان، وجلس على الأريكة، ثم تمشي في الحديقة وعندما بلغ النهر هبط إلى أسفل، ووقف هناك متفكراً وهو يحدق في المياه لمتعد الصنوبرات الجهمة ذات الجذور الكثة، التي شهدته في العام الماضي شاباً، فراً، نشيطاً، تهمس الآن، بل انتصبت جامدة خرساء، كأنما لم تتعرف عليه وبالفعل، فقد كان رأسه حليقاً، ولم يعد لديه ذلك الشعر الطويل الجميل، وأصبحت مشيته ذابلة، وسمن وجهه، بالمقارنه مع العام الماضي، وشحبوعبر إلى الضفة الأخرى فوق القنطرة وفي المكان الذي كان يغطيهالجودار في العام الماضي امتدت الآن صفوف شعير محصود

وكانت الشمس قد غربت، وتوهج عند الأفق شفق أحمر عريض، منبئاً بطقس ريحي في الغد وساد الهدوء وحدق كوفرين في الجهة التي ظهر منها الراهب الأسود لأول مرة في العام الماضي، ووقف حوالي عشرين دقيقة، إلى أن بدأ شفق المغيب يعتم.

وعندما عاد إلى البيت ذابلاً غير راض، كانت الصلاة قد انتهت وكان يجور سيميونيتش وتانيا جالسين على درجات الشرفة يشربان الشاي كانا يتحدثان عن شيء ما، ولكنهما صمتا فجأة عندما شاهدا كوفرين فقرر من تعبير وجهيهما أنهما كانا يتحدثان عنه.

وقالت تانيا لزوجها - :أظن أن الوقت قد حان لتشرب اللبن.

لا، لم يحن قال وهو يجلس على آخر درجة في أسفل السلم اشربي هأنت أنا لا أريد.

تبادلت تانيا مع أبيها نظرة قلقة وقالت بنبرة ذنب: - أنت نفسك تلاحظ أن اللبن مفيد لك فضحك كوفرين بسخرية :

نعم، مفيد جداً! أهنئكم؛ منذ يوم الجمعة ازداد وزنى رطلاً آخر - وضغطرأسه بيديه بقوة وقال بأسى لماذا، لماذا عالجتمونى؟ محاليل البروم، والبطالة، والحمامات الدافئة، والرقابة، والخوف الجبان من كل رشفة، من كل خطوة كل هذا سيؤدي بي في النهاية إلى البله

نعم، لقد جننت، كنت مريضاً بجنون العظمة، ولكني كنت مرحاً، نشيطاً، بل سعيداً كنت طريفاً وأصيلاً والآن أصبحت أعقل وأرصن، ولكني صرت مثل الجميع، أنا عادى، سئمت الحياة أوه، كم قسوتم على !كنت أرى تهيؤات، ولكن من ذا الذي كان يزعجه ذلك؟ إني أسأل: من ذا الذي كان يزعجه ذلك؟.

فتنهد يجور سيميونيتش وقال - :الله يعلم ما هذا الذي تقول! حتى سماع هذا ممل - إذن لا تسمع.

كان وجود الآخرين، خاصة يجور سيميونيتش، يثير الآن كوفرين، فكان يرد عليه بجفاف وبرود، بل وحتى بغلظة، ولم يكن يعامله إلا بسخرية وكراهية، أما يجور سيميونيتش فكان يرتبك ويسعل بذنب، رغم أنه لم يكن يحس بأنه ارتكب أي ذنب ولما لم تكن تانيا تفهم لماذا تغيرت بحدة علاقات الود والبشاشة بينهما، فقد التصقت بأبيها وأخذت تحدق في عينيه بقلق كانت تريد أن تفهم ولا تستطيع، وأصبح واضحاً لها شيء واحد، وهو أن علاقاتهما تتدهور من يوم إلى يوم، وأن أباها هرم بشدة في الآونة الأخيرة، وأصبح زوجها عصبياً، نزقاً، متمحكاً وغير طريف ولم يعد في وسعها أن تضحك أو تغني .

ولم تكن تذوق شيئاً في الغداء، ولا تنام ليالي كاملة وهي تتوقع شيئاً رهيباً، وأنهكت إلى درجة أنها ظلت ذات مرة في حالة إغماء من الغداء إلى المساء وخيل إليها أثناء صلاة المساء أن أباها كان يبكي، أما الآن، وهم جالسون ثلاثتهم في الشرفة، فقد جاهدت لكي لا تفكر في ذلكوقال كوفرين :

-ما كان أسعد محمد وبوذا وشكسبير لأن أقاربهم الطيبين والأطباء لم يعالجوهم من النشوة والوحي! لو أن محمداً كان يتناول بروميد البوتاسيوم من الأعصاب، ويعمل ساعتين فقط في اليوم ويشرب اللبن لما تبقى بعد هذا الإنسان الرائع أكثر مما تبقى بعد سيتمكن الأطباء والأقارب الطيبون في نهاية الأمر من جعل البشرية تتبلد، وسوف تعتبر العادية عبقرية وستهلك الحضارة وقال كوفرين بأسى - آه لو تعلمون كم أنا ممتن لكم !.

أحس بضيق شديد، ولكي لا يتفوه بما لا داعي له نهض بسرعة ودخل المنزل كان الهدوء يشمل المنزل، ومن النوافذ المفتوحة تناهت من البستان رائحة الطباق ونبات الحلبة وفي الصالة الضخمة المظلمة انتشرت على الأرض والبيانو بقع خضراء من ضوء القمر وتذكر كوفرين لحظات إعجابه في العام الماضي، عندما تضوع شذى الحلبة أيضاً مثلما الآن ولاح ضوء القمر من النوافذ ولكي يستعيد مزاج العام الماضي توجه بسرعة إلى غرفة المكتب، ودخن سيجاراً قوياً وأمر الخادم أن يحضر له نبيذاً ولكنه أحس بطعم السيجار مراً وكريها في فمه

ولم يكن النبيذ لذيذاً كما في العام الماضي ما أكثر ما يعنى نسيان العادة! فمن سيجار وجرعتى نبيذ دار رأسه وتلاحقت نبضات قلبه، فكان لا بد من تناول بروميد البوتاسيوم.

وقبل أن يأويا إلى الفراش قالت له تانياأبى عبدك وأنت غاضب منه لسبب ما، وهذا يكاد يقتله غماً انظر كيفيهرم كل ساعة لا كل يوم أتوسل إليك يا أندريوشا، أستحلفك بالله، أن تكون لطيفاً معه من أجل راحتى ومن أجل أبيك الراحل.

-لا أستطيع ولا أريد -ولكن لماذا؟ - سألته تانيا وبدأ بدنها كله يرتجف - خبرنى، لماذا؟ - لأنه لا يروق لى، وهذا كل ما هنالك قال كوفرين باستخفاف وهز كتفيه- ولكن دعينا لا نتحدث عنه إنه أبوك.

فقالت تانيا وهي تضغط على صدغيها وتحدق في نقطة واحدة :

-لا أستطيع، لا أستطيع أن أفهم! هناك شيء رهيب، لا يمكن إدراكه، يجري في منزلنا أنت تغيرت، لم تعد كما كنتأنت الشخص العاقل، غير العادي، أصبحت تنزعج لأشياء بسيطة وتدخل في المشاحنات تثيرك أشياء في غاية التفاهة لدرجة أنني أحياناً أدهش ولا أصدق: أهذا أنت؟ حسناً، حسنًا، لا تغضب استطردت تانيا ومضت تلثم يديه وقد خافت من كلماتها - أنت ذكى، طيب، نبيل فلتكن عادلاً مع أبي إنه لطيف جدا !.

-ليس لطيفاً بل ملاطفاً إن الأعمام الهزليين، أمثال أبيك، ذوى الوجوه الشبعانة البشوشة، الكرماء للغاية والغريبى الأطوار، كانوا في وقت ما يثيرون إعجابي وضحكى سواء في القصص أم في الهزليات أم في الحياة، أما الآن فيثيرون نفورى إنهم أنانيون حتى النخاع وأكثر ما ينفرني منهم هو شبعهم، وذلك التفاؤل الثيراني أو الخنازيرى البحت النابع من معداتهم.

جلست تانيا في الفراش ووضعت رأسها على الوسادة - هذا عذاب - قالت، وكان واضحاً من صوتها أنها أصبحت مرهقة لأقصى حد وأنه من الصعب عليها أن تتكلم من الشتاء لم أعرف دقيقة راحةماأفظع هذا يا إلهي ! إنني أتعذب. - نعم، أنا طبعاً هيرودس، وأنت وباباك صبيان مصر طبعاً !.

بدا وجهه لتانيا قبيحاًً ومنفراًولم تكن الكراهية والسخرية تنسجمان معه.وقد لاحظت من قبل أن شيئاً ما ينقص وجهه، كما لو أن ملامحه أيضاً قد تغيرت منذ أن حلق شعره وشعرت بالرغبة في أن تقول له شيئاً مهيناً، ولكنها انتبهت على الفور إلى هذا الإحساس الكريه فخافت، وغادرت الغرفة.

حصل كوفرين على كرسي أستاذ مستقل وتحدد موعد محاضرته الافتتاحية في الثاني من ديسمبر، وعلق إعلان بذلك في ممر الجامعة ولكنه في اليوم المحدد أرسل إلى مسئول الطلاب برقية يعتذر فيها عن عدم استطاعته إلقاء المحاضرة لمرضه.

نزف دماً من حلقه كان قبلها يبصق دماً، ومرتين في الشهر ينزف بغزارة،وعندئذ كان ينتابه ضعف شديد وميل إلى النوم ولم يكن هذا المرض يسبب له خوفاً كبيراً لأنه كان يعرف أن أمه عاشت بنفس هذا المرض عشر سنوات بل وأكثر، وأكد له الأطباء أن ذلك ليس خطيراً، ونصحوه فقط بالا ينفعل، وأن يتبع نظاماً سليماً للمعيشة، ويقلل من الكلام.

وفي يناير ألغيت المحاضرة لنفس السبب، أما في فبراير فكان الوقت متأخراللبدء في الدورة فاضطروا للتأجيل إلى العام القادم.

لم يعد يعيش مع تانيا، بل مع امرأة أخرى كانت تكبره بعامين وتعتني به كما يعتني بطفل وكان مزاجه مسالما، مستكينا: فقد كان يطيعها عن طيب.

وعندما عزمت فارفارا نيكولايفنا - هكذا كانت تدعي رفيقته - على السفر به إلى القرم، وافق رغم أنه كان يحدس بأن هذه الرحلة لن تسفر عن أي شيء طيب.

وصلا إلى سيفاستوبول مساء ونزلا في فندق لكي يستريحا ثم يسافران غدا إلى بالطا وارهقهما السفر كليهما وشربت فارفارا نيكولايفنا الشاي، وأوت إلى الفراش، وسرعان ما نامت ولكن كوفرين لم يذهب إلى الفراش فقد تلقى وهو بعد في المنزل، قبل التوجه إلى المحطة بساعة، رسالة من تانيا، ولم يجرؤ على فضها

وها هي ذي الآن ترقد في جيبه الجانبي، وأثار التفكير فيها اضطرابا كريها في نفسه كان الآن يعتبر في قرارة نفسه وبإخلاص أن زواجه بتانيا كان خطأ، وكان راضيا لأنه انفصل عنها نهائيا، ولم تثر ذكرياته عن هذه المرأة التي تحولت في نهاية الأمر إلى مومياء حية، والتي بدا أن كل شيء فيها مات، اللهم إلا عينيها الواسعتين الذكيتين الثاقبتي النظرة، لم تثر ذكرياته عنها إلا الحسرة والأسى على نفسه وذكّره خطها على المظروف كم كان ظالما وقاسيا منذ عامين، وكم صب نقمته لخواء روحه و ملله ووحدته وبرمه بالحياة على أناس أبرياء وتذكر بالمناسبة كيف مزق ذات مرة رسالة الدكتوراه ومقالاته التي كتبها أثناء مرضه مزقا صغيرة، وألقى بها من النافذة، فطارت المزق مع الريح وهي تتعلق بالأشجار والأزهار لقد رأى في كل سطر من سطورها ادعاءات غريبة لا أساس لها، وهراء عابثا ووقاحة وجنون عظمة، فترك هذا في نفسه انطباعا، كأنما كان يقرأ وصفا لرذائله ولكن عندما مزق آخر دفتر وألقى به من النافذة شعر فجأة بالأسى والمرارة، فذهب إلى زوجته وأسمعها الكثير من الإساءات يا إلهي كم كان يتلف أعصابها؟ ذات مرة، وقد أراد أن يؤلمها، قال لها إن أباها لعب في قصة غرامهما دورا مشينا، لأنه رجاه أن يتزوج منها وسمع يجور سيميونيتش ذلك عرضا فاندفع إلى الغرفة، ولم يستطع من شدةالإساءة أن يقول كلمة واحدة، بل ظل فقط يراوح في مكانه، ويخور بصورةغريبة، كما لو كان لسانة قد شل

أما تانيا فنظرت إلى أبيها وصرخت صرخة تمزق القلب وسقطت مغشيا عليها كان ذلك شيئا فظيعا.

ورد كل هذا على خاطره عندما تطلع إلى الخط المعروف وخرج إلى الشرفة كان الجو هادئا دافئا، وفاحت رائحة البحر وعكس الخليج الرائع صورة القمر والأضواء، واكتسى بلون يصعب أن تجد له اسماكان ذلك خليطا رقيقا وناعما من اللونين الأزرق والأخضر وفي بعض الأماكن كان.

لون المياه يشبه الزاج الأزرق، وفي أماكن أخرى بدا أن ضوء القمر تكثف قمة الخليج بدلا من المياه، وعموما، فيا له من توافق ألوان، ويا له من مزاج مسالم، مستكين، سام !.

يبدو أن النوافذ في الطابق الأدنى، تحت الشرفة، كانت مفتوحة، فقد تناهت بوضوح أصوات نسائية وضحك الظاهر أنه كانت هناك حفلة وتحامل كوفرين على نفسه وفض الرسالة، وذهب إلى غرفته وقرأ :

مات أبي لتوه وأنا مدينة لك بذلك، لأنك أنت الذي قتلته وبستاننا يهلك، وأصبح الغرباء يديرونه، أي يحدث بالضبط ما كان يخشاه أبي المسكين وأنا مدينة بذلك لك أيضا إنني أمقتك من صميم قلبي وأتمنى أن تهلك في أقرب وقت أوه، كم أعانى! روحي يحرقها ألم لا يطاق عليك اللعنة لقد ظننتك إنساناً فذاً، عبقرياً، وأحببتك، ولكن ظهر أنك مجنون

لم يستطع كوفرين أن يواصل القراءة فمزق الرسالة وألقى بها وتملكه قلق يشبه الخوف وكانت فارفارا نيكولايفنا نائمة خلف الحاجز، وتردد صوت أنفاسها ومن الطابق الأسفل تناهت الأصوات النسائية والضحك، ولكن تملكه إحساس بأنه لا يوجد في الفندق كله أحد غيره ولأن تانيا التعيسة، التي حطمتها البلوي لعنته في رسالتها وتمنت له الهلاك،فقد أحس بالرعب، ونظر إلى الباب لمحا، كأنما كان يخشى أن تدخل الغرفة وتتحكم فيه ثانية تلك القوة المجهولة التي ألحقت بحياته وحياة أقربائه في غضون ما لا يزيدعن سنتين كل هذا الدمار كان يعرف من واقع التجربة أنه إذا ما أفلتت الأعصاب فإن أفضل وسيلة.

الكبح جماحها هي العمل ينبغي أن يجلس إلى الطاولة ويرغم نفسه، مهما كلف الأمر، أن يركز انتباهه على فكرة ما وأخرج من حقيبته الحمراء دفتراًسجل فيه ملخصا سريعاً لمؤلف تصنيفى صغير، كان قد أعده ليشغل به نفسه فيما لو بدت له الإقامة في القرم مملة بدون عمل وجلس إلى الطاولة وانكب على هذا الملخص، فبدا له أنه يستعيد مزاجه الهادئ المستكين اللامبالى بل إن هذا الدفتر قد أوحى إليه بأفكار عن باطل الحياة الدنيا وفكر في أن الحياة تأخذ الكثير لقاء تلك النعم الضئيلة، أو العادية للغاية، التي يمكن أن تقدمها للإنسان وعلى سبيل المثال، فلكي يحصل على كرسي أستاذ وهو يناهز الأربعين، ولكي يكون أستاذا عاديا، يصوغ بلغة ذابلة مملة ثقيلة أفكارا عادية

هي فوق ذلك أفكار الآخرين وباختصار فلكي يبلغ منزلة العالم المتوسط، كان عليه، هو كوفرين، أن يدرس خمسة عشر عاما، ويعمل ليل نهار، ويصاب بمرض نفسي عضال ، ويخوض تجربة زواج فاشل، ويرتكب الكثير من الحماقات والمظالم التي يسعده ألا يتذكرها كان كوفرين يدرك الآن بوضوح أنه شخص عادى، وقنع بذلك عن طيب خاطر، لأن كل إنسان،حسب رأيه، ينبغي أن يرضى بما هو عليه.

كان الملخص يهدئه تماماً، بيد أن الرسالة الممزقة الملقاة على الأرض كانت تلوح لناظريه فتعوقه عن التركيز فنهض من أمام الطاولة، وجمع مزق الرسالة وألقي بها من النافذة، ولكن نسيماً خفيفاً هب من البحر فتناثرت المزق على حافة النافذة ومن جديد تملكه قلق يشبه الخوف، وعاوده الإحساس بأنه لا يوجد في الفندق كله أحد غيرهوخرج إلى الشرفة كان الخليج، كمخلوق حي، يحدق فيه بأعين زرقاء وسماوية وفيروزية ونارية عديدة ويشده إليه وبالفعل كان الجو حاراً وخانقاً يغرى بالاستحمام.

وفجأة تردد من الطابق الأدني تحت الشرفة عزف كمان، وغني صوتان نسائيان رقيقان وبدا ذلك شيئاً مألوفاً كانت الأغنية التي غنوها في الأسفل تتحدث عن فتاة ما، مصابة بالوهم، سمعت ليلاً في الحديقة أصواتاً غامضة. فاعتبرتها هارمونى مقدا،ليس مفهوماً لنا نحن الفانين واحتبست أنفاس كوفرين، وعصر الحزن قلبه، ورفرفت في صدره فرحة رائعة حلوة منسية منذزمن بعيد.

وعلى ضفة الخليج الأخرى ظهر عمود أسود طويل،يشبه الزوبعة أو الدوامة الهوائية وتحرك فوق الخليج بسرعة رهيبة متجهاً نحو الفندق وهو يزداد انكماشاٍ وقتامة، فلم يتمكن كوفرين من التنحى إلا بالكاد ليفسح له الطريق ومرق الراهب الأسود، برأسه الأشيب الحاسر، وحاجبيه الأسودين، وقدميه الحافيتين ويديه المعقودتين على صدره، بجوار كوفرين وتوقف في وسط الغرفةوسأل بعتاب وهو ينظر إلى كوفرين برقة :

-لماذا لم تصدقنى؟ لوصدقت ما قلته لك آنذاك بأنك عبقري، لما قضيتهذين العامين بهذا الحزن والجدب.

أصبح كوفرين الآن يؤمن بأنه من أبناء الله المختارين وعبقري، وتذكر على الفور كل أحاديثة السابقة مع الراهب الأسود، وأراد أن يتكلم، ولكن الدم سال من حلقه على صدره مباشرة، فأخذ، وهو لا يدري ماذا يفعل، يمسح بيديه على صدره، فتبللت أساوره بالدم وأراد أن يدعو فارفارانيكولايفنا التي كانت نائمة خلف الحاجز، فتحامل على نفسه وتمتم :
-تانيا !

وسقط على الأرض، ثم نهض على ذراعيه ونادى ثانية - :تانيا !كان ينادى تانيا، ينادي البستان الكبير بأزهاره الفاخرة المبللة بالندى، ينادى الحديقة، وأشجار الصنوبر ذات الجذور الكثة، وحقل الجودار، وعلمه البديع، وشبابه، وجسارته، وفرحته

كان ينادي الحياة التي كانت جد رائعة ورأببجوار وجهه على الأرض بركة دم كبيرة، ولم يعد بوسعه من شدة الضعف أن ينطق بكلمة واحدة، ولكن سعادة لا نهائية لا توصف ملأت كل كيانه وفيالأسفل تحت الشرفة كانوا يعزفون سيرنادا، بينما راح الراهب الأسود يهمس له بأنه عبقرى وبأنه لا يموت إلا لأن جسده البشرى الضعيف قد فقد توازنه ولم يعد قادراً على أن يكون غلافاً يحفظ العبقرية.

عندما استيقظت فارفارا نيكولايفنا وخرجت من وراء الحاجز، كان كوفرينقد فارق الحياة، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عذبة.

الفلاحون

مرض نيكولاى تشيكيلدييف الخادم بفندق سلافيانسكى بازار بموسكو نملت ساقاه وتغيرت مشيته، حتى إنه تعثر ذات مرة وهو يسير في الممر فوقع بالصينية التي كانت عليها شرائح خنزير بالبازلاء واضطر إلى ترك العمل وأنفق كل ما كان لديه من نقوده ونقود زوجته على العلاج، ولم يعد هناك ما ينفق على الطعام، ومل البطالة فقرر أنه ربما كان عليه أن يرحل إلى بيتهم في الريف فالمرض في البيت أخف والحياة أرخص؛ وليس عبثاًأن يقال: في البيت الجدران تساعد .

وصل إلى قريته جو كوفو قبيل المساء وكان مسقط رأسه يبدو له في ذكريات الطفولة مشرقا، حميماً، مريكا، أما الآن، وعندما دخل الدار، فقد شعر حتى بالخوف؛ فكم كان المكان مظلماً وضيقاًوقذراً ونظرت زوجته أو لجا وابنته ساشا، اللتان جاءتا معه، باستغراب إلى الفرن الكبير المنفر، الذي كاد أن يشغل نصف الدار، والمسود من الهباب والذباب ما أكثر الذباب! كان الفرن مائلاً، وجذوع الأشجار التي شيدت منها الجدران معوجة، فبدا أن الدار ستنهار توآوفي الركن الأمامي، بجوار الأيقونات، ألصقت رقع ماركات الزجاجات ومزق من الصحف، وذلك بدلا من الصور يا للفقر !لم يكن أحد من الكبار في المنزل، إذ كانوا كلهم يحصدون

وعلى الفرن جلست طفلة في حواليالثامنة، بيضاء الرأس، قذرة الوجه، لا مبالية لم تنظر حتى إلى القادمينوفي الأسفل تمسحت قطة بيضاء بالبشكيرودعتها ساشا إليها - :بس، بس! فقالت الطفلة - :إنها لا تسمع طرشت

مم؟-هكذا من الضرب.

أدرك نيكولاي وأولجا منذ الوهلة الأولى أية حياة هنا، ولكن أحداً منهما لم يقل للأخر شيئاً أنزلا الصرر في صمت، و خرجا في صمت كانت دارهم الثالثة من الطرف، وبدت أفقر الدور وأقدمها ولم تكن الدار الثانية أفضل، ولكن الثالثة كانت بسقف معدنى وستائر على النوافذ هذه الدار، التي لم تكن مسيجة، لاحت قائمة بذاتها، وكان بها حانة وامتدت الدور صفاً واحداً، وبدت القرية كلها، الهادئة المستغرقة، بأشجار الصفصاف والبيلسان والغبيراء المطلة من الأفنية، لطيفة المنظر.

وبعد دور الفلاحين يبدأ منحدر نحو النهر، شديد الانحدار وجرفى، وظهرت أحجار ضخمة وسط الطين هنا وهناك وعلى السفح، بجوار هذه الأحجار والحفر التي حفرها الفخارون، تعرجت دروب، وتكدست أكوام من شقف الأواني المكسرة، بعضها بني وبعضها أحمر، وفي الأسفل امتد مرج أخضر ساطع واسع مستو، حصد عشبه، فأصبحت ماشية الفلاحين ترعى فيه الآن بحرية

وكان النهر على بعد فرسخ من القرية، نهر متعرج، بشطآن رائعة متموجة الخمائل، ومن بعده مرج واسع آخر، وماشية وطوابير طويلة من الأوز الأبيض، ثم طريق منحدر بشدة - كما في هذا الشاطئ - صاعد إلىالتل، وفي الأعلى، على التل، قرية بكنيسة ذات خمس قباب ومنزل السادة على مقربة منهاوقالت أولجا وهي ترسم على صدرها علامة الصليب في مواجهةالكنيسة - :ناحيتكمجميلة! يا إلهى، ياللرحابة !.

وفي هذه اللحظة دوت أجراس صلاة المساء (كانت عشية الأحد) وتطلعت فتاتان صغيرتان كانتا تنقلان الماء في دلو في الأسفل إلى الكنيسة لتسمعا الرنينودمدم نيكولاى حالماً - :في هذا الوقت يقدمون العشاء في سلافيانسكى بازارورأى نيكولاى وأولجا وهما جالسان على الجرف كيف راحت الشمس تغرب، وكيف انعكست السماء الذهبية القرمزية في النهر وفي نوافذ الكنيسةوفي الهواء كله، الرقيق الساكن، النقى بصورة لا توصف، والذي لا مثيل له في موسكو أبداً وعندما غربت الشمس مر قطيع الماشية وهو يخور ويزأر وأقبل الأوز طائراً من تلك الناحية، ثم صمت كل شيء، وخبا الضوء الخافت في الهواء، وزحف ظلام المساء بسرعة.

وفي تلك الأثناء عاد العجوزان، والد نيكولاى وأمه، هزيلين، محنيين، بلا أسنان، كلاهما من طول واحد وجاءت النساء: زوجتا الأخوين ماريا وفيكلا

اللتان كانتا تعملان وراء النهر لدى الإقطاعي كان لدي ماريا، زوجة الأخ كيرياك، ستة أطفال، ولدي فيكلا،زوجة الأخ دينيس الذي جند في الجيش، طفلان وعندما دخل نيكولاي الدار ورأي العائلة كلها، كل هذه الأجساد الكبيرة والصغيرة التي كانت تتحرك على ألواح النوم وفي المهود وفي جميع الأركان، وعندما رأى بأية شراهة كان العجوز والنسوة يأكلون الخبز الأسودوهم يغمسونه في الماء، أدرك أنه جاء إلى هنا مريضاً، بلا مال، وفوق ذلك مع أسرته، عبقا؟وسأل بعد أن سلم عليهم - :وأين كيرياك؟ فأجابه أبوه: - يعيش عند التاجر حارساً، في الغابة فلاح لا بأس به، لكنه يفرط فيالشرابفدمدمت العجوز دامعة :

-ليس مطعماً! رجالنا بلايا، لا يحملون إلى البيت بل يسحبون من البيت كيرياك يشرب، والعجوز أيضاً، ولا داعي للتستر، إنه يعرف الطريق إلى الحانة غضبت علينا السيدة العذراء.

وبمناسبة مجيء الضيوف أشعلوا السماور وفاحت من الشاي رائحة السمك، وكان السكر مقروضاً ورمادياً، وتراكضت الصراصير فوق الخبز والأوعية كان الشرب كريها، والحديث أيضا كريهاً كله عن الفاقة والأمراض وما إن شربوا أول كوب شاى حتى تناهت من الفناء صيحة عالية طويلة ثملة :

ماريا! فقال العجوز: ـ يبدو أنه كيرياك قد جاء تذكرنا القط صمت الجميع وبعد قليل ترددت نفس الصيحة الفظة الطويلة كأنها منتحت الأرض :مريا! شحبت ماريا، زوجة الابن الأكبر والتصقت بالفرن، وكان غريباً أن تريعلى وجه هذه المرأة القوية، العريضة الكتفين، القبيحة، تعبير الرعب وفجأة بكت ابنتها بصوت عال، تلك الفتاة التي كانت جالسة على الفرن وبدت لامبالية.

فصاحت بها فيكلا، وهي امرأة جميلة وأيضاً قوية وعريضة الكتفين: وأنت، أيتها المطعونة، مالك ؟ لن يقتلك !. علم نيكولاي من العجوز أن ماريا كانت تخاف العيش مع زوجها في الغابة، وأنه عندما يكون ثملاً يأتي دائما ليأخذها، ويثير أثناء ذلك صخباًويضربها بلا رحمةودوت الصرخة عند الباب تماما ـ :ماريا؟ فتمتمت ماريا وهي تتنفس كشخص أنزلوه في ماء بارد للغاية : ـ احموني بحق المسيح يا أحبابى، احموني يا أحبابى

وبكى كل من كان في الدار من أطفال،وبكت ساشاأيضاً وهي تحذو حذوهموتناهى سعال ثمل، ودلف إلى الدار فلاح طويل، أسود اللحية، في طاقية شتوية، ولما لم يكن وجهه ظاهراً في ضوء المصباح الكابي فقد بدا رهيبا كان ذلك كيرياك اقترب من زوجته فطوح بيده إلى الوراء وسدد إليها لكمة في وجهها فلم يند عنها صوت وقد أصمتها اللكمة أقعدتها فحسب، وعلى الفور تدفق الدم من أنفهاودمدم العجوز وهو يصعد إلى سطح الفرن : ـيا للعار، أمام الضيوف! حرام عليك !.

أما الجدة فجلست صامته، متكورة، وهي تفكر في شيء ما وكانت فيكلا تهز المهد ويبدو أن كيرياك كان يدرك أنه رهيب ويشعر بالرضى لذلك، فأمسك بذراع ماريا وجرها إلى الباب، وزأر كوحش ليبدو أكثر رهبة، ولكنه رأى الضيوف في تلك اللحظة فتوقف.

ودمدم وهو يخلى سبيل زوجته - :آه، وصلتم ! أخي الحبيب وأسرتهوصل أمام الأيقونة مترنحاً وقد فتح عينيه الحمراوين الثملتين واسعاً،واستطرد - :أخي وأسرته جاءوا إلى بيت الوالدين من موسكو يعنى من العاصمةالأولى يعنى، أم المدن اعذرونى.

وانحط على الأريكة بجوار السماور وراح يشرب الشاي من الطبق وهو يرشفه بصوت عال، بينما خيم الصمتشرب حوالي عشرة فناجين، ثم مال على الأريكة وارتفع شخيرهوبدأوا يستعدون للنوم وضعوا نيكولاى باعتباره مريضاً على الفرن

مع العجوز ورقدت ساشا على الأرض، بينما مضت أولجا مع النساء إلى الحظيرة

وقالت وهي ترقد على الدريس بجوار ماريا - إيه يا حلوة، الدموع لن تخفف البلوى اصبري وهذا كل شيء فقد جاء في الكتاب: من ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر إيه يا حلوة !.

ثم تحدثت بصوت شبه هامس ناغم عن موسكو، وعن حياتها، وكيفكانت تعمل خادمة في البنسيونات.

قالت :البيوت في موسكو كبيرة، حجرية، والكنائس كثيرة جداً، بالمئات،

وأصحاب البيوت سادة، كلهم جميلون، كلهم مهذبونوقالت ماريا أنها لم تذهب أبداً لا إلى موسكو فحسب بل حتى إلى مدينة إقليمهم كانت أمية، لا تعرف أية صلاة، ولا حتى أبانا الذي كانت هي وزوجة الأخ الآخر، فيكلا، التي كانت جالسة الآن غير بعيد وتستمع، كانتا كلتاهما متخلفتين جداً ولم يكن بوسعهما فهم شيء وكلتاهما لمتكونات حبان زوجيهما كانت ماريا تخشى كيرياك، وعندما يبقى معها كانت ترتعد من الخوف، ودائماً ما تختنق وهي بقربه فقد كانت تتصاعد منه بشدة رائحة الفودكا والتبغ أما فيكلا فردت على السؤال عما إذا كانت تشعر بالملل بدون زوجها، قائلة بأسى:- فليذهب في داهية! وبعد أن تحدثن صمتن.

كان المكان بارداً، وبجوار الحظيرة صاح ديك بأعلى صوته فعاقهن عن النوموعندما تسرب ضوء الفجر الأزرق الشاحب عبر جميع الشقوق، نهضت فيكلا بهدوء وخرجت، ثم تردد وقع قدميها العاريتين وهي تركض إلى مكان.

ذهبت أولجا إلى الكنيسة واصطحبت معها ماريا وعندما هبطتا على الدرب إلى المرج شعرتا كلتاهما بالمرح كانت أولجا معجبة بالرحابة، أماماريا فأحست في عديلتها بإنسان قريب حبيب وأشرقت الشمس وحلق صقر ناعس على ارتفاع منخفض فوق المرج، وكان النهر عاباً، وفي بعض الأماكن هوم الضباب، أما على الشاطئ الآخر، فوق التل، فقد امتد شريط ضوء، ولمعت الكنيسة، وفي بستان السادة صاحت الغربان بضراوةوتحدثت ماريا :

-العجوز لا بأس به أما الجدة فقاسية، تتشاجر دائما قمحنا كفانا حتى أيام المرافع فقط، والآن نشترى الدقيق من الحانة، ولهذا فهي حانقة، تقول إنا نأكل كثيرا.

-إيه يا حلوة، اصبري وهذا كل شئ فقد جاء في الكتاب : تعالوا إلى ياجميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم.

كانت أولجا تتحدث بوقار وبصوت ناغم، وكانت مشيتها مثل مشية المتعبدة، سريعة ومضطربة، وكانت تقرأ الإنجيل كل يوم، بصوت مسموع، كقراءة الشماس، ولا تفهم منه الكثير ولكن الكلمات المقدسة كانت تبعث فيها التأثر حتى تدمع عيناها كانت تؤمن بالله، وبالسيدة العذراء، وبالقديسين، وتؤمن بأنه لا يجوز إيذاء أحد في الدنيا سواء البسطاء، أم الألمان، أم الغجر، أم اليهود.

والويل لأولئك الذين لا يشفقون على الحيوانات، تؤمن بأن ذلك مكتوب في الكتب السماوية، ولذلك فعندما كانت تلفظ كلمات من الكتاب المقدس، حتى ولو لم تكن مفهومة، يرتسم على وجهها الشفقة والحنان والإشراق.

وسألتها ماريا: - من أين أصلك؟ -أنا من فلاديمير لكنهم أخذوني إلى موسكو من زمان، وعمرى ثمانية وبلغتا النهر وعلى الشاطئ الآخر، قرب الماء تماماً، وقفت امرأة وهيتنزع ثيابهاوعرفتها ماريا فقالت :

-هذه فيكلا، كانت في بيت السادة وراء النهر، عند الوكلاء أنها شقيةوعيابة جدا !وقفت فيكلا، سوداء الحاجبين، مسدلة الشعر، صبية بعد وقوية كفتاة، وألقت بنفسها من الشاطئ، وضربت في الماء بساقيها، فامتدت الأمواج منها إلى جميع الاتجاهات وكررت ماريا - :شقية جدا !.

عبر النهر امتدت قنطرة متهالكة من جذوع الأشجار، وتحتها بالضبط مرت أسراب من السمك العريض الرأس في الماء الصافي الشفاف ولمعت قطراتالندى على الخمائل الخضراء المطلة في الماءوهبت نسمات دافئة فبعثت السرور يا له من صباح رائع! وما أجمل الحياة التي كان يمكن أن تكون في هذه الدنيا على الأرجح لولا الفقر، النقر الفظيع المحدق، الذي لا مهرب منه! وما إن تنظر إلى القرية حتى تتذكر على الفور كل ما حدث بالأمس، وفي التو واللحظة يتلاشى سحر السعادة الذي لاح في الأجواء.

ووصلنا إلى الكنيسة توقفت ماريا عند المدخل ولم تجرؤ على التقدم خطوة واحدة ولم تجرؤ أيضاً على الجلوس رغم أنهم لم يدعوا إلى القداس إلا في الساعة التاسعة وهكذا ظلت واقفة طوال الوقت.

وأثناء تلاوة الإنجيل دبت الحركة فجأة في جمهور المصلين وأفسحوا الطريق لأسرة الإقطاعى دخلت فتاتان في فستانين أبيضين، وقبعتين عريضتين، ومعهما صبى بدين، متورد الخدين في بدلة بحار وتأثرت أولجالدي بظهورهم، وقررت من الوهلة الأولى أنهم أناس مستقيمون مهذبون جميلون أما ماريا فنظرت إليهم شزراً، بتجهم وكآبة، كأنما لم يكونوا بشراً، بل وحوشاً كادت أن تسحقها لولا أنها تنحت جانباً.

وكلما كان الشماس يرتل بصوت غليظ كان يتراءى لها أنها تسمع صيحةماريا !فينتفض بدنهاعلم أهل القرية بمجيء الضيوف فاجتمع في الدار بعد القداس عدد كبير منهم جاء آل ليونيتش وماتفيفيتش وإيليتش ليعرفوا أخبار أقربائهم العاملين بموسكو كان جميع صبيان قرية جوكوفو الذين يعرفون القراءة والكتابة يرسلون إلى موسكو ليعملوا خدم مطاعم أو فنادق فقط كذلك كانوا يرسلون الصبيان من القرية الواقعة على الضفة الأخرى للنهر إلى موسكو للعمل في المخابز فقط) وكان ذلك معمولاً به منذ القدم، منذ عهد القنانة، عندما كانشخص يدعى لوقا إيفانيتش، وهو فلاح من جوكوفو، أصبح الآن أسطورياً، يعمل عامل بوفيه في أحد نوادي موسكو

وكان لا يستخدم عنده إلا أبناء قريته فقط، وعندما يستقر هؤلاء في وظائفهم كانوا يجلبون أقرباءهم ويساعدونهم في الحصول على عمل في الحانات والمطاعم ومنذ ذلك الحين وأهالي المناطق المجاورة لجوكوفو لا يسمونها إلا بالوقحة والخادمة وقد أرسلوا نيكولاي إلى موسكو وهو في الحادية عشرة، وساعده في الحصول على عمل إيفان مكاريتش من آل ماتفيفيتش، الذي كان يعمل آنذاك حاجباً في حديقة أرميتاج وها هو ذا نيكولاى الآن يخاطب آل ما تفيفيتش بلهجة الواعظ - :إيفان مكاريتش هو ولى نعمتى، ومن واجبي أن أصلى لله من أجله ليلنهار، فعن طريقه أصبحت رجلاً طيباًفقالت عجوز طويلة، هي أخت إيفان مكاريتش، بصوت باك : - آه يا بني، لم نعد نسمع عنه شيئاً.

-في الشتاء كان يعمل لدى أومون، أما في الموسم الحالي فأشيع أنه يعمل في البساتين، خارج المدينة لقد شاخ! كان من قبل، خاصة في الصيف، يكسب عشرة روبلات في اليوم، ولكن العمل الآن كسد في جميع الأماكن، والعجوز يشقىت طلعت العجوز والنسوة إلى ساقى نيكولاي اللتين كان يضعهما في حذاءمن اللباد، وإلى وجهه الشاحب، وقلن بأسي - :لست مطعماً يا نيكولاى اوسيبتش، لست مطعماً! لا حول لك !

وتودد الجميع إلى ساشا كانت قد تجاوزت العاشرة، ولكنها كانت قصيرة،نحيلة جداً، وكانت هيئتها توحي بأنها في السابعة لا أكثر ووسط الفتيات الأخريات، السمراوات،ذوات الشعر المقصوص بصورة سيئة، المرتديات جلابيب طويلة باهتة، بدت هى ببشرتها البيضاء، وعينيها الواسعتين الداكنتين،والشريط الأحمر في شعرها، مضحكة، كأنما حيوان صغير أمسكوا به في الحقل وجاءوا به إلى الداروقالت أولجا بفخر وهي تتطلع إلى ابنتها برقة :

-إنها تجيد القراءة ! اقرئى يا بنيتى- قالت وهي تستخرج الإنجيل من الصرةاقرئي وسيصغي إليك المسيحيون كان الإنجيل قديماً، ثقيلاً، في غلاف جلدى،مهترئ الزوايا، وفاحت منه رائحة وكأنما دخل الدار زهبان ورفعت ساشا حاجبيها وبدأت تقرأ بصوت عال ناغم :

-دولما انصرفوا إذا بملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلا: قم فخذالصبي وأمه -الصبي وأمه رددت أولجا وتضرج وجهها كله من الانفعال - واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لكوعندما سمعت أولجا الكلمات المقدسة لم تتمالك نفسها فبكت وحذت ماريا حذوها فشهقت، وتبعتها أخت إيفان مكارينش أما العجوز فسعل وتململ باحثا عن هدية يقدمها لحفيدته، ولما لم يجد شيئاً أشاح بيده وعندماانتهت التلاوة تفرق الجيران إلى بيوتهم متأثرين ومسرورين جداً من أولجا وساشا

وبمناسبة العيد ظلت الأسرة في البيت طول النهار وكانت العجوز التي كان زوجها، وزوجات أبنائها، وأحفادها، جميعا ينادونها بالجدة، تحاول أن تقوم بنفسها بكل الأعمال إذ أشعلت الفرن، هيأت السماور بنفسها، بل ذهبت بنفسها لحلب البقرة، ثم راحت تشكو من أنهم أرهقوها بالعمل وكانت طوال الوقت تخشى أن يأكل أحدهم قطعة خبز زائدة، أو أن يجلس العجوز وزوجات الأبناء بلا عمل وتارة كان يخيل إليها أن أوزات صاحب الحانة وهى تتسلل من الفناء الخلفي إلى مزرعتها، فتنطلق من الدار ومعها عصا طويلة، ثم تظل بعد ذلك لنصف ساعة تصرخ بصوت حاد بجوار كرنبها الهزيل مثلها وتارة يتراءى لها أن الحدأة تتربص بأفراخها، فتنقض بالسباب على الحدأة كانت تغضب وتتذمر من الصباح إلى المساء، وكثيرا ما تصيح صياحا شديدا يجعل المارة يتوقفون. ولم تكن تعامل عجوزها برقة، وتنعته تارة بالتنبل وتارة بالمطعون لميكن رجلا قديرا يعتمد عليه، وربما لولا حثها المستمر له لما عمل إطلاقا، بل لجلس على الفرن فقط وتحدث ظل يحدث ابنه طويلا عن أعداء ما، ويشكو له من الإهانات التي ادعى أنه يتحملها كل يوم من جيرانه، وكان سماعه يبعث المللكان يتحدث ممسكا بخصرة.

-نعم، نعم بعد عيد نصب الصليب بأسبوع بعت الدريس بثلاثين كوبيكا اللبود، طواعية نعم حسنا وبينما أنا أنقل، يعنى، الدريس صباحاً طواعية، ولا أتحرش بأحد، وفي ساعة نحس، نظرت فإذا بالعمدة أنتيب سيديلنيكوف خارج من الحانة: إلى أين تحمله يا ابن كذا وكذا؟وضربني على أذني.

أما كيرياك فكان الصداع يعذبه عندما أفاق، وكان يشعر بالخجل منأخيهودمدم وهو يهز رأسه المصدع :

-انظر ماذا تفعل الفودكا، آه يا إلهى اعذرني يا أخي، وأنت يا أختي بحق المسيح، أنا نفسي مستاء وبمناسبة العيد اشتروا من الحانة فسيخاً مملحاً وطبخوا حساء من رؤوس الفسيخ وفي منتصف النهار جلسوا إلى المائدة ليشربوا الشاي، وشربوه طويلاً، حتى سال عرقهم، وبدا كأنما انتفخوا من الشاي، وبعدها فقط بدأوا يتناولون الحساء من صحفة واحدة أما الفسيخ نفسه فقد أخفته الجدة.

في المساء أحرق الفخار الآنية على جرف النهر وعلى المرج في الأسفل رقصت الفتيات في دائرة وغنين وعزفوا على الأكورديون وعلى الشاطئ الآخر أيضاً اشتعل فرن وغنت الفتيات، وبدا هذا الغناء من بعيد متسقاً ورقيقاً وفي الحانة وحولها تعالى صخب الفلاحين،وغنوا بأصوات مخمورة متضاربة، وسبواسباباًفاحشاً حتى إن أولجا كانت تنتفض وتتمتم - : آه، يا إلهيأدهشها أن السباب كان لا ينقطع، وأن الشيوخ الذين آن لهم أن يموتوا، كانواهم أكثر الجميع سباباً وأعلاهم صوتاً أما الأطفال والفتيات فكانوا يسمعون هذا السباب دون أدنى خجل، وبدا أنهم ألفوه منذ المهد.

ومر منتصف الليل، وانطفأت الأفران على هذا الشاطئ وذاك، لكن الاحتفال المعربد استمر في المرج وفي الحانة وسار العجوز وكيرياك، مخمورين، ممسكين بأيدي بعضهما البعض، متدافعين بالأكتاف، واقتربا من الحظيرة التي كانت ترقد فيها أولجا وماريا.

ومضى العجوز يقنعه -دعها إنها امرأة مسالمة حرام فصاح كيرياك - ماريا؟ - دعهاحرام إنها امرأة طيبة ووقفا حوالي دقيقة بجوار الحظيرة ثم انصرفا وفجأة غنى العجوز بصوت تينور عال ثاقب - :أحب زهور الحقول، أحب قطاف المروج! ثم بصق وأطلق سباباً قذراً ودخل الدار :

وضعت الجدة ساشا بجوار مزرعتها وأمرتها أنحرسها من الأوز كان يوماً حاراً من شهر أغسطس وكان بوسع أوزات صاحب الحانة أن تتسلل إلى المزرعة عبر الفناء الخلفي، لكنها كانت مشغولة الآن بالتقاط الشعير بجوار الحانة وتتحدث فيما بينها بسلام،ما عدا ذكر الأوز الذي كان يرفع رأسه عالياً، كأنما ليعرف ما إذا كانت العجوز قادمة والعصا في يدها أم لا وكان بوسع الأوزات الأخريات أن تتسلل من أسفل، ولكنها كانت ترعى الآن بعيداً وراء النهر وقد امتدت شريطاً طويلاً أبيض فوق المرج وقفت ساشا قليلاً، وعندما ملت ورأت أن الأوزات لا تتسلل، ذهبت إلى جرف النهر.

وهناك رأت موتكا، ابنة ماريا الكبرى، واقفة بلا حراك فوق صخرة ضخمة تحدق في الكنيسة أنجبت ماريا ثلاث عشرة مرة، ولكن لم يبق على قيد الحياة سوى ستة أطفال، وكلهم فتيات، أكبرهن في الثامنة، ولا صبيواحد وقفت موتكا حافية، في جلباب طويل، في اللظى،وكانت الشمس تلهب يافوخها مباشرة، ولكنها لم تلاحظ ذلك، وكأنما تجمدت ووقفت ساشا بجوارها وقالت وهي تتطلع إلى الكنيسة :

-الرب يعيش في الكنيسة وعند البشر تشتعل المصابيح والشموع، أما عند الرب فتشتعل القناديل الحمراء والخضراء والرزقاء كالعيون وفي الليل يسير الرب في الكنيسة ومعه العذراء المقدسة والقديس نيكولاي ويخطون: دبدب دب والحارس يخاف، يخاف جداً واستطردت مقلدة أمها - إيه يا حلوة وعندما تقوم القيامة ستطير كل الكنائس إلى السماء.

وسألت موتكا بصوت غليظ وهي تمط المقاطع: - مع أجراسها؟مع أجراسها وفي يوم القيامة يذهب الطيبون إلى الجنة، أما الأشرارفيحترقون في النار إلى الأبد ودون انطفاء يا حلوة وسيقول الرب لأمي ولماريا أيضاً: أنتما لم تؤذيا أحداً، لذلك اذهبا إلى اليمين، إلى الجنة وسيقول الكيرياك والجدة: أما أنتما فاذهبا إلى الشمال، إلى النار ومن أفطر في الصيام فسيذهب أيضاً إلى النار.

ونظرت إلى أعلى، إلى السماء، وقد فتحت عينيها واسعاً وقالت ـ : انظري إلى السماء ولا ترمشى، وسترين الملائكة فنظرت موتكا أيضاً إلى السماء، ومرت دقيقة صمت فسألتها ساشا ـ :أترين؟ فتمتمت موتكا بصوت غليظ :

لاأري -أما أنا فأراهم ملائكة صغاراً يطيرون في السماء ويضربون أجنحتهم :سيك سيك سيك، كالبعوض وفكرت موتكا قليلا، ثم سألت وهي تحدق في الأرض ـ :هل ستحترق جدتى ـ ستحترق يا حلوة.

من الصخرة حتى الأسفل تماماً امتد منحدر مائل مستو، مغطى بعشب أخضر طري يبعث في النفس الرغبة في لمسه باليد أو الرقاد عليه فرقدت ساشا وتدحرجت إلى أسفل ورقدت موتكا أيضا، بوجه جاد صارم، وهي تزحر، وتدحرجت، وأثناء ذلك انحسر جلبابها حتى كتفيها.

وقالت ساشا بإعجاب ـ :كم شعرت بالمرح.

وصعدتا معاً إلى أعلى لتتدحرجا مرة أخرى، وفي تلك اللحظة تناهى إلى سمعهما الصوت الرفيع المألوف أوه ما أفظع ذلك! كانت الجدة، المعروقة، الحدباء، بفم خال من الأسنان، وشعر قصير أبيض يتطاير في الريح، تطارد الأوز من المزرعة بعصا طويلة وتصرخ :

-داسوا الكرنب كله، الملاعين، فلتأخذكم مصيبة، عليكم ألف لعنة،فليهلككم طاعون !ورأت الفتاتين فألقت بالعصا والتقطت غصناً جافاً، وأمسكت ساشا من رقبتها بأصابعها الجافة الصلبة كأسنان المذراة وراحت تجلدها وبكت ساشامن الألم والخوف، وفي تلك اللحظة اقترب ذكر الأوز من الجدة وهو يتمايل من جنب إلى جنب وقد مط عنقه، وفح بشيء ما، وعندما عاد إلى السرب صاحت الأوزات محيية ومشجعة: قو قو قو! ثم شرعت الجدة في جلد موتكا، وأثناء ذلك انحسر جلباب موتكا ثانية وذهبت ساشا إلى الدار لكى تشكو وهي تشعر بالحنق وتبكى عالياً وتبعتها موتكا التي كانت تبكي أيضا، ولكن بصوت غليظ، ولا تمسح دموعها، فأصبح وجهها مبللا حتى بدا كأنها غمرته في الماء -يا إلهى - !ذهلت أولجا عندما دخلت الفتاتان إلى الدار -أيتها السيدةالعذراء ! .

وبدأت ساشا تروى لها ما حدث، وفي تلك الأثناء دخلت الجدة وهيتصرخ بصوت ثاقب وتسب، وغضبت فيكلا، وارتفع الصخب في الداروقالت أولجا الشاحبة الحزينة وهي تطيب خاطر ساشا وتمسد رأسها - :لا بأس، لا بأس، إنها جدتك حرام أن تغضبي منها لا بأس با بنيتى.

أما نيكولاى الذي عذبه هذا الصراخ المستمر، والجوع الدائم والاختناق، والرائحة الكريهة، وأصبح يمقت الفقر ويزدريه، والذي كان يشعربالخجل أمام زوجته وابنته من أمه وأبيه، فقد دلى ساقيه من فوق الفرن

ودمدم بصوت منزعج باك مخاطبا أمه - :ليس لك أن تضربيها! ليس لك أي حق في ضربها !.

فصاحت فيه فيكلا - فلتزهق روحك هناك على الفرن أية مصيبة جاءت بكم إلى هنا ياعالة !.

واختبأت ساشا وموتكا وكل الفتيات الموجودات على الفرن خلف ظهر نيكولاى وسمعن من هناك كل ذلك في صمت وخوف، وترددت مسموعة دقات قلوبهن الصغيرة عندما يوجد في الأسرة شخص مريض منذ أمد طويل مرا ميئوا منه، تمر أحيانا لحظات صعبه يتمنى فيها أقاربه موته في أعماق قلوبهم بوجل وخفية ولكن الأطفال وحدهم هم الذين يخشون موت القريب، ويشعرون بالرعب كلما خطر لهم ذلك وها قد حبست الفتيات أنفاسهن ونظرن بتعبير حزن على وجوههن إلى نيكولاى، وفكرن في أنه سيموت قريبا فشعرن بالرغبة في البكاء وفي أن يقلن له بضع كلمات رقيقة مشفقة.

والتصق نيكولاى بأولجا، وكأنما يبحث فيها عن حماية، وقال لها بصوت خافت متهدج -أوليا يا عزيزتي، لا أستطيع أن أبقى هنا لم أعد أحتمل بحق الله، بحق المسيح في السماء، اكتبي لأختك كلافديا أبراموفنا، فلتبع ولترهن كل شيء لديها، ولترسل لنا نقودا لنرحل من هنا أوه يا إلهي - استطرد يقول بكآبة - لو ألقى نظرة واحدة على موسكو! لو أراها، مدينتي العزيزة، ولو في الحلم !.

عندما حل المساء وأظلمت الدار، غشيت الوحشة النفوس حتى أصبح من الصعب التفوه بكلمة وبللت الجدة الغاضبة كسراً من خبز الجودار في كوب ومضت تمصها فترة طويلة، ساعة كاملة وبعد أن فرغت ماريا من حلب البقرة، جاءت بدلو اللبن ووضعته على الأريكة ثم صبته الجدة من الدلو فيأباريق، وأيضاً فترة طويلة، على مهل، ويبدو أنها كانت مسرورة من أن أحداًلن يشرب اللبن الآن، في صيام رفع العذراء،سيبقى دون مساس ولم تصب منه إلا قليلا جدا في طبق صغير لطفل فيكلا وعندما حملت مع ماريا اللبن إلى القبر قفزت موتكا فجأة، وهبطت من فوق الفرن، واقتربت من الأريكة التي كان عليها الكوب الخشبى بالخبز المبلل، وصبت فيه قليلاً من اللبن من الطبق.

وعادت الجدة إلى الدار ومضت تمص خبزها ثانية، ونظرت ساشا وموتكا إليها وهما جالستان على الفرن، وشعرنا بالسرور لأن الجدة أفطرت وسوف تدخل النار بالتأكيد وسرى ذلك عنهما فآوتا إلى النوم،وتخيلت ساشا وهي تنعس يوم الحساب الرهيب: كان هناك فرن كبير مشتعل، مثل فرن الفخار، وراح عفريت بقرون كقرون البقرة، أسود كله، يطارد الجدة إلى النار بعصا طويلة كما كانت تطارد الأوز منذ وقت قريبفي عيد الرفع، وفي الساعة الحادية عشرة مساء، أطلق الفتيات والفتيان المتنزهون في المرج في الأسفل فجأة صراخا وعويلا، وركضوا نحو القرية أما أولئك الجالسون في الأعلى، على حافة الجرف، فلم يدركوا للوهلة الأولى سبب ذلك.

وترددت في الأسفل صرخة يائسة :حريق! حريق! إننا نحترق !.والتفت الجالسون في الأعلى فتبدت لهم صورة رهيبة عجيبة ففوق إحدى الدور المتطرفة، وعلى سطحها القشى، انتصب عمود من النيران بارتفاع مترين، كان يتلوى ويطلق الشرر في جميع الجهات وكأنه نافورة وعلى الفور اشتعل السطح كله بلهب ساطع، وسمعت قرقعة النيران.

وخبا ضوء القمر، وأصبحت القرية كلها مغمورة بضوء أحمر مرتعش وعلى الأرض تحركت ظلال سوداء وانتشرت رائحة الحريق ولهث الراكضون من أسفل ولم يستطيعوا أن يتكلموا من الرجفة، وتدافعوا، وتساقطوا، ولعدم التعود على الضوء الساطع لم يروا جيدا ولم يميز بعضهم بعضا وسيطر الرعب وكان مرعبا بصفة خاصة أن الحمام كان يطير فوق النيران وسط الدخان، وفي الحانة، حيث لم يعلموا بعد بالحريق، استمر الغناء والعزف على الأكورديون كأنما لم يحدث شيء.

وصاح شخص ما بصوت عال غليظ: - دار العم سيميون تحترقوتراكضت ماريا أمام دارها وهي تبكي وتلوي ذراعيها، وأسنانها تصطك،رغم أن الحريق كان بعيداً، في الطرف الآخر للقرية وخرج نيكولاي في حذائه اللباد، وتقاطر الأولاد إلى الخارج في قمصانهم القصيرة وبجوار دار الخفير دقوا على لوح حديدى فتردد في الجو: بمبم بم وبسبب هذا الرنين المتكرر الملحاح تولد إحساس بالبرودة بعصر القلب ووقفت النساء العجائز حاملات الأيقونات.

ومن الأفنية أخرجوا الغنم والعجول والبقر، وحملوا الصناديق وجلودالخراف والبراميل وكان ثمة مهر أسود لم يضموه للقطيع لأنه كان يرفس ويجرح الخيول، وقد أطلق الآن سراحه فركض عبر القرية مرة وأخرى وهو يدق بقوائمه ويصهل، ثم توقف فجأة بجوار عربة وأخذ يضربها بقائمتيه الخلفيتين.

وعلى الضفة الأخرى من النهر دوت أجراس الكنيسة كان الصهد شديدا بجوار الدار المشتعلة وكان المكان مضيئا إلى درجة ظهرت فيها واضحة كل عشبة على الأرض وعلى أحد الصناديق التي تمكنوا من إخراجها جلس سيميون، فلاح أحمر الشعر، بأنف كبير، وفي عمرة أغمدها في رأسه عميقاحتى أذنيه، وفي سترة ورقدت زوجته على وجهها في حالة إغماء، وراحت تئن وكان هناك عجوز ما، في حوالي الثمانين، قصير القامة، بلحية طويلة، يشبه القزم، ليس من أهل الناحية ولكن يبدو أن له صلة بالحريق، أخذ يروح ويجيء بلا طاقية وفي يديه صرة بيضاء وانعكس اللهب على صلعته واقترب العمدة أنتيب سيديلنيكوف، الأسمر والأسود الشعر، والذي يشبه الغجرى، اقترب من الدار بالفأس وحطم النوافذ، الواحدة تلو الأخرى، لسبب غير معلوم، ثم راح يحطم الدرج.

وصاح - :الماء يا نساء! الماكينة! أسرعوا !.

وسحب أولئك الفلاحون، الذين كانوا يمرحون لتوهم في الحانة، ماكينة الإطفاء كانوا جميعاًسكارى،فراحوا يتعثرون ويسقطون، وظهر على وجوههمجميعاً تعبير عجز، وترقرقت الدموع في أعينهم.

وصاح العمدة الذي كان أيضاً مخمور- الماء يا بنات! بسرعة يا بناتوركضت النساء والفتيات إلى أسفل، حيث يوجد النبع، وحملن إلى أعلى الدلاء والطسوت المملوءة، وبعد أن يفرغنها في الماكينة كن يركضن ثانية ونقلت الماء أولجا و ماريا وساشا وموتكا أيضاً وقامت النساء والصبيان بضخ الماء، وفتح الخرطوم، وصوبه العمدة تارة إلى الباب وتارة إلى النوافذ وهو يضغط التيار بإصبعه فكان يصدر عنه فحيح أشد.

وترددت أصوات استحسانشاطر يا أنتيب! اجتهد! أما أنتيب فاقتحم المدخل وسط اللهب، وصاح من هناك : ضخوا! اجتهدوا أيها المسيحيون بمناسبة هذا الحادث الأليم! وتجمهر الفلاحون بجوار الدار وهم لا يفعلون شيئا، وأخذوا يتطلعون إلىالنار ولم يكن أحد يعرف ماذا يفعل، ولا أحد يجيد شيئا، بينما من حولهم أكوام القمح والدريس، والحظائر والحطب الجاف وهنا أيضاً وقف كيرياك وأبوه العجوز أوسيب، وكانا كلاهما ثملين وقال العجوز مخاطبا المرأة الملقاة على الأرض، وكأنما يريد أن يبرر وقوفه بلا عمل :ما الداعي للنواح يا أشبينة! الدار مؤمنة، فماذا تريدين !وأخذ سيميون يروى كيف شب الحريق مخاطبا تارة هذا الشخص وتارة ذاك

هذا العجوز ذو الصرة، من خدم الجنرال جوكوفكان يعمل طباخاًعند جنرالنا، عليه الرحمة جاء مساء وقال: دعني أبيتوطبعاً شربنا قليلًا، معلوم وقامت زوجتي تشعل السماور لتسقى العجوز شاياً، ولسوء الحظ وضعت السماور في المدخل، وهكذا طار اللهب من مدخنته إلى السقف مباشرة، إلى القش فاشتعل يعنى نحن أنفسنا كدنا نحترق وطاقية العجوز احترقت، يا حرام.

واستمر الطرق على اللوح الحديدى بلا كلل، ودقت أجراس الكنيسة كثيراً وراء النهر ونظرت أولجا برعب، وقد غمرها الضوء، وهي تختنق، إلى الشياه الحمراء والحمامات الوردية المحلقة في الدخان، وركضت تارة إلى أسفل وتارة إلى أعلى وخيل إليها أن هذا الرنين قد انغرز في قلبها شوكة حادة، وأن الحريق لن ينتهي أبدا، وأن ساشا فقدت وعندماانهار سقف الدار بصخب أصابها الخور من فكرة أن القرية سوف تحترق الآن كلها حتما، ولم يعد بوسعها أن تجلب الماء، فجلست على الجرف ووضعت الدلاء بجوارها وجلست النساء بقربها وأعولن كأنما يندبن ميتا.

ولكن ها هم الوكلاء والعاملون قد جاءوا من الضفة الأخرى، من ضيعة الإقطاعي ، في عربيتين،وأتوا معهم بماكينة إطفاء وجاء طالب في سترة بيضاء مسدلة، شاب جداً، على ظهر حصان وتعالى طرق الفؤوس، ووضعوا لعلى الجدار المشتعل، وتسلقه خمسة أشخاص دفعه واحدة

وفي مقدمتهم الطالب الذي كان محمراً، يصرخ بصوت حاد أبح وبلهجة توحي وكأن إطفاء الحرائق كان عملاً معتاداً بالنسبة له وفككوا جذوع الدار، ونقلوا المعلف والسياج وأقرب كوم دريس.

وترددت أصوات حازمة من الحشد - :امنعوهم من تحطيم الدار! امنعوهم !فتوجه كبرياك نحو الدار في هيئة حازمة، كأنما يبغى منع القادمين من تحطيمها، ولكن أحد العمال أداره إلى الخلف وضربه على قفاه وسمعت ضحكات، وضربه العامل مرة أخرى فسقط كيرياك وزحف على أربع عائدا إلى الحشد.

وجاءت من الضفة الأخرى فتاتان جميلتان ترتديان قبعتين، يبدو أنهما شقيقتا الطالب ووقفتا عن بعد تنظران إلى الحريق ولم تعد الجذوع المفكوكة تشتعل لكنها نفثت دخاناً كثيفاً وكان الطالب الممسك بالخرطوم يوجهه تارة إلى الجذوع وتارة إلى الفلاحين، وتارة إلى النسوة جالبات الماء.

وصاحت به الفتاتان بعتاب وقلق - :جورج! جورج !.

وانتهى الحريق وعند الانصراف فقط لاحظوا أن الفجر حل، وأن الجميع شاحبون وسمر إلى حدما هكذا يبدو دائماً في الصباح الباكر عندما تنطفئ آخر نجوم السماء وضحك الفلاحون وهم ينفضون وسخروا من طاهي الجنرال وطاقيته التي احترقت

كانوا يرغبون الآن في تحويل الحريق إلى مزحة، وكأنما حتى كانوا يأسفون على انتهاء الحريق بهذه السرعةوقالت أولجا للطالب - :لقد أطفأتم الحريق جيداً يا سيدى حبذا لو جئتم إلينا في موسكو فهناككل يوم حريق.

فسألتها إحدى الفتاتين :وهل أنت من موسكو؟.

هو كذلك كان زوجي يعمل في سلافيانسكى بازار وهذه ابنتى - وأشارت إلى ساشا المقرورة الملتصقة بها: وهي أيضا موسكوفية.

وقالت الفتاتان شيئاًما بالفرنسية للطالب فأعطى هذا لساشا قطعة نقدية بعشرين كوبيكا ورأى العجوز أوسبب ذلك فأشرق وجهه بالأمل فجأةوقال مخاطباً الطالب :

الحمد لله يا صاحب المعالي إنه لم تكن هناك ربح، وإلا لاحترقنا في الحال ثم أضاف بحرج وبنبرة أخفض - يا صاحب المعالي، أيها السادة الطيبون، الفجر بارد، لو نتدفأ لو تكرمتم بثمن نصف زجاجة.

فلم يعطوه شيئا فسعل وجر ساقيه إلى البيت أما أولجا فوقفت على الجرف وتطلعت إلى العربتين وهما تعبران النهر خوا، وإلى السادة وهم يسيرون في المرج وعلى الشاطئ الآخر كانت هناك عربة في انتظارهم وعندما عادت أولجا إلى الدار قصت لزوجها بإعجاب :

ما أطيبهم! ما أجملهم! أما الآنستان فمثل ملاكين ودمدمت فيكلا الناعسة بغل :فلتمزقهم مصيبة !.كانت ماريا تعتبر نفسها تعيسة وتقول إنها تود بشدة لو ماتت أما فيكلا فعلى العكس، كانت تروق لها كل هذه الحياة: الفقر، والقذارة، والسباب الجامح كانت تأكل ما يقدم لها دون تمييز، وتنام حيثما كان وعلى أي شيء وكانت تلقى بالقاذورات بجوار المدخل مباشرةتقذف بها من العتبة ثم تخوض بقدميها الحافيتين في البركة القذرة ومنذ اليوم الأول مقتت أولجا و نيكولاى بالذات لأن هذه الحياة لم تعجبهماوكانت تقول بتشف -:سأري ماذا ستأكلون هنا أيها النبلاء الموسكوفيون! سأرى !.

وذات صباح - وكان ذلك في بداية سبتمبر - أتت فيكلا من أسفل بدلوى مياه وكانت وردية من البرد، عفية وجميلة وفي تلك الأثناء كانت ماريا وأولجا جالستين إلى المائدة تشربان الشايفدمدمت فيكلا بسخرية وهي تضع الدلوين :

-الشاي والسكر! يا لهما من سيدتين، أصبحت موضة عندهما أن تشربا الشاى كل يوم احترسا وإلا انتفختما من الشاي - !استطردت وهي تنظر إلى أولجا بحقد - سمنت في موسكو سحنة ممتلئة يا كثيرة اللحم !.

ورفعت المغرفة وضربت أولجا على كتفها حتى أن كلتا الزوجتين أشاحتابأيديهما ودمدمنا -:آه، يا إلهي.

ثم ذهبت فيكلا إلى النهر لتغسل الملابس وظلت طوال الطريقت سبب صوت عال كان يسمع في الدارومر النهار وحل مساء خريفى طويل وكانوا يلفون خيوط الحرير في الدار.

كانوا يلفون جميعاٍ ما عدا فيكلا التي ذهبت إلى ما وراء النهر كانوا يأخذون الحرير من مصنع قريب فتكسب منه الأسرة كلها قليلاً، حوالي عشرين كوبيكا في الأسبوع.

وقال العجوز وهو يلف الحرير :

كان الحال أفضل أيام السادة تعمل، وتأكل، وتنام، وكل شيء بنظام في الغداء تتناول حساء الكرنب والعصيدة، وفي العشاء الكرنب والعصيدة وما أكثر الخيار والكرنب، كُل طواعية قدر ما تشاء والحزم كان أكثر فكل واحد يعرف قدره.

ولم يشتعل سوى مصباح صغير كان يرسل ضوءاً كابياً ودخاناً وعندما يحجب أحد ما الضوء فيسقط ظل كبير على النافذة، يلوح نور القمر الساطع وكان العجوز أوسيب يتحدث على مهل عن الحياة قبل التحرر وكيف أنه في نفس هذه الأماكن التي يعيشون فيها الآن بملل وفقر كان السادة يصطادون بكلاب الصيد والكلاب السلوقية وكلاب بسكوف، وكانوا أثناء المطاردة يقدمون الفودكا للفلاحين

وكيف كانت تمضي إلى موسكو العربات المحملة بالطيور البرية من أجل السادة الشبان، وكيف كانوا يعاقبون الأشرار بالجلد أو بالنفي قرب ضيعة تفير، ويكافئون الأخيار وروت الجدة أيضا شيئا ماكانت تذكر كل شيء، كل شيء بحذافيره وتحدثت عن سيدتها السابقة، تلك المرأة الطيبة التقية، التي كان زوجها عربيدا وفاسقا والتي تزوجت بناتها جميعا بصورة سيئة ما بعدها سوء، فقد تزوجت واحدة من سكير، والأخرى من شخص متوسط الحال، والثالثة هربت سراً وساعدت الجدة نفسها، التي كانت فتاة آنذاك، في عملية الهرب ثم سرعان ما متن جميعاً، مثل أمهن،من الآسي وبكت الجدة قليلا إذ تذكرت ذلك.

وفجأة دق الباب فانتفضوا جميعاًيا عم أوسيب، اسمح لي بالمبيتودخل عجوز صغير أصلع، طاهي الجنرال جوكوف، ذلك الذي احترقت طاقيته وجلس يصغي ثم راح هو الآخر يتذكر وبروى مختلف الحكايات .

كان نيكولاى، الجالس على الفرن مدلياً ساقيه، يصغي ويسأل عن الأطعمه التي كانوا يطبخونها أيام السادة فتحدثوا عن اللحم المحمر والكستليتةومختلف ألوان الحساء والصلصة، وكان الطاهي،الذي يذكر أيضاً كل شيء، يسمى أنواع المأكولات التي لم يعد لها وجود الآن كانت هناك مثلاً أكله تجهز من عيون الثيران وتسمى صباحا بعد الاستيقاظ.

سأل نيكولايو هل كنتم تعدون كستليتة ماريشال؟.

كلا فهز نيكولاى رأسه بعتاب وقال - :إيه، طهاة خائبون !.

وحدت الفتيات الراقدات والجالسات على الفرن إلى أسفل دون أن تطرف عيونهن وبدا أنهن كثيرات جداً، كالملائكة في السحب وأعجبتهن القصص، فرحن يتنهدن وينتفضن ويشحبن تارة من الإعجاب وتارة من الخوف وأصغين إلى الجدة التي كان حديثها أمتع من حديث الآخرين بأنفاس مبهورة محاذرات ألا تند عنهن حركة. وأووا إلى النوم في صمت وفكر العجائز المنفعلون الذين أثارتهم.

الحكايات في روعة الصبا الذي لا يبقى بعده، مهما كان، إلاما هو حي ومفرح ومؤثر، وما أرهب برودة هذا الموت غير البعيد من الأفضل ألا تفكر فيه! وانطفأ المصباح ولسبب ما ذكرهم الظلام والنافذتان، المضاءتان بنور القمر الساطع، والهدوء، وصرير المهد بأن الحياة قد انقضت، ولا يمكن استرجاعها بأي حال ما إن تنعس وتغيب حتى يلمس أحد ما كتفك، وينفخ في خدك، فيطير النوم، وتشعر بجسدك كأنما هرس هرشا، ولا ترد إلى الذهن إلا الأفكار عن الموت وتستدير إلى الجنب الآخر، فتنسى الموت ولكنتجوس في رأسك الأفكار القديمة المملة المقبضة عن الفاقة والعلف، عن ارتفاع أسعار الدقيق، وبعد قليل تتذكر ثانية أن الحياة قد انقضت، ولا يمكن استرجاعها.

وتنهد الطاهي - :أوه، يا إلهي وطرق أحدهم على النافذة طرقات خافته يبدو أنها فيكلا قد عادتونهضت أولجا وهي تتثاءب وتهمس بالصلوات، وفتحت الباب، ثم نزعت مزلاج المدخل ولكن لم يدخل أحد بل هبت برودة من الخارج وانتشر الضوء فجأة من القمر ومن الباب المفتوح ظهر الشارع الهادئ المقفر، والقمر ذاته الذي كان يسبح في السماءوهتفت أولجا :

-من هناك ؟

-أنا - تناهيالرد - هذه أنا.

وقفت فيكلا بجوار الباب، ملتصقة بالحائط، عارية تماما كانت ترتعش من البرد وأسنانها تصطك، ولاحت في ضوء القمر الساطع شاحبة للغاية وجميلة وغريبةوبدت الظلال الساقطة عليها ولمعان القمر على جلدها ملفتة للأنظار بشدة، وبرز بشكل خاص حاجباها الأسودان ونهداها الفتيان القويان وتمتمت - :نزع الأشقياء في الضفة الأخرى ثيابى وتركوني هكذا جئت إلى البيتبلا ملابس كما ولدتني أمي هاتي شيئاً ألبسه.

فقالت أولجا وقد بدأت هي أيضاً ترتعش :

- ادخلى إذن؟ أخشى أن يراني العجوزان وبالفعل كانت الجدة تتململ وتتذمر والعجوز يسأل :من هناك ؟ وجاءت أولجا إليها بقميصها وجونلتها، وألبستها، ثم دخلتكلتاهما بهدوء محاذرتين ألا تصطفق الأبواب

ودمدمت الجدة بغضب وقد خمنت من القادمأهي أنت يا ناعمة؟ آه يا صايعة ف لتأخذك داهية فهمست أولجا وهي تدثر فيكلا - لا بأس، لا بأس، لا بأس يا حلوة. وعاد الهدوء كان النوم في الدار سيئاً دائماً فقد كان لدى كل منهم شيء لزج ملحاح يمنعه من النوم: الألم في الظهر لدى العجوز، والهموم والحقد لدى الجدة، والخوف لدى ماريا،والجرب والجوع لدى الأطفال والآن أيضاً كان نومهم قلقاً، يتقلبون من جنب إلى جنب، ويهذون، وينهضون ليشربوا.

وفجأة أجهشت فيكلا بصوت عال غليظ، ولكنها كتمت بكاءها على الفور،ثم أخذت تشهق أقل وأخفت إلى أن سكنت وأحياناً كان رنين الساعة يتناهى من الضفة الأخرى من وراء النهر ولكنها كانت ساعة غريبة، إذ دقت في البداية خمس دقات ثم بعد ذلك ثلاث وتنهد الطاهي - :أوه، يا إلهى.!

بالنظر إلى النوافذ كان من الصعب معرفة ما إذا كان ذلك ضوء القمر أم أن الفجر حل ونهضت ماريا وخرجت، وسمع صوتها وهي تحلب البقرة فيالفناء وتقول لها: قفى! وخرجت الجدة أيضاً وكان الظلام لا يزال منتشراًفي الدار ولكن معالم الأشياء أصبحت واضحة.

وهبط نيكولاى، الذي لم ينم طوال الليل، من فوق الفرن واستخرج من الصندوق الأخضر فراكه، ولبسه، واقترب من النافذة فمسح كمية وشد أطرافه وابتسم ثم نزعه بحرص، ودسه في الصندوق، وعاد فرقد.

عادت ماريا وبدأت تشعل الفرن ويبدو أنها لم تفق تماماً من النوم وهاهي ذي الآن تفيق أثناء الحركة وربما تراءى لها شيء في الحلم أو تذكرت حكايات الأمس،إذ إنها تمطت أمام الفرن بتلذذ وقالت :كلا،التحرر أفضل.!

وصل السيد - هكذا كانوا في القرية يسمون وكيل مأمور الشرطة كانوا يعرفون منذ أسبوع، متي، ولماذا سيأتي فرغم أن جوكوفو لم تكن تضم سوى أربعين داراً فإن متأخرات الضرائب، الحكومية والإقليمية، بلغت أكثر من ألفي روبلنزل وكيل المأمور في الحانة وأكل هنا كوبين من الشاي، ثم توجه مشياً إلى دار العمدة، حيث كان ينتظر حشد من المتخلفين عن السداد وبالرغم من صغر سن العمدة إنتيب سيديلنيكوف - كان يجاوز الثلاثين بقليل.

فقد كان صارماًويقف دائماً في صف الرؤساء، وإن كان هو نفسه فقيراً ولا يسدد الضرائب بانتظام يبدو أنه كان يسليه أنه عمدة، ويعجبه الإحساس بالسلطة التي لم يكن يستطيع إظهارها إلا بالصرامة وكانوا في الاجتماعات يخشونه ويطيعونه كان يحدث أحياناً أن ينقض فجأة على أحد السكاري في الشارع أو بجوار الحانة، فيوثق يديه خلف ظهره ويودعهفي غرفة الحبس بل إنه أودع الجدة غرفة الحبس ذات مرة لأنها، إذ جاءت إلى الاجتماع بدلاً من أوسيب، أخذت تسب، فأبقاها هناك يوماً كاملاً ولم يعش في المدينة، ولم يقرأ الكتب أبداً، لكنه جمع من مكان ما شتى الكلمات الذكية وكان يهوى استخدامها في حديثه، ولهذا احترموه رغم أنهم لم يكونوا يفهمونه دائماً.

عندما دخل أوسيب دار العمدة ومعه بطاقة الضرائب، كان وكيل المأمور، وهو عجوز نحيف، بسالفين طويلين أشيبين وفي سترة رمادية ثقيلة، جالساًإلى طاولة في الركن تحت الأيقونات يسجل شيئا ما كانت الدار نظيفة، والجدران كلها مبرقشة بالصور المنزوعة من المجلات، وفي أبرز مكان، بجوار الأيقونات،علقت صورة باتنبرج، الأمير البلغاري السابق وبجوار الطاولة وقف أنتيب سيديلنيكوف، عاقداً يديه على صدرهوقال عندما جاء دور أوسيب :

-عليه يا صاحب المعالى مائة وتسعة عشر روبلاً منذ أن دفع روبلا قبيلعيد الفصح لم يدفع بعدها كوبيكا. فرفع وكيل المأمور بصره إلى أوسيب وسأله - :لم هكذا يا صاحبى؟ فشرع أوسيب يقول مضطربا :

-اصنعوا معروفاً لله يا صاحب المعالى، اسمحوا لي بأن أقول، في السنة الماضية قال لى سيد من ضيعة لوتريتس: يا أوسبب بع لى الدريس هيا بعه لى، ولم لا؟ كان لدى حوالي مائة بود للبيع حصدتها النساء في المروج قرب النهر حسناً، اتفقنا كل شيء تمام، طواعية.

اشتكى من العمدة وهو يستدير بين الحين والحين نحو الفلاحين كأنما يدعوهم شهوداًواحمر وجهه وتفصد عرقاً، وأصبحت عيناه حادتين، شرير تين فقال وكيل المأمور

-لستأفهم لماذا تحكي لي كل هذا؟ إني أسألك أسألك أنت، لماذا لا تدفع المتأخرات؟ أنتم جميعاً لا تدفعون وتريدون أن أتحمل أنا المسئولية؟.

-لا قدرة عندى !فقال العمدة :

-هذه الكلمات لا أثر لها يا صاحب المعالى صحيح آل تشيكيلدييف من طبقة غير ميسورة، ولكن تفضلوا واسألوا الآخرين، السبب واحد: الفودكا وهم عابثون جداً بدون أدنى مفهومية.

وسجل وكيل المأمور شيئاً ما ثم قال لأوسيب بسكينة وبنغمة هادئة وكأنهيطلب كوب ماء.

-اغرب من هناوسرعان ما رحل وعندما جلس في عربته الرخيصة وسعل، بدا واضحاًحتى من منظر ظهره الطويل، أنه لم يعد يذكر شيئاً عن أوسيب أو العمدة أو عن متأخرات جوكوفو، بل كان يفكر في أموره الخاصة وما أن ابتعد فرساً واحداًحتى كان إنتيب سيديلنيكوف يخرج من دار آل تشيكيلدييف حاملاً السماور،بينما سارت الجدة خلفه وهي تصيح بصوت رفيع، نافخة صدرها :

-لن أعطيه ! لن أعطيه لك يا ملعون !

كان أنتيب يسير بسرعة، بخطوات واسعة، أما هي فركضت خلفه وهي تختنق وتكاد تسقط، حدباء، شرسة وسقط منديل رأسها على كتفيها، وتطاير شعرها الأشيب المائل إلى الخضرة في الريح وفجأة توقفت، وكمتمردة حقيقية، أخذت تضرب صدرها بقبضتيها وتصبح أعلى من ذي قبل بصوت ناغم وكأنها تعول :الإهانات والاستعباد، من الفاقة غير المحتملة ومن الفودكا الرهيبة .

وانتحبت ماريا وهي تقول: ـ يا مخلصة، يا أمنا! يا مخلصة !.

ولكن ها هو ذا القداس قد انتهى، وحملوا الأيقونة، وعاد كل شيء إلى سابق عهده، ومن جديد ترددت من الحانة أصوات فظة مخمورة .

ولم يكن يخشى الموت سوى الفلاحين الأغنياء الذين كلما ازدادوا ثراء قل إيمانهم بالله وبخلاص الأرواح، وبسبب الخوف وحده من نهاية العالم، وتحوطا، كانوا يضعون الشموع ويقيمون القداسات، أما الفلاحون الفقراء فلم يكونوا يخشون الموت. كان يقال للعجوز والجدة في حضورهما إنهما عاشا طويلا وان لهما أن يموتا، فلا يعبآن وفي حضور نيكولاى لم يكونوا يخجلون من القول لفيكلا بأنه عندما يموت نيكولاى، فسيستفيد زوجها دينيس، إذ سيسرحونه من الخدمة العسكرية. أما ماريا فلم تكن لا تخشى الموت فحسب بل كانت تأسف لأنه تأخر إلى هذا الحد، وكانت تشعر بالسرور عندما يموت أطفالها

لم يكونوا يخشون الموت لكنهم كانوا ينظرون إلى الأمراض بخوف مبالغ فيه كانت تكفى أية إصابة تافهة ـ كاضطراب في المعدة، أو حرارة بسيطة ـ حتى ترقد الجدة على الفرن وتتدثر وتبدأ في التأوة بصوت عال وبلا توقفآه، أموت! ويسرع العجوز باستدعاء القس لمناولتها ومسحها بالزيت وكثيرا ما كانوا يتحدثون عن نزلة البرد، وعن الديدان، وعن الأورام المتحركة في البطن والواصلة إلى القلب وكانت نزلة البرد أكثر ما يخشونه، ولذلك كانوا يلبسون الملابس الثقيلة حتى في الصيف ويتدفأون على الفرن وكانت الجدة تهوى العلاج، وكثيراً ما تسافر إلى المستشفى، حيث تقول إن عمرها ليس سبعين سنة بل ثمانية وخمسين وكانت تعتقد أنه لو عرف الطبيب عمرها الحقيقي فلن يعالجها بل سيقول إنه آن لها أن تموت لا أن تتعالج وكانتترحل إلى المستشفى عادة في الصباح الباكر، وتأخذ معها صبيتين أو ثلاثا، وتعود في المساء جوعي وغاضبة بقطرات لها ومراهم للصبيات وذات مرة أخذت نيكولاى، الذي ظل بعدها أسبوعين يتناول القطرات ويقول إنه يشعربتحسن .

كانت الجدة تعرف جميع الأطباء والحكماء والمطببين لمدى ثلاثينفرسخاً، ولم يعجبها واحد منهم وفي عيد التجلي، عندما طاف القسيس بالصليب على الدور، قال لها الشماس إن هناك عجوزاً، حكيماً عسكرياً سابقا، يعيش في المدينة قرب السجن، يعالج جيداً جداً، ونصحها باللجوء إليه.

وعملت الجدة بنصيحته وعندما هبط الثلج لأول مرة سافرت إلى المدينة وجاءت بعجوز متنصر، بلحية وفي ثوب طويل الذيل، وكان وجهه مغطى بعروق زرقاء وفي تلك الأثناء كان يعمل في الدار عمال مياومة، كان خياط عجوز يضع نظارة رهيبة يفصل من بعض الأسمال صديرياً، وشابان يلبدان الصوف ويصنعان أحذية اللباد وكان كيرياك الذي طردوه من العمل بسبب السكر وأصبح يعيش الآن في المنزل،جالسا بجوار الخياط يصلح النير وكانت الدار ضيقة، خانقة، كريهة الرائحة وفحص العجوز المتنصر نيكولاى وقال إنه بحاجة إلى كاسات هواء .

وأخذ يضع كاسات الهواء بينما وقف العجوز الخياط وكيرياك والفتيات ينظرون، و خيل إليهم أنهم يرون كيف يخرج المرض من جسد نيكولاى ونظر نيكولاي أيضا إلى الكاسات وهي تلتصق بصدره فتمتلىء شيئا فشيئا بدم داكن، فشعر كما لو كان شيء ما يخرج بالفعل من جسده، فابتسم مستمتعا .

وقال الخياط - :هذا حسن، جعل الله فيه الشفاء.

وضع المتنصر اثنتي عشرة كأسا، ثم اثنتي عشرة أخرى، وشرب الشاي ثم رحل وأخذ نيكولاى يرتجف، وهزل وجهه، وكما قالت النساء، تضاءلبحجم القبضة، وازرقت أصابعه، وتدثر بالبطانية وبمعطف جلد الخروف

ولكنه شعر بازدياد البرودة وبحلول المساء تملكته الوحشة، وطلب أن يضعوه على الأرض، ورجا الخياط ألا يدخن، ثم سكن تحت المعطف، وفي الصباحتوفي .أوه، يا له من شتاء قاس، طويل !.

منذ أعياد الميلاد لم يعد لديهم قمح، فابتاعوا الدقيق وكان كيرياك، الذي أصبح يعيش الآن في المنزل، يثور كل مساء فيلقى الرعب في قلوب الجميع، وفي الصباح يتعذب من الصداع والخجل فكان منظره يبعث على الرثاء. وفي المعلف كان يتردد ليل نهار خوار البقرة الجائعة فيمزق نياط قلبى الجدة وماريا وكأنما عن عمد ظل الصقيع قارسا طوال الوقت، وتراكم الثلج أكواما، وامتد الشتاء، وفي عيد البشارة هبت عاصفة شتائية حقيقية، وفي أسبوع الفصح هطل الثلج .

ولكن أيا ما كان الحال فقد انتهى الشتاء وفي بداية أبريل حلت أيام دافئة بينما كانت الليالي قارسة، ولم يتراجع الشتاء، ولكن يوما دافئا تغلب عليه أخيرا، فسالت الجداول، وصدحت الطيوروغرق المرج كله والخمائل بقرب النهر في مياه الربيع،وتحولت المساحة الواقعة بين جوكوفو والشاطيء الآخر من النهر إلى خليج كبير رفرفت فوقه هنا وهناك أسراب من البط البري وكان الغروب الربيعي المتلهب، بسحبه المنفوشة، يقدم كل مساء شيئاً عجيباً، جديداً خيالياً، ذلك الشيء الذي لا تصدقه عندما ترى فيما بعد نفس هذه الألوان ونفس هذه السحب على قماش لوحة

وطارت اللقالق بسرعة كبيرة وصاحت بحزن، كأنما كانت تدعو للذهاب معها ووقفت أولجا على حافة الجرف ونظرت طويلا إلى الفيضان، وإلىالشمس، وإلى الكنيسة المشرقة التي بدت كأنما تجدد شبابها، وسالت الدموع من عينيها واختنقت أنفاسها من الرغبة الجارفة في الرحيل إلى مكان ما، إلى حيث يمتد البصر، ولو إلى آخر الدنيا وكانوا قد قرروا أن تعود ثانية إلى موسكو لتعمل خادما، وسيمضي معها كيرياك ليعمل بواباً أو أي عمل آخر آه، كم تود لو ترحل بسرعة !.

وعندما جفت الأرض وأصبح الجو دافئاً استعدوا للرحيل خرجت أولجاوساشا، بالصرر على ظهريهما، وفي نعلين قرويين ما أن لاح الفجر وخرجت ماريا لكي تودعهما وكان كيرياك مريضاً فتأجل رحيله أسبوعاً وصلت أو لجا لآخر مرة في اتجاه الكنيسة وهي تفكر في زوجها، ولم تبك لكن وجهها تغضن وصار قبيحا كوجه عجوز لقد هزلت خلال الشتاء وقبحت وشابت قليلاً، وبدلاً من ملاحتها السابقة وابتسامتها اللطيفة الودود ظهر على وجهها تعبير حزين مسالم بالأسى الذي عاشته، وظهر في نظرتها شيء جامد بليد كأنما كانت لا تسمع كانت آسفة على فراق القرية والفلاحين وتذكرت كيف حملوا نيكولاى وبجوار كل دار كانوا يقيمون الصلاة وكيف بكى الجميع مشاركين لها بلواهاوأثناء الصيف والشتاء كانت تمر بها ساعات يبدو لها فيها أن هؤلاء الناس يعيشون أسوأمن الحيوانات

وكانت الحياة بينهم مرعبة فهم أفظاظ، غير شرفاء، قذرون، مخمورون،لا يعيشون في وفاق، يتشاجرون دائما لأنهم لا يحترمون بعضهم بعضاً ويخافون ويرتابون من يفتح الحانات وسكر الناس؟ الفلاح ومن يبدد الأموال العامة وأموال المدارس والكنائس وينفقها على الشراب؟ الفلاح ومن سرق جاره، وأحرق، وشهد زوراً في المحكمة مقابل زجاجة فودكا؟ من أول من يهاجم الفلاحين في اجتماعات المجلس المحلي وغيرها؟ الفلاح نعم، كانت الحياة بينهم مرعبة، ومع ذلك فهم بشر، يعانون ويبكون كالبشر، وليس في حياتهم شيء لا يمكن إلا تجد له مبرراً العمل الشاق الذي يئن منه الجسد تعبا في الليالي،وفصول الشتاء القاسية، والمحاصيل الشحيحة، وضيق المسكن، ولا مساعدة، وليس من جهة تتوقعها منها فالأغنى والأقوى منهم لا يستطيعون مساعدتهم لأنهم همأنفسهم أفظاظ، غير شرفاء، مخمورون، ويسبون نفس السباب الكريه وأصغر موظف أو وكيل يعامل الفلاحين معاملة المتشردين ويخاطب حتى الشيوخ ورؤساء الكنائس بصيغة المفرد ويعتقد أن له الحق في ذلك وهل يمكن أن يكون ثمة أي عون أو مثال طيب من أناس مغرضين، جشعين، فاسقين، كسالى، لا يذهبون إلى القرى إلا لكي يهينوا وينهبوا ويرهبوا؟ وتذكرت أولجا كيف كان منظر العجوزين بائسا ذليلا عندما سيق كيرياك شتاء لمعاقبته بالجلد وهي الآن تشعر بالرثاء والألم لكل هؤلاء الناس، وراحت طوال سيرها تتلفت نحو الدور .

وبعد أن سارت ماريا معهما حوالي ثلاثة فراسخ ودعتهما، ثم جثت علىركبتيها وأعولت وهي تسقط بوجهها على الأرض وتصيح :

عدت وحيدة يا ماريا! آه يا تعيسة يا بائسة .

وظلت تعول هكذا طويلا، وظلت أولجا و ساشا يريانها طويلا وهي جائية على ركبتيها تسجد جانباً لشخص ما وقد أمسكت رأسها بيديها، وفوقها حلقت الغربان .

ارتفعت الشمس عالياً واشتد الحر وبقيت جوكوفو بعيداً في الوراء وكان السير محبباً، فسرعان ما نسيت أولجا وساشا القرية وماريا، وأحستا بالمرح وكان كل شيء يبدو مسلياً تارة تل، وتارة صف أعمدة البرق التي يمضي كل منها وراء الآخر إلى جهة غير معلومة، وتختفي في الأفق، والأسلاك تئز بألغاز وتارة تبدو على البعد عزبة، غارقة في الخضرة، تهب منها الرطوبة ورائحة القنب، ولسبب ما يخيل إليهما أن قاطنيها أناس سعداء. وتارة يلوح هيكل عظمي لحصان،أبيض وحيد في الحقل والقبرات تصدح بلا توقف، وتتصايح السمانات ويصرخ طائر الدراج بصوت متحشرج يشبه بالفعل صوت درج حديدى صدئ يسحب .

بلغت أولجا وساشا في الظهر قرية كبيرة وهناك قابلتا في شارع واسع.

طاهي الجنرال جوكوف، ذلك العجوز كان حران، ولمعت في الشمس صلعته العرقانة الحمراء. ولم تعرفه أو لجا ولا هو أيضا عرفها، ثم نظر كل منهما إلى الآخر في نفس اللحظة فعرفا بعضهما البعض، ودون أن يتفوها بكلمة، مضي كل منهما في سبيله وتوقفت أولجا بجوار دار بدت أكثر ثراء وجدة، وانحنت أمام النوافذ المفتوحة وقالت بصوت عال رفيع ناغم

ـ حسنة لله أيها المسيحيون الأتقياء، حسنة بحق المسيح، رحمة وسلاماعلى أرواح موتاكموغنت ساشا :

حسنة لله أيها المسيحيون الأتقياء، حسنة بحق المسيح، رحمةوسلاماً .

في الخور

كانت قرية أو كلييفو تقع في خور، ولذلك، لم يكن يبدو منها للناظر من الطريق ومن محطة السكة الحديدة سوى برج الكنيسة ومداخن فبارك صباغة الشبت وعندما كان العابرون يسألون أيه قرية هذه يقال لهم :

-إنها تلك القرية التي أكل فيها الشماس في المأتم كل الكافيار .

فذات مرة، أثناء وليمة التأبين عند الصناعى كوستيوكوف، رأى الشماس العجوز بين أطباق المزة كافياراً أسود فراح يلتهمه بشراهة وأخذوا يدفعونه، ويشدونه من كمه، إلا أنه بدا كأنما فقد الإحساس من شدة المتعة، فلم يعد يشعر بشيء، بل مضي يأكل فقط والتهم علبة الكافيار كلها، وكان فيها حوالي أربعة أرطال وقد مضى على ذلك اليوم زمن طويل، ومات الشماس منذ فترة بعيدة، لكن الناس ظلوا يذكرون قصة الكافيار وسواء كانت الحياة هنا فقيرة إلى هذه الدرجة، أم أن الناس لم يكونوا قادرين على ملاحظة أي شيء غير هذه الحادثة التافهة التي وقعت منذ عشرة أعوام، فإنهم لم يرووا أي شيء آخر عن قرية أو كلييفو .

لم تكن الحمى تختفي منها، وحتى في الصيف كان فيها وحل كوحل المستنقعات، خاصة تحت الأسيجة التي تنحني فوقها أشجار الصفصاف العتيقة بظلالها الوارفة وكانت تفوح هنا دائماً رائحة المخلفات الصناعيةوحامض الخل الذي كانوا يستخدمونه في معالجة الشيت الملون ولم تكن الفبارك إلا ثلاث لصباغة الشيت وواحدة للجلود تقع في القرية، بل في طرفها وقريباً منهاكانت هناك فبارك صغيرة،وكان يعمل فيها جميعاً حوالى أربعمائة عامل لا أكثر وبسبب فابريكة الجلود كانت مياه النهر كثيراً ما تصبح نتنة ولوثت المخلفات المرج، فأصيبت ماشية الفلاحين بالقرحة السيبيرية، وصدر أمر بإغلاق الفابريكة واعتبرت مغلقة، لكنها كانت تعمل سراً، بعلموكيل المأمور وطبيب الناحية اللذين كان صاحبها يدفع لكل منهما عشرة روبلات في الشهر ولم يكن في القرية كلها سوى منزلين محترمين، مشيدين من الحجر، وبسقف معدنى كان أحدهما مقراً لإدارة الناحية، وفي الثاني، ذي الطابقين، والمواجه مباشرة للكنيسة.

كان جريجورى يملك دكان بقالة، ولكن ذلك كان ستاراً، أما في الحقيقة فكان يتاجر في الفودكا،والماشية، والجلود، والحبوب، والخنازير كان يتاجر في كل ما يتاح له، وحينما كانوا في الخارج مثلاً، يحتاجون إلى ريش العقعق لقبعات النساء، كان يكسب من كل زوج ثلاثين كوبيكا وكان يشترى الأشجار لتقطيعها خشباً، ويقرض بفائدة، وعموماً كان عجوزاً ماهراًفي الأعمال

وكان لديه ولدان الأبن الأكبر، أنيسيم، كان يعمل في الشرطة، في قسم المباحث، ونادراً ما يأتي إلى البيت أما الابن الأصغر، ستيبان، فسار على درب التجارة، وكان يساعد أباه، وإن لم ينتظروا منه مساعدة حقيقية لأنه كان معتل الصحة وأطرش وكانت زوجته أكسينيا، وهي امرأة جميلة، ممشوقة، ترتدى في الأعياد قبعة وتحمل مظلة، تستيقظ مبكراً وتنام متأخراً، وتركض طول النهار، مشمرة جونيلاتها، وهي تصلصل بالمفاتيح، تارة إلى المخزن، وتارة إلى القبو، وتارة إلى الدكان، فكان العجوز تسيبوكين ينظر إليها بمرح، وتتوقد عيناه، وفي تلك اللحظات كان يأسف أنها ليست متزوجة من ابنه الأكبر، بل من الأصغر، الأطرش،الذي لم يكن، فيما يبدو، يفقه كثيراً في جمال النساء .

كان العجوز ميالاً دوماًإلى الحياة العائلية، فكان يحب أسرته أكثر من أي شيء في الدنيا، وخاصة ابنه الأكبر المخبر وزوجة ابنه الأصغر وما أن تزوجت أكسينيا من الأطرش حتى كشفت عن مهارة عملية فائقة، وأصبحت تعرف من الذي يمكن أن تبيع له بالدين ومن الذي لا يمكن، واحتفظت بالمفاتيح فلم تأتمن عليها حتى زوجها، وكانت تعد على العداد الخشبي، وتفحص أسنان الخيول مثل الفلاحين وطول الوقت تضحك أو تصيح وكلما عملت أو قالت شيئاً كان العجوز ينظر بتأثر ويدمدم:ـ عفارم ياكنة! عفارم ياحلوة

كان أرملاً، ولكن بعد زواج ابنه بسنة، لم يتمالك نفسه فتزوج هو الآخر وجدوا له على بعد ثلاثين فرسخا من أوكلييفو فتاة تدعى فارفارا نيكولايفنا، من أسرة طيبة، تقدمت بها السن ولكنها جميلة، حسنة الهيئة وما أن سكنت الغرفة الصغيرة، في الطابق العلوي، حتى أشرق كل شيء في البيت، كأنما وضع زجاج جديد في جميع النوافذ وسطعت القناديل، وفرشت على الطاولات مفارش بيضاء كالثلج، وظهرت على النوافذ وفي الحديقة أزهار بأكمام حمراء، ولم يعودوا يتناولون الغداء من صحفة واحدة بل وضعت الأطباق أمام كل شخص وكانت فارفارا نيكولايفنا تبتسم برقة ولطف فبدا أن كل ما في البيت يبتسم وأخذ الشحاذون والجوالون والمتعبدات يعرجون على فناء الدار، الأمر الذي لم يحدث أبدا من قبل، وترددت تحت النوافذ أصوات فلاحات أوكلييفو الشاكية الناغمة، وسعال خجل للفلاحين المنهكين المفصولين من الفابريكة بسبب السكر كانت فارفارا تساعدهم بالنقود والخبز والملابس القديمة، وبعد أن ألفت البيت راحت تختلس لهم من الدكان وذات مرة لمحها الأطرش وهي تسرق منالشاى فتملكه الحرج .

وفيما بعد قال لأبيه: - نينة أخذت منى شاى على أي حساب أسجلهما؟ فلم يجب العجوز بشىء، ووقف قليلاً وفكر وهو يلعب حاجبيه، ثم صعد إلى زوجته.وقال لها برقة :يا فارفاروشكا! يا روحى! إذا ما احتجت إلى شيء من الدكان فخذي هخذي كما تشائين ولا تهتمي

وفي اليوم التالي صاح لها الأطرش وهو يجري عبر الفناء - :يا نينة، إذا احتجت لشىء، خذيه !

كانت تتصدق، وكان في ذلك شيء جديد، وشيء مرح وخفيف، كما فيالقناديل والأزهار الحمراء وحينما كانوا ليلة الصيام أو في عيد راعي الكنيسةالذي كان يستمر ثلاثة أيام، يبيعون للفلاحين اللحم المملح العفن ذا الرائحة الفظيعة حتى ليصعب الوقوف بجوار البرميل، ويأخذون من السكارى المناجل والطواقي ومناديل زوجاتهم رهناً، وحينما كان عمال الفبارك يتمرغون في الأوحال وقد أفقدتهم الفودكا السيئة صوابهم، ويبدو أن الحرام قد تكاثف وأصبح معلقاً في الجو كالضباب، عندها يداعب النفس شعور بالراحة من فكرة أن هناك في البيت امرأة هادئة، لطيفة، لا شأن لها لا باللحم المملح ولا بالفودكا كان لصدقاتها في تلك الأيام الممضة المضببة مفعول صمام الأمان في الآلة .

كانت الأيام في منزل تسيبوكين تمضي في المشاغل فقبل أن تبزغ الشمس تتردد زفرات أكسينيا وهي تغتسل في المدخل، بينما يغلى السماور في المطبخ ويئز منذراً بشىء شرير وكان العجوز جريجورى بتروف، وقد ارتدي سترة سوداء طويلة وسروالاً من الشبت، وحذاء عالياً لامعاً، يتجول في الغرف نظيفاً، صغيراً، ويدق بكعبيه كوالد الزوج في الأغنية المعروفة ثم يفتحون الدكان

وعندما ينتشر الضوء يأتون بالعربة إلى درج المدخل فيقفز إليها العجوز بفتوة، ويغمد عمرته الكبيرة حتى أذنيه، فإذا نظرت إليه لا يمكن أنتقولأنه في السادسة والخمسين وتودعه زوجته وكنته. وفي تلك اللحظة، عندما يكون مرتديا سترة جيدة نظيفة، وقد شد إلى العربة حصان أسود ضخم، ثمنه ثلاثمائة روبل، لا يحب العجوز أن يقصده الفلاحون بطلباتهم وشكاواهم كان يمقت الفلاحين ويتقزز منهم، وعندما يرى أحدهم واقفا ينتظربجوار البوابة، يصبح فيه بغضب :

-ما لك واقفاً هناك؟ سر في طريقك! أو يصرخ إذا كان ذلك شحاذاًالله يسهل لك !كان يرحل لقضاء أعماله وكانت زوجته تنظف الغرف أو تساعد في المطبخ، مرتديه ثياباً داكنة ومريلة سوداء وتتاجر أكسينيا في الدكان، وكان يسمع في الفناء رنين الزجاجات والنقود وضحكها أو صياحها وكلمات الزبائن الغاضبة الذين أهانتهم وفي الوقت نفسه كان واضحاً أن التجارة السرية في الفودكا قد بدأت في الدكان وكان الأطرش يجلس أيضاً في الدكان، أو يسير في الشارع بلا طاقية، وقد دس يديه في جيبيه، ويتطلع شارداً إلى الدور أو إلى السماء وكانوا يشربون الشاي في البيت حوالي ست مرات في اليوم، ويجلسون إلى المائدة لتناول الطعام أربع مرات وفي المساء يحسبون الدخل ويسجلونه، ثم يخلدون إلى نوم عميق .

كانت فبارك (مصانع) الشيت الثلاث في أوكليفو، وكذلك بيوت الصناعيين آل خريمين الأكبر وآل خريمين الأصغر و كوستيوكوف مجهزة بالتليفون ومدوا التليفون أيضاً إلى إدارة الناحية ولكنه سرعان ما تعطل هناك إذ عشش فيه البق والصراصير وكان شيخ الناحية ضعيف التعليم، يبدأ كل كلمة في الأوراق الرسمية بحرف كبير، ولكنه قال عندما تعطل التليفون :

-نعم، ستكون أحوالنا أصعب بلا تليفون وكان آل خريمين الأكبر يقاضون دائما آل خريمين الأصغر، وأحياناً كانآل خريمين الأصغر يتشاجرون، هم أيضا، فيما بينهم ويلجأون إلى المحاكم، وعندئذ تتوقف فابريكتهم شهراً وشهرين إلى أن يتصالحوا، وكان ذلك يسلى أهالى أوكلييفو، إذ كان كل شجار يثير الكثير من الأحاديث والقيل والقال وفي أيام الأعياد كان كوستيوكوف وآل خريمين الأصغر ينظمون تزحلقاً بالزحافات، فيمرقون في أوكلييفو ويدوسون العجولوكانت أكسينيا تتنزه في الشارع قرب دكانها، في كامل زينتها وهي تخرخش بجونلاتها المنشاة، فكان آل خريمين الأصغر يلتقطونها ويحملونها معهم كأنما عنوةوفي ذلك الحين كان العجوز تسيبو كين يتزحلق أيضاً لكي يظهر حصانه الجديد، ويصطحب معه فارفارا .

وفي المساء، بعد التزحلق وقبيل النوم، كانوا يعزفون في فناء آل خريمين الأصغر على أكورديون ثمين، وعندما يكون هناك قمر تبعث هذه الألحان القلق والبهجة في القلب، ولا تعود أوكلييفو تبدو كالحفرة .

كان الابن الأكبر أنيسيم لا يأتي إلى البيت إلا نادراً، في الأعياد الكبيرةفقط، ولكنه كان كثيراً ما يرسل مع بلدييه الهدايا والرسائل، المكتوبة بخط شخص غريب، جميل للغاية، وفي كل مرة على فرخ ورق في صورةالتماس وكانت الرسائل ممتلئة بتعبيرات لم يستخدمها أنيسيم أبداً في حديثه :بابا وماما العزيزين أبعث إليكما بر طل من شاي الزهور لتلبية احتياجاتكماالبدنية .

وفي أسفل كل رسالة توقيع مخربش، كأنما كتب بريشة مكسورة: إنيسيمتسيبوكين وتحت هذا كتب بنفس الخط الرائع السابق: المخبر .

كانت الرسائل تقرأ جهراً عدة مرات، فيقول العجوز المتأثر المتضرج منشدةالانفعال - :لم يشأ أن يبقى معنا، وقرر أن يسلك طريق العلم طيب، ليكن كل واحدوله وظيفته .

وذات مرة، قبل أيام المرافع، هطل مطر غزير ببرد، واقترب العجوز وفارفارا من النافذة ليتفرجا، فإذا بهما يريان أنيسيم قادماً من المحطة في زحافة لميكونوا يتوقعون مجيئه أبداً دخل الغرفة قلقاً ومنزعجاً من شيء ما

وظل هكذا طوال فترة بقائه وكان يتصرف بشيء من الاستهتار ولم يتعجل الرحيل، وبدا الأمر وكأنما فصلوه من عمله وكانت فارفارا مسرورة بمجيئه، وكانت تنظر إليه بمكر، وتتنهد وتهز رأسها وتقول :

-يا إلهي، كيف ذلك؟ الشاب أصبح في الثامنة والعشرين وما زال يتسكعأعزب، أوه!، هوه!، هو..

من الغرفة الأخرى كان حديثها الهادئ الخافت يسمع هكذا: أوه!، هوها،

هو وأخذت تتهامس مع العجوز وأكسينيا، فارتسم على وجهيهما أيضاً تعبير ماكر غامض، كما على وجوه المتآمرين .

وقرروا تزويج أنيسيم وقالت فارفاراناأوها، هوه!، هو الأخ الأصغر زوجوه من زمان، وأنت لا تزال بلا شريكة كالديك في السوق في أي شرع هذا؟ أوه هوه، بعد أن تتزوج إن شاء الله، افعل كما تشاء، اذهب إلى العمل، لكن زوجتك ستبقى في البيت، لتساعدنا إنك تعيش بلا ترتيب ياشاب، وقد نسيت كل القواعد كما أرى أوه!، هوه!، هو، ما العمل معكم يا أهل المدينة؟.

عندما كان آل تسيبو كين يتزوجون، كانوا يختارون لهم أجمل العرائس باعتبارهم أغنياء وقد وجدوا لأنيسم أيضاًعروساً جميلة أما أنيسيم نفسه فلم تكن هيئته جذابة، ولا ملفتة فمع بنيانه الضعيف المريض وقامته القصيرة

كان له خدان ممتلئان منتفخان كأنما نفخهما عمداًوعيناه لا تطرفان ونظرته حادة، ولحيته حمراء، خفيفة الشعر، وعندما يستغرق في التفكير كان يدسها في فمه ويعضها وعلاوة على ذلك كان يسكر كثيراً، وبدا ذلك واضحاً على وجهه ومشيته ولكن عندما أخبروه أنهم وجدوا له عروساًجميلة جداً، قال : حسناً، أنا أيضاً لست أحول نحن آل تسيبوكين، كلنا جميلون .

كانت قرية تورجويفو بجوار المدينة مباشرة وقد ضم أحد شطريها مؤخراً إلى المدينة، وظل الشطر الآخر قرية وفي الشطر الأول كانت تعيش إحدى الأرامل، في دار ملكها وكانت لديها أخت،فقيرة تماماً، تعمل في المنازل باليومية وكان لدى هذه الأخت ابنة تدعى ليبا، تعمل أيضاً وكانت الألسنة في تورجويفو تتحدث عن جمال ليبا، لكن الشيء الوحيد الذي كان يثير حرج الجميع هو فقرها المدقع وكانوا يقولون إنه ربما تزوجها كهل أو أرمل غير عابئ بفقرها، أو ربما أخذها لنفسه وهكذا، وعندئذ تعيش أمها معها فتجد لقمة العيش وعلمت فارفارا عن ليبا من الخاطبات فسافرت إلى تورجويفو .

ثم أقيم في بيت الخالة حفل عرض، حسب الأصول، بطعام وشراب، وكانت ليبا في فستان وردى جديد، حاكته خصيصاً لحفل العرض، وتوهج في شعرها شريط أحمر كالنار كانت نحيلة، ضعيفة، شاحبة، وقسماتها دقيقة رقيقة، سمراء من العمل في الهواء الطلق ولم تفارق وجهها ابتسامة حزينة وجلة، وأطلت من عينيها نظرة أطفال، بريئة وفضولية

كانت صبية، طفلة بعد، بصدر لا يكاد يبين، ولكن كان بوسعها أن تتزوج، إذ بلغت السن القانونية وكانت جميلة بالفعل، ولكن كان فيها شيء واحد ربما لا يحوز الإعجاب :بداها الكبيرتان الرجاليتان، اللتان كانتا تتدليان الآن بلا عمل مثل مخلبين طويلين .

وقال العجوز للخالة ليس لديكم مال، ونحن لن نشغل البال لقد أخذنا لابننا ستيبان عروساً من أسرة فقيرة أيضاً، وهي الآن موضع فخرنا وسواء في الدار أم في العمل فلها يدان من الذهب .

كانت ليبا واقفة بجوار الباب وكأنما تريد أن تقول: اصنعوا بى ماتريدون، أنا أثق بكم، أما أمها، براسكوفيا، فاختبأت في المطبخ وقد تجمدت من الوجل.في زمن ما وأيام شبابها، غضب منها تاجر كانت تمسح الأرضية لديه، فدق الأرض بقدميه ثائراً فيها فارتعبت بشدة واعتراها الذهول، وبقي الخوف في نفسها طوال العمر ومن الخوف كانت يداها وساقاها ترتعش دائماً، وكذلك خداها جلست في المطبخ وهي تحاول أن تتسمع ما يقوله الضيوف، وترسم طوال الوقت علامة الصليب وهي تلصق أصابعها بجبهتها وتنظر إلى الأيقونة وشد إنيسيم، الذي ثمل قليلاً، باب المطبخ وقال باستهتار :

-لماذا تجلسين هنا يا نينة الغالية؟ نحن نشعر بالوحشة بدونك

أما براسكوفيا التي اشتد وجلها فقد أجابته وهي تضغط بيديها على صدرها الهزيل النحيل :

-ماذا تقول، العفو العفو بارك الله فيكم .

وبعد العرض حددوا يوم الزفاف وعندما عادوا إلى البيت راح إنيسيم يجوس بالغرف مصفراً، أو يتذكر فجأة شيئاً ما فيستغرق في التفكير، محدقاً في الأرض بنظرة جامدة ثاقبة، كأنما كان يريد بنظرته أن ينفذ عميقاً في الأرض ولم يعرب لا عن رضاه بأنه سيتزوج، سيتزوج قريباً، وفي نهاية عيد الفصح، ولا عن رغبته في رؤية عروسه، بل كان بصفر فقط وكان واضحاً أنه لا يتزوج إلا لأن تلك كانت رغبة أبيه وزوجة أبيه، ولأن العادة جرت هكذا في الريف: أن يتزوج الابن لكي يأتي إلى البيت بمساعدة وعندما استعد للرحيل لم يتعجل، وعموماً كانت تصرفاته لا تشبه تصرفاته السابقة .. كان مستهتراً بشدة، ولم يكن يتحدث كما ينبغي.

كانت تعيش في قرية شبكالوفا خياطتان شقيقتان، من طائفة الخليست.

وقد أوصيتا بتجهيز ثياب جديدة بمناسبة العرس، فجاءتا لقياس الملابس، وظلتا طويلاً تشربان الشاى حاكتالفارفارا فستاناًبنياً بدانتيلا سوداء وخرزات زجاجية، وحاكتالأكسينيا فستاناً أخضر فاتحاً، بصدر أصفر وذيل طويل

وبعد أن أنهت الخياطتان عملهما لم يدفع لهما تسيبوكين أجرهما نقداً بل سلعاً من دكانه، فانصرفتا من عنده حزينتين، وفي أيديهما صرر بها شموع وسردين ليستا بحاجة إليها أبداً، وحينما غادرتا القرية وأصبحتا في الحقل، جلستا على تلة صغيرة وراحتا تبكيان .

وجاء أنيسيم قبل العرس بثلاثة أيام، وكان كل ما عليه جديداً كان ينتعل خفاً لامعاً من المطاط، ويضع بدلاً من رابطة العنق خيطاً أحمر بكريات، وعلى كتفيه تدلى معطف وكان أيضاً جديداً .

وصلى بوقار ثم سلم على أبيه وأعطاه عشرة روبلات فضية وعشر قطع من فئة النصفروبل وأعطى لفارفارا نفس المبلغ، ولأكسينيا عشرين قطعة من فئة الربع روبل وكان أروع ما في هذه الهدايا أن جميع القطع النقدية كانت جديدة كلها وتلمع في الشمس ولكي يظهر أنيسيم وقوراً وجاداً شد عضلات وجهه ونفخ شدقيه، وفاحت منه رائحة الخمر، إذ يبدو أنه كان يخرج من العربة في كل محطة ويشرب في البوفيه ومن جديد كان فيه نوع من الاستهتار وشيء زائد وفيما بعد شرب أنيسيم والعجوز الشاي وأكلا، أما فارفارا فراحت تقلب الروبلات الجديدة في يديها وتسأل عن بلديهم القاطنين في المدينة .

وقال أنيسيم :لا بأس، يعيشون بخير والحمد لله ولكن وقعت لإيفان يجوروف حادثة في حياته العائلية ماتت عجوزه صوفيا نيكيفر وفنا، بالسل أوصوا على غداءالتأبين عند الحلوانى، بروبلين ونصف للشخص وكان هناك خمر عنب. وحتى القاء غداء الفلاحين - بلدينا دفعوا أيضاً روبلين ونصف للشخص. ولكنهم لم يأكلوا شيئا. وهل يفقه الفلاح في المأكولات المرفهة !

فقال العجوز وهو يهز رأسه -:روبلان ونصف!ولم لا؟ هناك مدينة لا قرية تدخل المطعم لتأكل، فتطلب هذا وذاك،وتجتمع الشلة، فتشرب، وإذا بالفجر حل، وتفضل، ادفع ثلاثة أو أربعة روبلات للشخص أما مع ساموردوف، فإنه يحب بعد كل ذلك أن يشرب القهوة بالكونياك، وكأس الكونياك وحده بستين كوبيكا .

فدمدم العجوز معجبا: - يا له من كذاب !يا له من كذاب !

-أنا الآن مع ساموردوف دائماً إنه هو الذي يكتب لكم رسائلى رائع في الكتابة، واستطرد أنيسيم يقول بمرح لفارفارا -لو حكيت لك يا نينة أي رجل ساموردوف هذا لما صدقت إننا جميعا ندعوه مختارأنه أسود تماماً، مثل الأرمن إنني أعرف خباياه، أعرف كل أعماله كمعرفتي لأصابعي الخمس، وهو يشعر بذلك يا نينة ولهذا يسير دائماً ورائي ولا يتركنى، ولا يفرقنا الآن شيء.

ويبدو أنه يشعر بالرهبة مني، ولكنه لا يستطيع العيش بدوني أينما ذهبت ذهب ورائى إن لى يا نينة عينا صائبة صادقة عندما أكون في السوق أنظر، فإذا فلاح يبيع قميصاً قف! القميص مسروق! وبالفعل، يتضح أن القميص مسروق .

فسألت فارفارا :وكيف تعرف؟ .

هكذا، عينى هكذا أنا لا أعرف ما هذا القميص ولكني أجد نفسيلسبب ما مشدوداً نحوه: قميص مسروق وانتهى الأمر عندنا في قسم المباحثيقولون: ذهب أنيسيم لاصطياد دجاج الغابة ومعنى ذلك: ذهب للبحث عن المسروقات نعم كل واحد يستطيع أن يسرق ولكن كيف تخبي المسروق! الأرض واسعة ولكن لا مكان تخبئ المسروق فيه !.

-في قريتنا سرقوا من آل جونتوريف في الأسبوع الماضي خروفا ونعجتين.

قالت فارفارا ثم تنهدت ـ وليس هناك من يبحث عنها أوههوه هولم؟ البحث ممكن بسيط، ممكن .

وحل يوم الزفاف كان يوماً بارداً من شهر أبريل ولكنه صحو وبهيج ومنذ الصباح الباكر أخذت عربات الترويكا وعربات الجوادين المزينة بالأشرطة الملونة على أقواسها وأعراف خيولها تطوف بأوكلييفو

وهي تصلصل بأجراسها وصاحت الغربان في أشجار الصفصاف وقد أزعجها مرور العربات، وصدحت الزرازير بلا توقف وبإجهاد، وكأنما أسعدها أن لدى آل تسيبوكين عربات .

وفي المنزل مدت على الطاولات الأسماك الطويلة ولحم فخذ الخنزير والطيور المحشوة وعلب السردين وشتى المملحات والمخللات وعدد كبير من زجاجات الفودكا والخمر، وفاحت رائحة السجق المدخن والكركند البحري الفاسد وكان العجوز يتمشى بجوار الموائد وهو يدق بكعبيه ويشحذه سكينا بسكين وكانوا ينادون على فارفارا كل حين طالبين منها شيئاً ما فتركض شاردة لاهثة إلى المطبخ حيث يعمل منذ الفجر طاه من عند آل كوستيوكوف وطاهية ماهرة من عند آل خريمين الأصغروكانت أكسينيا تركض في الفناء كالأعصار، مجعدة الشعر، بدون فستان بل في الكورسيه فقط، وفي حذاء جديد ذى صرير، فلا تلمح منها سوى ركبتيها العاريتين وصدرها العاري. وعلا الضجيج وتردد السباب والأيمان، وتوقف المارة أمام البوابة المفتوحة على مصراعيها، وبدا محسوساً في الجو كله أنه سوف يحدث شيء غير عادي .

ذهبوا لإحضار العروس !ودوت الأجراس ثم صمتت بعيداً خلف القرية وفي الساعة الثالثة ركض الناس،فقد ترددت الأجراس ثانية، لقد أحضروا العروس ! كانت الكنيسة غاصة، واشتعلت ثريا الكنيسة

وغنى المنشدون على النوت الموسيقية حسب رغبة العجوز تسيبوكين وبهر بريق الأضواء والفساتين الساطعة عيني ليبا، وخيل إليها أن المنشدين يدقون بأصواتهم العالية كالمطارق على رأسها وضغط عليها الكورسيه، الذي ارتدته لأول مرة في حياتها،وكذلك الحذاء، وارتسم على وجهها تعبير، كأنما أفاقت لتوها من إغماءة كانت تحدق ولا تفهم أما أنيسيم، الذي كان في حلة سوداء وخيط أحمر بدلاً من رباط العنق، فقد استغرق في التفكير وهو يحدق في نقطة واحدة، وعندما يصرخ المنشدون عالياً كان يرسم علامة الصليب بسرعة كان يشعر بالتأثر وبالرغبة في البكاء. كانت هذه الكنيسة مألوفة لديه منذ الصغر ففي وقت ما جاءت به أمه لمناولته، وفي وقت ما غنى مع الصبيان في جوقة المنشدين إنه يذكر جيداً كل ركن هنا وكل أيقونة وها هم أولاء يزفونه، هاهم يزوجونه كما تقتضي الأصول، ولكنه لم يعد يفكر في ذلك أو يذكر بل نسي العرس تماماً كانت دموعه تعوقه عن تأمل الأيقونات، وثمة شيء كان يضغط على قلبه راح يصلي ويدعو الله أن يجنبه المصائب المحتومة المتأهبة للانقضاض عليه اليوم أو غداً، أن تتخطاه بصورة ما كما تتخطى العواصف الممطرة القرية في وقت الجفاف دون أن تلقى إليها بقطرة مطر واحدة وما أكثر الذنوب التي ارتكبت في الماضي،ما أكثر الذنوب، وما أعمق التردي والتخبط حتى ليبدو طلب الغفران غير مناسب لكنه طلب الغفران بل أفلتت منه شهقة عالية، إلا أنأحداً لم يلتفت إلى ذلك،إذ ظنوا أنه سكران

وتردد بكاء طفل مضطربخذيني من هنا يا أمي يا حبيبتي! فصاح القس : صمتاًهناك! عند عودتهم من الكنيسة جرى الناس خلف موكب العرس وبجوار الدكان،وحول البوابة وفي الفناء تحت النوافذ تجمهر حشد وجاءت المادحات لتحية العروسين وما أن عبر العروسان العتبة حتى رفع المغنون عقيرتهم بالغناء وكانوا واقفين في المدخل مع نوتهم الموسيقية، وعزفت الفرقة الموسيقية المستأجرة خصيصاً من المدينة وحملوا خمر الدون الفوارة في كؤوس طويلة، وقال المقاول النجار بليزاروف، وهو عجوز طويل نحيف، بحاجبين غزيرين حتى لا تكاد عيناه تظهران، مخاطباً العروسين :

-أنت يا أنيسيم وأنت يا بنيتى، تحابا، عيشا يا أبنائي بما يرضي الله، وسترعاكما السيدة العذراء ومال على كتف العجوز وانتحب يا جوجورى بتروف، هيا نبكى، لنبك من السعادة قال بصوت رفيع وعلى الفور قهقه فجأة واستطرد بصوت عال غليظ: هاهاها! وهذه العروس أيضاً حلوة! كل شيء فيها، يعني، في محله، كل شيء فيها ناعم، لن يقرقع، كل عددها سليمة مضبوطة، والبراغي كثيرة .

كان أصله من إقليم يجوريفسك، ولكنه عمل منذ الصبا في فبارك أو كليبفو وفي الإقليم واستقر هنا وعرفوه منذ زمن طويل عجوزاً هكذاً ونحيفاً وطويلاًعلى هذا النحو، ومنذ زمن طويل سموه بالعكاز وربما لأنه ظل يعمل في الفبارك أكثر من أربعين عاماً في تصليح الآلات فقط

لذلك كان يحكم على كل إنسان أو جماد من زاوية متانته فحسب: ألا يحتاج إلى تصليح؟ وقبل أن يجلس إلى المائدة جرب عدة مقاعد، هل هي متينة، وجس السمك المملح أيضاً .

بعد تناول الخمر الفوارة بدأوا يجلسون وأخذ الضيوف يتحدثون ويحركون المقاعد وفي المدخل غنى المغنون وعزفت الموسيقى، وفي تلك الأثناء غنت المادحات في الفناء بصوت واحد، وتعالى خليط أصوات فظيع رهيب يصدع الرؤوس كان العكاز يتلوى على مقعده ويدفع جيرانه بمرفقيه ويشوش على الكلام، وتارة يبكى وتارة يقهقة .

ودمدم بسرعة - :يا أبنائى، يا أبنائى، يا أبنائى أكسينيوشكا يا عزيزتى، يا فارفاروشكاسنعيش جميعاً في وئام وسلام، يا فؤوسي الغالية ..

كان قليلاً ما يشرب فسكر الآن من كأس فودكا إنجليزية واحدة أدارت هذه الفودكا الفظيعة، التي لا يعرف من أي شيء صنعت، رؤوس كل من شربها كأنما أهوت عليها بضربة وتلعثمت الألسنة .

حضر الحفل رجال الدين والوكلاء في الفبارك مع زوجاتهم، والتجار، وأصحاب الحانات من القرى الأخرى وجلس شيخ الناحية وكاتب الناحية اللذان يعملان معاً منذ أربعة عشر عاماً ولميوقعا طوال هذه المدة ورقة واحدة

ولم يتركا أحداً يخرج من مقر إدارة الناحية دون أن يخدعاه ويهيناه، جلسا الآن متجاورين، كلاهما بدينان، شبعانان، وبدا أنهما تشبعا بالكذب إلى درجة أن بشرة وجهيهما كانت من طينة خاصة، بشرة نصابة وجاءت زوجة الكاتب، وكانت امرأة هزيلة، حولاء، بجميع أولادها معها، وأخذت تنظر شزراً، كالطير الجارح، إلى الأطباق وتخطف كل ما تقع عليه يدها، وتدسه في جيوبها وجيوب الأطفال .جلست ليبا جامدة، بنفس التعبير الذي ارتسم على وجهها في الكنيسةومنذ أن تعرف بها أنيسيم لم يتبادل معها كلمة واحدة، حتى إنه لم يعرف إلى الآن ما صوتها وقد جلس الآن بجوارها صامتاً أيضاً، يشرب الفودكا الإنجليزية، وعندما ثمل تحدث مخاطباً خالتها الجالسة قبالته :

لدى صديق اسمه ساموروودوف رجل مخصوص مواطن فخرى خاص ويستطيع أن يتحدث ولكني يا خالة أعرف خباياه، وهو يشعر بذلك اسمحيلى أن أشرب معك في صحة ساموروودوف يا خالة !.

ودارت فارفارا حول الموائد وهي تضيف المدعوين مرهقة، شاردة وكانت فيما يبدو سعيدة لكثرة المأكولات وفخامة المائدة، إذن فلن يعتب أحد الآن وغربت الشمس ولكن الغداء استمر، ولم يعد أحد يدرك ماذا يأكل أويشرب، ولم يعد مسموعاً ماذا يقال وأحياناً، وفقط عندما تصمت الموسيقى، كان يسمع بوضوح صوت امرأة تصيح في الفناء مصوا دماءنا الملاعين، فلتبلعكم جهنم.

وفي المساء رقصوا بمصاحبة الموسيقى وجاء آل خريمين الأصغر بخمورهم، ورقص أحدهم الكادريل ممسكاً في كل يد بزجاجة وبكأس في فمه فأضحك ذلك الجميع وفي أثناء رقصة الكادريل بدأوا فجأة يرقصونقرفصاء وكانت أكسينيا الخضراء تمرق فقط فتثير الهواء بذيل فستانها وداس أحد ما على كورنيش ذيلها الأسفل فصاح العكاز :

-هيه، خلعوا لك الأفريز! يا أبنائى !

كانت عينا أكسينيا رماديتين، ساذجتين، نادراً ما تطرفان، وارتسمت على وجهها دائماً ابتسامة ساذجة وكان في هاتين العينين اللتين لا تطرفان، وفي رأسها الصغير فوق عنقها الطويل، وفي قدها الرشيق كله ثمة شيء ثعبانى كانت تنظر، بجسمها الأخضر وصدرها الأصغر وابتسامتها، كما تنظر الأفعى في حقل الجودار الفتى في الربيع إلى شخص عابر ،وقد تمددت ورفعت رأسها وكان الإخوة خريمين يعاملونها بلا تحفظ، وظهر واضحاً تماماً أنها على علاقة غرامية بأخيهم الأكبر منذ فترة طويلة ولكن الأطرش لم يفهم شيئاً ولم ينظر إليها كان جالساً، وقد وضع ساقاً على ساق، يأكل الجوزويكسره بفرقعة عالية، حتى بدا كأنه يطلق النار من مسدس

وها هو ذا العجوز تسيبو كين نفسه يخرج إلى وسط الحلبة ويلوح بمنديله مشيراً إلى أنه هو أيضاً يريد أن يرقص الرقصة الروسية، فانداح في المنزل كله وفي الفناء وسط الحشد هدير استحسان :هو ذاته خرج! ذاته.

فارفارا هي التي رقصت، أما العجوز فكان يلوح بالمنديل فحسب ويحرك كعبيه، ولكن أولئك الذين جثم بعضهم فوق بعض في الفناء وهم يطلون فيالنوافذ كانوا في غاية الإعجاب، وللحظة غفروا له كل شيء: ثراءه وإهاناته لهم .

وسمعت أصوات في الحشد :

جدع يا جريجورى بتروف! هكذا، اجتهد! إذن فما زلت قادر أَبعد! هاها !
وانتهى كل ذلك في وقت متأخر، والساعة تدور في الثانية ومر أنيسيم على المنشدين والعازفين مودعاً وهو يترنح وأهدى كلاً منهم نصف روبل جديداً أما العجوز فلم يكن يترنح، ولكنه كان يخطو على ساق واحدة وهو يودع الضيوف ويقول لكل منهم :

-العرس تكلف ألفين .

وبينما كانوا ينصرفون أخذ شخص ما معطف صاحب حانة شيكالوفوالجديد وترك له معطفه القديم فانفجر أنيسيم فجأة وراح يصرخ :

.قف! سأجده حالاً أنا أعرف من سرق قفواندفع إلى الخارج وطارد شخصاً ما ولكنهم امسكوا به واقتادوه من إبطيه إلى المنزل ودفعوه ثملاً، متضرجاً من الغضب، مبللاً، إلى الغرفة التي كانت الخالة تنزع فيها الثياب عن ليبا، وأوصدوا الباب

مرت خمسة أيام وصعد أنيسيم، الذي كان يستعد للسفر، إلى غرفة فارفارا لكي يودعها كانت جميع القناديل لديها مشتعلة، وفاحت رائحة البخور، أما هي فكانت جالسة بجوار النافذة تحوك جورباً من صوف أحمروقالت :لم تبق معنا كثيراً تراك مللت؟ أوه هوههو إننا نعيش عيشة طيبة،كل شيء لدينا كثير، وأقمنا عرسك كما يجب، مضبوط قال العجوز تكلف ألفين وباختصار نعيش كالتجار لكن الحياة مملة عندنا وكم نؤذي الناس قلبي يؤلمني يا صاحبي، من أذيتنا للناس، يا إلهي! وسواء استبدلنا حصانًاً، أو اشترينا شيئاً، أو استأجرنا عاملاً فكله قائم على الخداع الخداع ثم الخداع الزيت في الدكان مر، عطن، حتى القطران عند الناس أفضل منه هلا قلت لى من فضلك، ألا يمكن أن نبيع زيتاً جيداً؟.

-كل واحد وله وظيفته يا نينة ولكن الموت قريب! آه، آه ! هلا تحدثت مع أبيك - !هلا تحدثت أنت معه .

طيب، طيب أقول له ذلك فيجيبنى مثلما تقول بالحرف: كل واحد وله وظيفته أتظن أنهم سيبحثون يوم القيامة في وظيفة كل واحد؟ إن حساب الله عادل .

-بالطبع لن يبحث أحد في شيء قال أنيسيم وتنهد الله على أي حال غيرموجود يا نينة فأى بحث إذن !.

تطلعت إليه فارفارا بدهشة، ثم ضحكت وأشاحت بيديها ولأنها أبدتهذه الدهشة الصادقة من كلماته وتطلعت إليه وكأنه شاذ الأطوار، فقد أحس بالخجل .

وقال :ربما كان الله موجوداً، ولكن ليس هناك إيمان عندما كللوني في الكنيسة تملكني انقباض شديد مثلما تمد يدك أحياناً لتأخذ بيضة من تحت الدجاجة فإذا فيها كتكوت يصيح، هكذا صاح ضميرى فجأة، وطوال فترة التكليل كنت أفكر: الله موجود! ثم خرجت من الكنيسة وإذا لا شيء ومن أين لي أن أعرف هل الله موجود أو لا؟ علمونا غير ذلك منذ الصغر الصغير وهولايزال يرضع أمه يعلمونه شيئاً واحداً: كل واحد وله وظيفته أبي أيضاً لا يؤمن بالله لقد قلت لى ذات مرة أنهم سرقوا خرفان آل جونتوريف لقد وجدت السارق سرقها فلاح من شيكالوفو الفلاح سرقها أما جلودها فعند أبي أرأيت إذن الإيمان !.

غمز أنيسيم بعينه وهز رأسه ومضى يقول :وشيخ الناحية أيضاً لا يؤمن بالله، والكاتب أيضاً، والشماس أيضاً وإذاكانوا يترددون على الكنيسة ويصومون فما ذلك إلا لكي لا يقول عليهم الناس بسوء، وتحوطاً، إذ ربما يأتي حقاً يوم الحساب والآن يقال إن يوم القيامة قد جاء لأن الناس ضعفوا ولا يحترمون آباءهم وخلافه هذا كلام فارغ أما أنا، يا نينة، فأرى أن البلوى كلها سببها قلة الضمير عند الناس

أنا أرى خبايا الأمور، يا نينة، وأفهم إذا كان الشخص يرتدي قميصاً مسروقاً، أرى ذلك يجلس الشخص في الحانة فيخيل إليك أنه يشرب الشاي فقط،أما أنا فأرى غير الشاي، إنه عديم الضمير وهكذا تسير طوال اليوم فلا ترى إنساناً ذا ضمير والسبب كله أنهم لا يعرفون هل الله موجود أو لا حسناً يا نينة، الوداع عيشى طويلاً وفي عافية ولا تذكرينى بسوء .

وانحنى أنيسيم لفارفارا حتى الأرض وقال :

-نشكرك على كل شيء أنت تعودين على أسرتنا بفائدة كبيرة أنت امرأة محترمة جداً أنا ممتن لك كثيراًوخرج أنيسيم المتأثر، ولكنه عاد ثانية وقال :

لقد ورطني ساموردوف في أحد الأعمال، فإما أن أصبح غنياً وإما أنأهلك فإذا حدث لي شيء فأرجوك يا نينة أن تعزي أبي .

-لا تقل ذلك! ما هذا؟ أوه!، هوه!، هو رحمة الله عليك ولكن هلا لاطفت زوجتك يا أنيسيم، أوه!، هو، فإني أراكما دائماً عابسين حقاً، اضحكا مرة على الأقل .

فقال أنيسيم متنهداً: - نعم، إنها غريبة لا تفهم شيئاً وتصمت طول الوقت ما زالت صغيرةجداً، فلتكبر .إلى جوار الدرج كان يقف مهر عال، شبعان، أبيض،مشدود إلى العربة .

وركض العجوز تسيبو كين وقفز بفترة وأمسك باللجام وتبادل أنيسيم القبلات مع فارفارا وأكسينيا وأخيه وعلى الدرج وقفت ليبا أيضاً، وقفت جامدة، تحدق جانباً، كأنما لم تخرج للوداع بل هكذا لسبب غير معروف اقترب منها أنيسيم ومس بشفتيه خدها ما خفيفاً وقال - :وداعاً .فابتسمت ابتسامة غريبة دون أن تنظر إليه وارتعش وجهها، ولسبب ماأحس الجميع بالرثاء لها وقفز أنيسيم أيضاً إلى العربة وذراعه في خصره إذ كان يعتبر نفسه جميلاً .

حين صعدا من الخور إلى أعلى كان أنيسيم يتلفت إلى الوراء، إلى القرية كان يوماً دافئاً صحواً ولأول مرة بعد الشتاء أخرجوا الماشية من الحظائر، فسارت الفتيات والنساء بجوار القطيع مرتديات ثياب العيد وخار ثور بنى فرحاً بالحرية وحفر الأرض بقائمتيه الأماميتين وفي كل مكان، في الأعلى وفي الأسفل، صدحت القبرات وتطلع أنيسيم إلى الكنيسة الممشوقة البيضاء فقد بيضوها حديثا وتذكر كيف صلي فيها منذ خمسة أيام وتطلع إلى المدرسة ذات السطح الأخضر، وإلى النهر، الذي سبح فيه في وقت ما واصطاد السمك، فتحركت الفرحة في قلبه، وودلو برز حائط من سطح الأرض فجأة ومنعه من المضي قدماً، فبقى مع الماضي وحده .

في المحطة ذهباً إلى البوفيه وشرب كل منهما كأس خيريس ومد العجوز يده في جيبه ليخرج المحفظة كي يدفع الحساب .

فقال أنيسيم - :أنت ضيفي! فربت العجوز على كتفه بتأثر وغمز بعينه لعامل البوفيه: انظر أي ابن لدوقال له :

لو بقيت يا أنيسيم لدينا تمارس عملنا لما كان لك نظير ! ولأغرقتك ذهبامن رأسك إلى قدميك .

مستحيل يا أبت .

كان النبيذ حامضاً قليلاً وفاحت منه رائحة شمع التغليف، ولكنهما شرباكأساً أخرى .

عندما عاد العجوز من المحطة لم يتعرف للوهلة الأولى على كنته الصغرى .

فما إن رحل أنيسيم عن الفناء حتى تغيرت ليبا، وأصبحت فجأة مرحة كانت تغسل درج المدخل، حافية، في جونيلة قديمة، مشمرة عن ساعديها، وهي تغني بصوت فضي رفيع، وعندما حملت وعاء الماء القذر الكبير إلى الخارج ونظرت إلى الشمس وهي تبتسم ابتسامتها الطفولية بدا وكأنها هي أيضاً قبرة .

وهز عامل عجوز كان ماراً بجوار الدرج رأسه وتنحنح

وقال - :يا لهن من كنات رزقك الله بهن يا جريجورى بتروف! لسن نساء بلكنوزاً حقيقية.

في الثامن من يوليو، يوم الجمعة، كان بليزاروف، الشهير بالعكاز، وليبا عائدين من قرية كازانسكويه، التي ذهبا إليها للزيارة بمناسبة عيد راعية المعبدعذراء كازانوعلى مسافة بعيدة خلفهما سارت براسكوفيا، أم ليبا، التي كانت تتخلف دائماً لمرضها ولهاثها كان الوقت يقترب من المساء .

وقال العكاز بدهشة وهو يستمع إلى ليبا :آه. !آه وبعدين؟ فمضت ليبا تقول :

-إنني يا إيليا مكاريتش أحب المربى جداً أجلس وحدي في الركن وأظل أشرب الشاي بالمربي أو أشرب مع فارفارا نيكولايفنا وهي تحكى لى شيئاً مؤثراًعندها مربى كثيرة، أربعة برطمانات تقول لى: كلى يا ليبا ولا يهمك .

- آه! أربعة برطمانات !

-يعيشون في رغد شاى بالخبز الأبيض ولحم البقر أيضاً بقدر ما تريد .

يعيشون في رغد، ولكن الحياة مخيفة بينهم يا أيليا مكاريتش، مخيفة جدا !

-ما الذي يخيفك يا بنيتى؟ - سأل العكاز ونظر إلى الوراء ليرى هل تخلفت براسكوفيا كثيراً .

-في البداية، بعد حفلة العرس، خفت من أنيسيم جريجوريتش لم يفعل بي شيئاً، لم يؤذنى، ولكن ما إن يقترب مني حتى يقشعر جلدى، وعظامي كلها تقشعرلم أنم ليلة واحدة، كنت طوال الوقت أرتعش وأصلى للرب والآن أخاف من أكسينيا يا إيليا مكاريتش لم تفعل بي شيئاً، فقط تضحك مني، ولكن أحياناً تطل من النافذة، وعيناها غاضبتان، خضراوان تلمعان، كعيني النعجة في المعلف آل خريمين الأصغر يغرونها يقولون لهاعند عجوز كم قطعة أرض في بوتيوكينو، حوالي أربعين ديساتينا، فيها رمل وماء، هيا يا أكسيوشا ابني لك مصنع طوب وسنشاركك فيه الطوب الآن الألف بعشرين روبلاً عمل رائج وبالأمس قالت أكسنيا للعجوز أثناء الغداء: أنا أريد أن أبني مصنعطوب في بوتيوكينو، أريد أن أصبح تاجرة مستقلة قالت ذلك وضحكتأما جريجورى بتروفتش فقد أربد وجهه، يبدو أن ذلك لم يعجبه وقال لها :

طالما أنا حى فلا يصح أن نفترق، ينبغي أن نكون معاً فلمعت عيناها كالبرق، وصرت أسنانهاوعندما قدموا الرقيق المقليلم تأكل.

.آهدهش العكاز - لم تأكل! فاستطردت ليبا - :وهل تقول لى لو تكرمت متى تنام! تنام نصف ساعة ثم تقفز ناهضة، وتروح وتجيء،وتتلصص: ألم يحرق الفلاحون شيئاً؟ ألم يسرقوا شيئاً العيشة معها رهيبة يا إيليا مكاريتش! أما آل خريمين الأصغر فلم يناموا بعد العرس، بل ذهبوا إلى المدينة ليتقاضوا والناس يثرثرون بأن ذلك من تحت رأس أكسينيا اثنان من الإخوة وعداها ببناء المصنع، ولكن الثالث غضب والفابريكة توقفت شهراً، وخالبروخور، المتعطل عن العمل، كان يجمع الفتات من الأفنية أقول له هلا ذهبت يا خالى فحرثت الأرض أو قطعت الحطب مؤقتاً، لا داعي للفضيحةفيقول لي: بعدت أنا عن العمل الفلاحي، لم أعد أجيد شيئاًيا لينكا..

وتوقفا بجوار غيضة حور رجراج فتي ليستريحا وينتظرا براسكوفيا كان بليزاروف مقاولاً منذ زمن طويل، ولكن لم يكن لديه حصان فكان يجوب الإقليم سيراً على الأقدام وليس معه إلا كيس فيه خبز وبصل فكان يسير بخطوات واسعة ويلوح بذراعيه وكان من الصعب مجاراته في السير .

عند مدخل الغيضة انتصب عمود حدود الأراضى فتحسسه بليزاروفليختبر متانته وجاءت براسكوفيا وهي تلهث وتهلل بالسعادة وجهها المغضن، المذعور دوماً: لقد كانت اليوم في الكنيسة مثل الناس، ثم ذهبت إلى السوق، وشربت هناك منقوع الكمثرى!

كان نادراً ما يقع لها ذلك حتى إنه خيل إليها الآن أنها تستمتع بحياتها لأول مرة هذا اليوم ونهضوا ثلاثتهم بعد أن استراحوا وساروا متجاورين كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، وتسللت أشعتها عبر الغيضة وأضاءت جذوع الأشجار وفي الأمام ترددت أصوات داوية كانت فتيات أو كلييفو قد سبقن منذ وقت طويل ولكنهن توقفن هنا في الغيضة، يبدو لجمع الفطر .

وصاح بليزاروفهيه يا بنات !هيه يا حلوات! وسمعواضحكًا: - العكاز قادم! العكاز! الشيطان العجوز.

وضحك الصدى أيضاً وها هي ذي الغيضة قد أصبحت خلفهم وظهرت قمم مداخن الفبارك، ولمع الصليب على برج الكنيسة كانت تلك هي القرية،نفس القرية التي أكل فيها الشماس في المأتم كل الكافيار هاهم أولاء قد وصلوا تقريباً لم يبق إلا النزول إلى ذلك الخور الكبير جلست ليبا وبراسكوفيا، اللتان كانتا تسيران حافيتين، على العشب لارتداء الأحذية وجلس معهما المقاول ولو نظرت من أعلى لبدت أو كلييفو بصفصافها وكنيستها البيضاء ونهرها جميلة هادئة لا يفسدها إلا أسقف الفبارك المطلية بلون قاتم فظيع من باب التوفير وعلى الجانب الآخر، عند المنحدر ظهر الجودار أكواماً وأجراناً هنا وهناك، وكأنما بعثرته العاصفة،وكذلك الجودار المحصود لتوه صفوفاً ونضج الشوفان أيضاً

فأصبح الآن يتموج بالألوان في ضوء الشمس كالصدف كان أوان موسم الحصاد اليوم عيد، وغداً، السبت سيجمعون الجودار وينقلون الدريس، وبعد ذلك الأحد، سيكون عيد مرةأخرى كان الرعد البعيد يقرقع كل يوم، وكان الجو حاراً رطباً، وبدا أن المطر سيسقط، وكان كل من ينظر إلى الحقل الآن يفكر في أن يهبهم الله الفرصة لجمع المحصول، وكانت النفوس مبتهجة فرحة بل وقلقة .

وقالت براسكوفيا - :الحصادون الآن أسعارهم عالية بروبل وأربعين كوبيكا في اليوم؟ .

وكان الناس يتقاطرون بلا انقطاع قادمين من سوق كازانسكريه نساء، وعمال مصانع في عمرات جديدة، وشحاذون وأطفال وتارة تمر عربة مثيرة الغبار، ومن خلفها يجري حصان لم يبع وكأنه سعيد لأنهم لم يبيعوه، وتارة يسحبون بقرة من قرونها، بينما تحرن، وتارة عربة أخرى وفيها فلاحون سكارى يدلون منها سيقانهم وقادت امرأة عجوز صبياً في طاقية كبيرة وحذاء كبير وكان الصبي مرهقاً من الحر والحذاء الثقيل الذي كان يمنع ساقيه من الانثناء عند الركبتين، ولكنه سار، وهو ينفخ بكل قواه ودون انقطاع في بوق صغير وهبطوا إلى أسفل وانعطفوا إلى الشارع بينما كان صوت البوق لا يزال مسموعاً .

وقال بليزاروف :

ـ صناعونا ثائرون لسبب ما يا للمصيبة! غضب كوستيو كوف منى قال: استهلكتم ألواحاً كثيرة في عمل الأفاريز ما معنى كثيرة؟ قلتله استهلكنا يا فاسيلى دانيليتش بالقدر المطلوب إنني لا آكلها مع العصيدة هذه الألواح فقال: كيف تجرؤ على توجيه هذه الكلمات لى؟ يا مغفل، يا بليد! اعرف قدرك! وصرخ ـ أنا الذي جعلت منك مقاولاً فقلت له: يا سلام، شيء عظيم! عندما لم أكن مقاولاً كنت مع ذلك أشرب الشاي كل يوم فقال:كلكم محتالون فسكت وقلت لنفسي: نحن محتالون في هذه الدنيا، وأنتم ستكونون محتالين في الآخرة هاها ها! وفي اليوم التالي هدأت ثائرته قال لى لا تغضب منى يا مكاريتش على ما قلته لك لو كنتقلت شيئاً زائداً فلا بأس، أنا تاجر من الطبقة الأولى، أكبر منك، ومن واجبك أن تسكت فقلت له: أنت تاجر من الطبقة الأولى وأنا نجار، هذا مضبوط ويوسف القديس كان أيضاً نجاراً إن عملنا ورع، يرضى عنه الله، أما إذا كنت تريد أن تكون أكبر فتفضل يا فاسيلى دانيليتش وبعد ذلك، بعد هذا الحديثيعنى فكرتمن الأكبر؟ التاجر من الطبقة الأولى أم النجار؟ هو النجار يا أبنائى! وفكر العكاز ثم أضاف ـ :هو كذلك يا أبنائى من يعمل، من يتحمل فهو الأكبر .

غربت الشمس، وتصاعد ضباب كثيف أبيض كاللبن فوق النهر وفي باحة الكنيسة وفي الفسحات المحيطة بالفبارك والآن، عندما زحفت الظلمة بسرعة، وومضت الأضواء في الأسفل، وعندما بدا أن الضباب يخفي تحته هوة سحيقة، ربما خيل لليبا وأمها، اللتين ولدتا شحاذتين وكانتا على استعداد للعيش هكذا حتى النهاية، ولتقديم كل ما لديهما للغير ما عدا روحيهما المذعورتين الوديعتين ربما خيل إليهما للحظة أنهما هما أيضاً قوة في هذا العالم الهائل الغامض، ضمن الأعداد اللانهائية من الأرواح، وأنهما أكبر من أشخاص ما كانتا تشعران بالراحة وهما جالستان هنا في الأعلى،وابتسمتا بسعادة، ونسيتا أنه لا بد مع ذلك من العودة إلى أسفل .

وأخيراً عادوا إلى البيت كان الحصادون جالسين على الأرض عند البوابة وقرب الدكان وفي العادة لم يكن حصادو أوكلييفو يذهبون للعمل عند تسيبوكين، فيضطر إلى استئجار الغرباء، فبدا الآن في العتمة أن الجالسين مجرد أشخاص ذوى لحى طويلة سوداء كان الدكان مفتوحاً وظهر الأطرش من الباب وهو يلاعب صبياًالضامة وغنى الحصادون بصوت خافت لا يكاد يسمع أو كانوا يطالبون عالياً بنقدهم أجرهم عن يوم الأمس ولكن لم يدفعوا لهم حتى لا ينصرفوا قبل الغد وكان العجوز تسيبوكين بلا سترة، فيالصديرى، بشرب الشاي مع أكسينيا قرب المدخل تحت شجرة بتولا وعلى المائدة اشتعل مصباح

ونادى حصاد من وراء البوابة وكأنه يشاكسه - :يا جدو ادفع ولو النصف يا جدووعلى الفور تردد ضحك، ثم عادوا يغنون بصوت لا يكاد يسمع وجلسالعكاز ليشرب الشاي أيضاً .

وشرع يتحدث :ذهبنا إذن للسوق تفسحنا يا أبنائى، تفسحنا جيداً جداً، الحمد لك يا رب ووقعت حادثة سيئة اشترى الحداد ساشكا تبقاً وأعطى للتاجر نصف روبل وإذا بنصف الروبل مزيف قال العكاز وتلفت حوله كان يريد أن يتحدث هماً ولكنه تحدث بصوت مكتوم مبحوح سمعه الجميع: وإذا بنصف الروبل مزيف سألوه: من أين أخذته؟ فقال: أعطاه لي أنيسيم تسيبوكين عندما حضرت حفل زواجه واستدعوا الشرطي، وأخذوه احذر يا بتروفيتش وإلا وقع سوء.

وتردد ثانية نفس الصوت المشاكس :

يا جدو! يا جدو | !وساد الصمت .

-آه يا أبنائى، يا أبنائى، يا أبنائى دمدم العكاز بسرعة ثم نهض، فقد تملكه النعاس طيب، شكرا على الشاي والسكر يا أبنائى حان وقت النوم أصبحت خائنا، نخر السوس كل عوارضى هاهاها !.

وقال وهو ينصرف - :يبدو أنه آن أن أموت !.

وشهق أما العجوز تسيبو كين فلم يكمل شرب الشاي، ولكنه ظل جالساًيفكر وبدا على وجهه كأنما كان ينصت لخطوات العكاز الذي أصبح بعيداً .

وقالت أكسينيا وقد فطنت إلى ما يفكر فيه - :ربما كان ساشكا الحداد كاذباً دخل العجوز الدار ثم عاد بعد قليل بصرة وعندما فكها برقت روبلات جديدة تماماً وأخذ واحداً منها واختبره بأسنانه ثم ألقاه على الصينية ثم ألقي بآخر .

-الروبلات فعلاً مزيفة - دمدم وهو ينظر إلى أكسينيا كأنما متعجباً إنها تلك التي أحضرها أنيسيم آنذاك، هديته ثم قال هاماً وهو يدس الصرة في يديها - خذيها يا بنتى، خذيها وارميها في البئرفي داهية! واحذري أن يعلم أحد وإلا وقع سوء احملي السماور، أطفئي النور .

رأت ليبا وبراسكوفيا الجالستان في الحظيرة كيف انطفأت الأنوار واحداً تلو الآخر، ولم تشتعل إلا القناديل الزرقاء والحمراء عند فارفارا في الطابق العلوي، وتناهت من هناك السكينة والرضا واللامعرفة لم تستطع براسكوفيا أبداً أن تتعود على فكرة أن ابنتها متزوجة من غنى، وعندما كانت تأتي لزيارتها تنكمش بوجل في المدخل وتبتسم باستجداء فيرسلون إليها الشاي والسكر ولم تستطع ليبا أيضاً أن تتعود، وبعد أن سافر زوجها لم تعدتنام في سريرها بل حيثما كان، في المطبخ أو في الحظيرة

وكل يوم تمسح الأرضية أو تغسل الملابس، وخيل إليها أنها تعمل بالأجرة والآن، بعد عودتهما من الزيارة جلستا في المطبخ تشربان الشاي مع الطاهية، ثم ذهبتا إلى الحظيرة ورقدتا على الأرض بين الزحافة والحائط كان المكان هنا مظلماً وفاحت رائحة النيور وانطفأت الأنوار بقرب المنزل، ثم ترددت جلبة الأطرش وهو يغلق الدكان وهسيس الحصادين وهم يستعدون للنوم علىأرض الفناء وبعيداً عند آل خريمين الأصغر عزفوا على أكورديون ثمين ونعست براسكوفيا وليبا .

وعندما أيقظتهما خطوات ما كان المكان مضيئاً من نور القمر. كانت أكسينياواقفة في الباب وفي يديها فراش أبيض كله .

-أظن هنا أبرد دمدمت ثم دخلت فرقدت قرب العتبة تماماً، وأضاءها القمر كلهلم تنم وظلت تزفر زفرات ثقيلة وهي تتململ من الحر، وطرحت عن جسدها كل شيء تقريباً وفي ضوء القمر الساحر كم كان جميلاً وأبياً هذا الحيوان! ومر بعض الوقت ثم ترددت خطوات مرة أخرى كان العجوز يقف في الباب .

ونادى - :أكسينيا، هل أنت هنا؟ فأجابت بغضب - :وماذا؟

لقد قلت لك من فترة أن ترمي النقود في البئر هل رميتها؟ - وهل تريدني أن أرمى الخير في الماء! لقد أعطيتها للحصادين

-يا إلهي، يا إلهى! - دمدم العجوز في ذهول ورعب - يا لك من امرأةشقيةآهيا إلهي !.

أشاح بيديه وانصرف وظل طوال ابتعاده يدمدم بشىء ما وبعد ذلك بفترةنهضت أكسينيا فجلست وزفرت زفرة ثقيلة وبأسي، ثم قامت وجمعت الفراش تحت إبطها وذهبت .وتمتمت ليبا :لماذا زوجتني هنا يا أماه .

- الزواج ضرورى يا بنتي ولسنا نحن الذين ابتدعنا هذه الأمور .

كان الإحساس بالأسى الذى لا عزاء له على وشك أن يستولى عليهما ولكن خيل إليهما أن أحداً ينظر إليهما من علياء السماء، من زرقتها، من هناك حيث النجوم، ويرى كل ما يحدث في أوكليفو ويراقب ومهما كان الشر عظيماً فالليلة مع ذلك هادئة رائعة، والحقيقة في دنيا الله رغم ذلك موجودة وستبقى موجودة، بهذا الهدوء والجمال، وكل ما على الأرض في انتظار أن يتحد بالحقيقة كما تتحد أشعة القمر بالليل .

وإذ هدأتا نامتا، وقد التصقت إحداهما بالأخرى .

علموا منذ فترة طويلة بنبأ القبض على أنيسيم وسجنه بتهمة تزييف النقود وترويج العملات المزيفة ومرت أشهر، مر أكثر من نصف عام، وانقضى الشتاء الطويل وحل الربيع وتعود الجميع، في المنزل وفي القرية على وجود أنيسيم في السجن

وعندما كان أحد ما يمر ليلا بجوار المنزل أو الدكان كانوا يتذكرون أن أنيسيم في السجن وعندما يتردد رنين الأجراس عند المدافن كانوا أيضاً لسبب ما يتذكرون أنه في السجن ينتظر المحاكمة .

وبدا كأن ظلاًارتمى على الدار فقد أصبح المنزل داكناً، وصدئ السطح، أما باب الدكان المصفح بالحديد الثقيل والمطلي باللون الأخضر فقد تجعد أو كما قال الأطرش: تكرمشوحتى العجوز تسيبو كين نفسه بدا كأنما أصبح داكناً كف منذ وقت طويل عن قص شعره ولحيته فاستطالت، ولم يعد يجلس في العربة قفا، ولا يصرخ بالشحاذين :

الله يسهل لكوأخذت قوته تتدهور، وظهر ذلك واضحاً في كل شيءوأصبح الناس يخشونه أقل من ذي قبل، وحرر له الشرطى محضراً في الدكان رغم أنه كان يتلقى نصيبه كما في السابق واستدعوه ثلاث مرات إلى المدينة لمحاكمته على الاتجار سراً في الخمور، فكانت القضية تتأجل باستمرار لعدم حضور الشهود، وأرهق العجوز .

كان يسافر إلى ابنه كثيراً، ويستأجر أشخاصاً ما، ويرفع التماسات لأشخاص ما، وتبرع بقماش بيرق لكنيسة ما وقدم لحارس السجن الذي كان فيه أنيسيم حاملاً فضياً لكوب منقوشاً عليه الروح تعرف حدودها وملعقة طويلة

وكانت فارفارا تقول :

-لا يوجد من يسعى من أجله بحق، أوه هوههو لو تطلب من أحد السادة أن يكتب إلى المسؤولين الكبار لو يطلقوا سراحه لحين المحاكمة على الأقل!

ما الداعي لتعذيب الفتي !.

كانت هي أيضاً حزينة، لكنها سمنت وابيضت، وكانت تشعل القناديل في غرفتها كما في السابق وتراعي أن يكون كل شيء في المنزل نظيفاً، وتقدم للضيوف المربى وباستيليا التفاح وكان الأطرش وأكسينيا يعملان في الدكان وافتتحو مشروعاً جديداً مصنعاً للطوب في بونيو كينو، فكانت أكسينيا تسافر إلى هناك كل يوم تقريباً بالعربة كانت تقودها بنفسها، وعندما تقابل أحد المعارف تمط عنقها، كالأفعى في الجودار الفتي، وتبتسم بسذاجة وغموض، أما ليبا فكانت تلعب طول الوقت مع ابنها الذي ولد قبيل الصيام كان طفلاً صغيراً، هزيلاً، يثير الشفقة، وكان من الغريب أنه يصرخ وينظر وهم لا يعتبرونه إنساناً، بل يسمونه نيكيفور كان يرقد في مهده، بينما تمضي ليبيا إلى الباب ثم تقول من هناك وهي تنحني :

-مرحبا يا نيكيفور أنيسيميتش . !

ثم تركض نحوه باندفاع وتقبله وتعود إلى الباب وتنحني وتقول مرة أخرى

-مرحبا يا نيكيفور أنيسيميتش؟ .

فكان يرفع ساقية الحمراوين ويختلط بكاؤه بالضحك مثل النجار بليزاروف .

وأخيرا تحدد يوم المحاكمة وسافر العجوز قبل ذلك بخمسة أيام ثم قيل إن الفلاحين قد سيقوا من القرية للإدلاء بالشهادة ورحل أيضاً العامل العجوز الذي تلقى هو الآخر استدعاء .

كانت المحاكمة يوم الخميس، ولكن مر الأحد ولم يعد العجوز ولم تصلهم عنه أية أخبار وفي يوم الثلاثاء، قبيل المساء، جلست فارفارا أمام النافذة المفتوحة تصيخ إذ ربما يأتي العجوز وفي الغرفة المجاورة كانت ليبا تلعب مع ابنها كانت تقذف به وتتلقاه على ذراعيها وتقول بإعجاب :

ستكبر وتصبح كبيراً كبيراً وستصبح فلاحا ونذهب معاً للعمل !.

سنذهب للعمل فقالت فارفارا باحتجاج :

إخص! ما هذه المداعبة العمل باليومية التي تفكرين فيها يا مغفلة؟ سيصبح ابننا تاجراً .

وغنت ليبا بصوت خافت، ولكنها نسيت نفسها بعد قليل وقالت ثانية: - ستكبر وتصبح كبيراً كبيراً، ستصبح فلاحاً، وسنذهب معا إلى العمل باليومية

-اخص، كفاكفوقفت ليبا في الباب ونيكيفور على ذراعيها وسألت - : لماذا أحبه هكذا يا نينة؟ لماذا أشفق عليه هكذا؟ .

- واستطردت تقول بصوت متهدج واغرورقت عيناها بالدموع من هو؟ وكيف يبدو؟ إنه خفيف كالريشة، كالوبرة، ولكني أحبه، أحبه كأنه إنسان حقيقى ها هو ذا لا يقدر على شيء، ولا يتكلم، ولكني أفهم من عينيه الصغيرتين كل ما يريد .

وأصاخت فارفارا السمع، فقد تناهى دوى قطار المساء القادم إلى المحطة .

ألم يصل العجوز؟ ولم تعد تسمع أو تفهم ما تقوله ليبا، ولا تذكر كيف يمضي الوقت، بل كانت ترتعش كلها، لا بسبب الخوف بل من شدة الفضول ورأت عربة تمر بسرعة وجلبة، محملة بالفلاحين كانوا الشهود العائدين من المحطة وعندما مرت العربة أمام الدكان قفز منها العامل العجوز وتوجه إلى الدار وتناهت من الفناء أصوات تسلم عليه وتسأله عن شيء ما.

فقال بصوت عال :- مصادرة الحقوق وجميع الأملاك، ثم النفى إلى سيبيريا، أشغال شاقة لست سنوات .

وظهرت أكسينيا وهي تخرج من الباب الخلفي للدكانفرغت لتوها من صب الكيروسين فكانت ممسكة في إحدى يديها بزجاجة وفي الأخرى بقمع، وفي فمها بنقود فضية .

وسألت بثأثأة - :وأين بابا؟ فأجاب العامل :

-في المحطة قال: سأعود عندما تظلم الدنيا وعندما علموا في الدار أن أنيسيم قد حكم عليه بالأشغال الشاقة أعولت الطاهية في المطبخ فجأة كأنما على ميت، معتقدة أن ذلك ما تقتضيه الأصول :

-لمن تركتنا يا أنيسيم جريجوريتش، يا صقرنا الغالي .

ونبحت الكلاب المنزعجة وهرعت فارفارا إلى النافذة وقد تملكتها الوحشة وأخذت تصرخ في الطاهية مستجمعة صوتها بكل قواها :

-كفاك يا ستيبانيدا، كفاك ! لا تعذبينى بحق المسيح !ونسوا إشعال السماور، ولم تعد لديهم قدرة على التفكير ليبا وحدها هي التي لم تستطع أبداً أن تفهم ماذا حدث وواصلت لهوها مع الطفل .

وعندما جاء العجوز من المحطة لم يسأله أحد عن شيء سلم، ثم طاف بجميع الغرف في صمت، ولم يتناول العشاء .

ولما جلسا معاً بدأت فارفارا تقول :

-ليس هناك من يسعى ألم أقل لك أن تطلب من السادة، ولكنك لم تطاوعني؟ لو التماس<

بل سعيت! - قال العجوز ثم أشاح بيده ما إن حكموا على أنيسيم حتى هرعت إلى ذلك السيد الذي كان يحامى عنه، فقال:لا أستطيع أن أفعل شيئاًالآن،تأخرت وأنيسيم أيضاً قال: تأخرت ومع ذلك فما إن خرجت من المحكمة حتى اتفقت مع أحد المحامين، وأعطيته عربوناً سأنتظر أسبوعاً ثم أسافر ثانية الله على كل شيء قدير .

وطاف العجوز ثانية بجميع الغرف في صمت، وعندما عاد إلى فارفارا قال :

-يبدو أنني مريض في رأسي هذا ضباب أفكارى مشوشة وأغلق الباب حتى لا تسمعه ليبا واستطرد بصوت خافت :

-أمورى سيئة مع النقود أتذكرين عندما أعطاني أنيسيم قبيل العرس، في عيد الفصح، روبلات وأنصاف روبلات جديدة؟ ساعتها خبأت صرة

أما بقية النقود فخلطتها بنقودى عندما كان عمى ديميترى فيلاتيتش، عليه الرحمة، على قيد الحياة، كان يسافر كثيراً تارة إلى موسكو وتارة إلى القرم لشراء البضائع وكانت لدية زوجه، وعندما كان يسافر لشراء البضائع كانت هذه الزوجة يعنى تخونه مع الآخرين .

وأنجبت ستة أبناء وحين يسكر عمي كان يضحك ويقول :

لا أعرف أبداً أين أبنائي في هؤلاء وأين أبناء الآخرين كان دمث الطباع يعنى وهكذا أنا الآن لا أعرف أي نقودي الحقيقي وأيها المزيف ويخيل لي أنها كلها مزيفة .

-ماذا تقول، اتق الله !.

وأنا أشترى التذكرة في المحطة دفعت ثلاثة روبلات، وخيل إلى أنها مزيفة كم شعرت بالرعب يبدو أنني مريض - ما العمل، الأعمار بيد الله أوه هوه هو دمدمت فارفارا وهزت رأسها - ينبغي أن تفكر في ذلك يا بتروتش قد يحدث شيء بين يوم وليلة، فأنت لست شاباً وإذا مت فربما آذوا حفيدك من بعدك آه كم أخشى أن يؤذوا نيكيفور! طبعاً، أبوه اعتبره انتهى، وأمه صغيرة، عبيطة سجل له ولو قطعة الأرض في بوتيوكينو يا بتروفتش حقاً سجلها باسمه فكر في ذلك مضت فارفارا تقنعه الصبي لطيف، مسكين! اذهب غداً واكتب الورقة فيم الانتظار؟ .

فقال تسيبوكين :

حقا لقد نسيت الحفيد ينبغي أن أسلم عليه تقولين إنه صبي لا بأس به؟ حسنا، فليكبر على بركة الله .

وفتح الباب وثني أصبعه داعياً ليبا فاقتربت منه والصبى على ذراعيها وقال لها :

-إذا احتجت شيئاً يا ليبا قولى كلى ما تشائين، نحن لا نبخل بشىء، المهم أن تكوني بخير ورسم علامة الصليب على الصبى حافظي على الحفيد لم يعد لدي ابن، فليبق لي الحفيد .

وانحدرت الدموع على خديه وشهق وابتعد وبعد ذلك بقليل أوى إلى الفراش فنام نوماً عميقاً بعد سبع ليال من السهاد .

سافر العجوز إلى المدينة لمدة قصيرة وعاد وأخبر شخص ما أكسينيا أنه ذهب إلى مكتب التسجيل ليكتب وصية،وأنه أوصى لحفيده نيكيفور بيوتيوكينو، التي كانت أكسينيا تصنع فيها قوالب الطوب المحروق أخبروها بذلك صباحاً، عندما كان العجوز وفارفارا جالسين قرب الدرج، تحت شجرة البتولا، يشربان الشاي. فأوصدت الدكان من جهة الشارع ومن جهة الفناء، وجمعت كل ما كان لديها من مفاتيح، وقذفت بها تحت قدمي العجوز .

-لن أعمل بعد الآن في خدمتكم! صاحت بصوت عال وانفجرت في البكاء فجأة وإذن فأنا لست كئة عندكم بل عاملة الناس كلهم يضحكون مني يقولون انظروا أية عاملة وجدها آل تسيبو كين أنتم لم تستأجروني أنا لست شحاذة ولا وضيعة الأصل، أنا بنت ناس .

ودون أن تمسح دموعها سددت إلى العجوز عينين مليئتين بالدموع، حاقدتين، حولاوين من الغضب وكان وجهها ورقبتها أحمرين متوترين إذ كانت تصرخ بكل قواهاومضت تقول :

لا أريد أن أخدمكم أكثر! انهد حيلي العمل، والجلوس في الدكان طول النهار، والخروج ليلاً لبيع الفودكا هذالي، أما إهداء الأرض فلهذه الشقية زوجة المجرم وشيطانها الصغير! هي هنا السيدة، المالكة، وأنا خادمتها! أعطها كل شيء، زوجة المجرم هذه، فلتغص به، أما أنا فسأذهب إلى بيتنا؟ هاتوا لكم حمقاء غيري أيها السفاحون الملاعين !.

لم يحدث أبدا أن سب العجوز في حياته أو عاقب أولاده، بل لم تخطر حتى بذهنه فكرة أن يجرؤ أحد من أفراد أسرته على توجيه هذه الكلمات النابية إليه أو معاملته بعدم احترام ولذلك قد خاف جداً، وهرول إلى الدار، واختبأ خلف الصوان أما فارفارا فاستولى عليها الذهول حتى إنها لم تستطع أن تنهض من مكانها، بل أخذت تشيح بكلتا يديها كأنما تحمى نفسها من نحلة ستلدغها

ودمدمت في رعب - :آى، يا ربي ما هذا؟ ما لها تصرخ؟ أوه هوه هو سيسمع الناس !اخفضي صوتك اخفضي صوتك !وواصلت أكسينيا صباحها :

-أعطيتم زوجة المجرم بونيوكينو، ولتعطوها إذن كل شئ، لا أريد منكم شيئا !فلتذهبوا في داهية! كلكم عصابة واحدة كفانى ما رأيته عندكم! نهبت ما لسائرين والراكبين أيها الأشقياء، نهبتم الصغير والكبير ومن الذي كان يبيع الفودكا بدون ترخيص؟ والنقود المزيفة؟ .

ملأتم صناديقكم نقوداً مزيفة، والآن لم تعودوا بحاجة إلى !.

تجمع حشد من الناس أمام البوابة المفتوحة على مصراعيها وأخذوا يطلون في الفناء .وصاحت أكسينيا :

-فلينظر الناس! سأفضحكم! سأجعلكم تحرقون خزيا ستركعون تحت قدمى ونادت الأطرش اسمع يا ستيبان! لنذهب حالاً إلى دارنا لنذهب إلى أبي وأمي، لا أريد أن أعيش مع المجرمين! هيا !.

كان الغسيل معلقاً على حبال مشدودة في الفناء فراحت تنزع جونيلاتها وبلوزاتها، المبللة بعد، وتلقي بها إلى يدي الأطرش ثم جن جنونها فأخذت تدور في الفناء حول الغسيل وتنزع كل شيء، وتلقى بما ليس لها على الأرض وتدوسه بقدميها

وتأوهت فارفارا :

-آه يا ربي ، أمسكوها ما هذا الذي تفعله؟ أعطوها بونيو كينو، أعطوها بحق المسيح في السماء !.

وقال الواقفون عند البوابة - :يا لها من امرأة! أيما امرأة! ما أعنف ثورتها !واندفعت أكسينيا إلى المطبخ حيث كانوا يغسلون في تلك اللحظة كانت اليبا هي التي تغسل وحدها، أما الطاهية فذهبت إلى النهر لتشطف الغسيل وتصاعد البخار من الطست والقدر بجوار الموقد، وكان الجو في المطبخ خانقاً وكابيا من الضباب وكانت كومة من الملابس القذرة ما تزال على الأرض، ورقد نيكيفور رافعاً ساقية الحمراوين على أريكة بجوارها حتى لا يصاب بسوء لو وقع وفي اللحظة التي دخلت فيها أكسينيا كانت ليبا قد استخرجت من الكومة قميص أكسينيا ووضعته في الطست، ومدت يدها إلى الإبريق الكبير الموضوع على الطاولة وكان به ماء يغلى .

هاتى! - قالت أكسينيا وهي تنظر إليها بكراهية، وشدت القميص من الطست: لا شأن لك بملابسي حتى تلمسيها! أنت زوجة مجرم ويجب أن تعرفي مكانك ومركزك !.

نظرت إليها ليبا بذهول وعدم فهم، لكنها لمحت فجأة تلك النظرة التي صوبتها أكسينيا إلى الطفل، وأدركت على الفور معناها فشحبت وتثلجت أطرافها .

-أخذت أرضي، فلتأخذي جزاءك !.

قالت أكسينيا ذلك والتقطت الإبريق بالماء المغلي ورمت بالماء علىنيكيفور .

دوت أثر ذلك صرخة لم تسمع أو كليفو لها مثيلاً من قبل، وكان أمراً لا يصدق أن مخلوقاً صغيراً وضعيفاً مثل ليبا يمكن أن يصرخ هكذا وفجأة شمل السكون الفناء .

وذهبت أكسينيا إلى البيت في صمت، بنفس ابتسامتها الساذجة المعهودة. وظل الأطرش يتمشى في الفناء ضاماً الغسيل إلى صدره، ثم أخذ يعلقه ثانية في صمت وعلى مهل وإلى أن عادت الطاهية من النهر لم يجرؤ أحد على دخول المطبخ لمعرفة ماذا هناك .

ذهبوا بنيكيفور إلى مستشفى الإقليم، وفي المساء توفي هناك ولم تنتظر ليبا حتى يحضروا ليأخذوها، بل لفت الميت في بطانية صغيرة وحملته عائدة إلى البيت .

كان المستشفى، الجديد، المبنى مؤخراً، بنوافذ كبيرة، يقوم فوق تل عال ولمعت نوافذه كلها في ضوء الشمس الغاربة فبدا كأنه يشتعل في الداخلوفي الأسفل كانت قرية هبطت ليبا على الطريق، وقبل أن تبلغ القرية جلست عند بركة صغيرة وجاءت امرأة ما بحصان لتسقيه، ولكنه لم يشرب .

فقالت المرأة بصوت خافت مستغربة - :ماذا تريد أيضاً؟ ماذا تريد؟ .

وجلس صبي في قميص أحمر قرب الماء يغسل حذاء أبيه ولم يظهر سواه

أحد بتاتاً لا في القرية ولا على التل .

وقالت ليبا وهي تنظر إلى الحصانلا يشرب وهاهي ذي المرأة والصبي بالحذاء في يديه قد انصرفا ولم يعد يرى أحد .

.وأوت الشمس إلى النوم وتغطت بوشاح أحمر موشى بالذهب، وامتدت في السماء سحب طويلة، حمراء وبنفسجية تحرس سكينتها وفي جهة بعيدة، غير معروفة، صاحت واقة بصوت كئيب أصم مثل بقرة محبوسة في حظيرة كان صياح هذا الطائر الغامض يسمع كل ربيع، ولكن أحداً لم يعرف كيف يبدو وأين يعيش وصدحت البلابل عند المستشفى في الأعلى، وفي الخمائل بجوار البركة تماماً ووراء القرية وفي جميع أنحاء الحقل ونعق الوقوق وهو يعد سنوات عمر شخص ما ويخطئ في الحساب

فيبدأ من جديد ونقت الضفادع في البركة بغضب وجهد وهي تتنادى، بل كان يمكن تمييز كلما تأنت كذلك! أنت كذلكفي نقيقها يا لها من ضجة !بدا أن كل هذه الدواب تصرخ وتصدح عمداً، لكي لا ينام أحد في هذا المساء الربيعى، يتشبث الجميع، حتى الضفادع الغاضبة، ويستمتعوا بكل دقيقة: فالحياة لا تعطى إلا مرة واحدة !.

وأضاء في السماء هلال فضي، وكان هناك الكثير من النجوم ولم تذكر ليبا كم من الزمن جلست بجوار البركة، ولكن عندما نهضت ومضت كان الجميع نياماً في القرية ولم يلح ضوء واحد كانت المسافة إلى الدار حوالى اثنى عشر فرسخاً في الغالب، ولكن قواها خارت ولم تعرف إلى أين تمضي وكان الهلال يلمح تارة أمامها وتارة إلى يمينها، وصاح ذلك الوقوق ولكن بصوت أصبح مبحوحاً وضاحكاً وكأنه يغيظها احذرى، ستضلين الطريق! سارت ليبا بسرعة، وفقدت منديل رأسها وتطلعت إلى السماء وفكرت: ترى أين روح ابنها الآن؟ هل تتبعها أم تحلق هناك في الأعلى ، قرب النجوم ولا تفكر بعد في أمها؟ أوه، ما أشد الوحدة في الحقل ليلاً، وسط هذا الغناء! بينما لا تستطيع أن تغنى، وسط صيحات الفرح المتصلة، بينما لا تستطيع أن تفرح، وبينما يطل الهلال من السماء، وأيضاً وحيداً، سيان لديه أربيع الآن أم شتاء، وأحياء الناس أم أموات عندما تحل بالنفس فاجعة يصبح الأمر قاسياً بدون الناس .لو كانت معها أمها براسكوفيا، أو العكاز، أو الطاهية، أو أي فلاح

وصاحت الواقة - :بو و و ووفجأة ترددت بوضوح كلمات بشرية - : سرج يا فافيلا.

في الأمام، بجوار الطريق تماماً اشتعلت نار لم يعد هناك لهب بل أضاءت الجمرات الحمراء وحدها وتردد مضغ خيول وفي الظلام لاحت عربتان، واحدة تحمل برمية، والأخرى أقل ارتفاعاً، عليها زكائب، وظهر شخصان: أحدهما ساق حصاناً ليسرجه، بينما وقف الآخر بجوار النار جامداً، عاقداً يديه خلف ظهره وزمجر كلب بجوار العربة، فتوقف الذي كان يسوق الحصان وقال :

يبدو أن أحداً يسير على الطريق .

وصاح الآخر بالكلب - :اسكت يا شاريكومن الصوت كان من الممكن إدراك أن هذا الشخص الآخر كان عجوزاً .

وتوقفت ليبا وقالت - :الله يساعد .

فاقترب منها العجوز وأجاب بعد فترة: مرحبا ألن يعضني كلبك يا جدى؟
- لا تخافى، مرى، لن يمسك فصمتت ليبا قليلاًثمقالت :

-أنا كنت في المستشفى ولدي مات هناك وها أناذا أعود به إلى البيت يبدو أن العجوز انزعج من سماع ذلك فقد ابتعد عنها وتمتم بعجلة :لا بأس يا بنيتى مشيئة الله وقال ملتفتاً إلى رفيقه تتباطأ يا فتى، هيا .

فقال الفني :

-قوس عربتك غير موجود لا أراه - ما أقل حيلتك يا فافيلا !.

ورفع العجوز جمرة ونفخ فيها فلم تضئ إلا عينيه وأنفه، وبعد أن وجدا القوس اقترب بالنار من ليبا وتطلع إليها وكانت نظرته تعبر عن الشفقة والرقة .

وقال لها - :أنت أم، وكل أم يعز عليها ولدها .

وزفر وهز رأسه إذ قال ذلك وألقي فافيلا بشيء ما على النار وداسها بقدميه، وعلى الفور أطبقت ظلمة حالكة اختفت المرئيات، ولم يعد هناك إلا الحقل والسماء كما في السابق، وضجت الطيور وهي تعوق بعضها بعضاًعن النوم. وبدا كأن السمان يصيح في ذلك المكان الذي كانت فيه النار .

ولم تمر دقيقة إلا وأصبح من الممكن رؤية العربتين والعجوز وفانيلا الطويل. وصرت العربتان وهما تصعدان إلى الطريق .

وسألت ليبا العجوز - :هل أنتم قديسون؟ -كلا، نحن من فرسانوفو .

-عندما نظرت إلى منذ قليل لان قلبى والفتي هادئ ولهذا فكرت :لابد أنكم قديسون

-هل تقصدين بعيداً؟ -إلى أوكلينفو .

-اركبى، سنوصلك إلى كوزمنكى من هناك تمضين إلى الأمام، أما نحن فإلى الشمال .

وجلس فافيلا في العربة ذات البرميل، وجلس العجوز وليبا في العربة الأخرى وسارت الخيول بالخطوة العادية وفانيلا في المقدمة .

وقالت ليبا :

ولدي تعذب طول النهار، كان يحدق بعينيه صامتاً، يريد أن يتكلم ولا يستطيع. يا إلهي، أيتها العذراء! كنت أسقط وأسقط على الأرض من الفجيعة أقف بجوار سريرهوإذا بي أسقط هلا قلت لى يا جدي لماذا يتعذب طفل صغير قبيل الموت؟ عندما يتعذب رجل كبير، فلاح أو امرأة، فذلك تكفيراً عن ذنوبه، فلماذا يتعذب الصغير وهو بلا ذنوب؟ لماذا؟

فأجاب العجوز - :من ذا يعلم! وساروا نصف ساعة في صمت. ثم قال العجوز :

لا يمكن معرفة كل شيء، وكيف ولماذا الطير مسموح له بجناحين، لا أربعة، لأنه يستطيع أن يطير بانطلاق بجناحين اثنين وكذلك الإنسان، مسموح له أن يعرف ولكن ليس كل شيء، بل فقط النصف أو الربع يعرف بالقدر الذي يكفيه لكي يعيش

-من الأفضل لى يا جدي أن أسير على قدمى قلبي الآن يتهز هز .

-لا بأس، ابقي راكبة وتثاءب العجوز ورسم علامة الصليب على فمه وردد - :لابأس بلواك نصف بلواى الحياة طويلة وسيكون فيها الطيب والخبيث، سيكون كل شيء أمنا روسيا واسعة! - قال العجوز وتلفت إلى كلا الجانبين - أنا كنت في كل مكان في روسيا، ورأيت كل شيء فيها، فصدقى ما أقول يا عزيزتي سيكون الطيب وسيكون الخبيث أنا ذهبت إلى سيبيريا سيراًعلى الأقدام وكنت على ضفاف آمور، وفي الطاى، وهاجرت إلى سيبيريا، وحرثت الأرض هناك، ثم أوحشتني أمنا روسيا فعدت أدراجي إلى قريتنا عدنا إلى روسيا سيراً على الأقدام وأذكر، كنا نركب المعدية، وكنت نحيلاً، ممزق الملابس تماماً حافي القدمين، أرتعش من البرد وأمضغ كسرة وكان في المعدية أيضاً سيد عابر - عليه الرحمة إن كان قد مات - كان ينظر إلى برثاء ودموعه تسيل وقال لي: إيه، خبزك أسود، وأيامك سوداء وعندما رجعت إلى البيت كنت كما يقولون على الحديدة كانت عندي زوجة فبقيت في سيبيريا، دفناها هناك وهكذا أعيش أجيراً.

وماذا؟ .سأقول لك: بعد ذلك كان هناك الخبيث وكان هناك الطيب والآن لا أريد ياعزيزتي أن أموت أود لو عشت عشرين عاماً أخرى فالطيب كان أكثر ما أوسع أمنا روسيا!- قال و نظر مرة أخرى إلى كلا الجانبين والتفت إلى الوراء

فسألته ليبا - :يا جدي، عندما يموت الإنسان، كم يوماً تظل روحه تسير على الأرض؟ .

-ومن ذا يعلم! لنسأل فافيلا، فهو قد تعلم في المدرسة الآن يعلمونهم كل شيء - ونادي العجوز - يا فافيلا !آه !.

-عندما يموت الإنسان، كم يوماً تظل روحه تسير على الأرض؟ أوقف فانيلا الحصان وبعد ذلك فقط قال :

-تسعة أيام عندما مات عمى كيريل عاشت روحه عندنا في الدار بعد موته ثلاثة عشر يوماً .وكيف عرفت؟ - طوال ثلاثة عشر يوماً كنا نسمع طرقاً في الفرنطيب، تحرك - قال العجوز وكان واضحا أنه لا يصدق شيئاً من ذلك .

بالقرب من كوزمنكى انعطفت العربتان إلى الطريق الرئيسي، بينما مضت ليبا إلى الأمام كان الضوء لاحوعندما أخذت تهبط إلى الخور اختفت دور أو كلييفو وكنيستها في الضباب وكان الجو بارداً، وخيل إليها أن ذلك الوقوق ما زال يصيح وعندما عادت ليبا لم تكن الماشية قد أخرجت من الحظائر بعد كان الجميع نياماً فجلست على الدرج تنتظر وكان العجوز أول من خرج وأدرك على الفور ومن أول نظرة ماذا حدث، فوقف مدة طويلة عاجزاً عن التفوه بكلمة وهو يطقطق فقط بشفتيه .

وأخيراً تمتم - :إيه يا ليبا، لم تحافظي على الحفيد .

وأيقظوا فارفارا، فلوت ذراعيها وأجهشت بالبكاء وشرعت على الفور

تكفن الطفل .

ومضت تقول :

-كم كان صبياً طيباً أوه هوههو صبي واحد، ومع ذلك لم تحافظى عليه يا عبيطة.

وأقاموا صلاة التأبين صباحاً ومساء، وفي اليوم التالى دفنوه، وبعد الدفن أكل الضيوف ورجال الكنيسة كثيراً وبشراهة، كأنما لم يأكلوا منذ زمن طويل وقامت ليبا بخدمة الضيوف، وقال لها القس وقد رفع شوكة عليها فطر مملح - :لا تحزني على الوليد أمثاله في ملكوت السماوات .

لم تدرك ليبا جيداً، إلا بعد انصراف الجميع، أن نيكيفور لم يعد موجوداً ولن يعود، وإذ أدركت ذلك أجهشت بالبكاء ولم تدر إلى أية غرفة تذهب لكى تنتحب، فقد أحست أنه لم يعد لها مكان في هذا المنزل بعد وفاة الصبي، وأنها هنا بلا داع، زائدة على الحاجة وأحس الآخرون بذلك أيضاً .ما لك تجأرين هناك؟ - صاحت أكسينيا فجأة وقد ظهرت في الباب

وكانت ترتدي ثياباً جديدة بمناسبة الجنازة وقد وضعت البودرة - اخرسى !.

أرادت ليبا أن تكف عن البكاء فلم تستطع، بل أعولت بصوت أعلى .

-أتسمعين؟ - صاحت أكسينيا في ثورة الغضب ودقت بقدمها - لمن أقول؟غورى من هنا، وإياك أن تخطو قدمك هنا ثانية !غورى !.

فقال العجوز مضطرباً

-طيب، طيب، طيب، اهدئي يا أكسينيا، يا بنيتى إنها تبكى، شىء مفهوم وليدها مات .

-شيء مفهوم -قلدته أكسينيا مشاكسة - فلتبت الليلة هنا، ولكن إياك أن أراها غدا! شيء مفهوم! - قلدته مرة أخرى ثم ضحكت وذهبت إلى الدكان .

وفي صباح اليوم التالي مبكراً رحلت ليبا إلى أمها في تورجويفو .

وأصبح سقف الدكان وبابه الآن مطليين يلمعان كأنهما جديدان، وعلى النوافذ تزهر كما في السابق زهور الجيرانيوم المرحة، وأصبح ما حدث منذ ثلاث سنوات في منزل فناء تسيبوكين منسياً تقريباً .

وما زال العجوز جريجورى بتروفتش يعتبر هو السيد كما في السابق لكن كل شيء في الواقع انتقل إلى يدي أكسينيا فهي التي تبيع وتشترى، وبدون موافقتها لا يمكن عمل شيء ومصنع الطوب يعمل جيداً، ونظراً لازدياد الطلب على الطوب في السكة الحديدية فقد بلغ ثمنه أربعة وعشرين روبلاً للألف وتقوم النساء والفتيات بنقل الطوب إلى المحطة ثم شحنه في العربات، وتحصل الواحدة منهن لقاء ذلك على ربع روبل في اليوم .

وشاركت أكسينيا آل خريمين، فأصبحت الفابريكة تسمى الآن:آل خريمين الأصغر وشركاه وافتتحوا حانة جديدة بقرب المحطة، ولم يعد العزف على الأكورديون الثمين يسمع في الفابريكة، بل في هذه الحانة، وكثيراً ما يترددعليها رئيس قسم البريد، الذي أصبحت لديه هو أيضاً تجارة ما، وكذلك رئيس المحطة وأهدى آل خريمين الأصغر إلى الأطرش ساعة ذهبية، فصار يخرجها من جيبه بين الحين والحين ويقربها من أذنه .

ويقولون عن أكسينيا في القرية إنها اكتسبت قوة كبيرة وبالفعل، فعندما تركب العربة في الصباح ذاهبة إلى المصنع، جميلة، سعيدة، بابتسامتها الساذجة، وعندما تصدر تعليماتها هناك في المصنع، تحس فيها بقوة كبيرة ويخشاها الجميع في البيت وفي القرية وفي المصنع وحين تذهب إلى البريد يقفز رئيس قسم البريد ناهضاً ويقول لها - :أرجو أن تتكرمي بالجلوس يا أكسينيا أبراموفنا!

وذات مرة كان أحد الإقطاعيين، وهو رجل غندور، كهل، في معطف من الجوخ الخفيف، وفي حذاء عال لامع، يبيعها حصاناً، فجذبه الحديث معها حتى أنه تنازل لها في الثمن بقدر ماشاءت وظل ممسكاً بيدها فترة طويلة قائلاً وهو يحدق في عينيها المشرقتين الماكرتين الساذجتين :

لامرأة مثلك يا أكسينيا أبراموفنا أنا مستعد أن أفعل كل ما يسر فقط قولى متى نستطيع أن نتقابل بحيث لا يزعجنا أحد؟ .

-في أي وقت تشاء؟

وبعد ذلك أصبح الغندور الكهل يأتي إلى الدكان كل يوم تقريباً ليشرب البيرةوهي بيرة فظيعة، مرة كالحنظل وينفض الإقطاعي رأسه بشدة، ولكنه يشرب .

لم يعد العجوز تسيبوكين يتدخل في الأعمال ولا يحتفظ لديه بنقود لأنه لا يستطيع أبداً أن يميز النقود الحقيقية عن المزيفة، ولكنه ساكت، لا يخبر أحداً بعجزه هذا أصبح ضعيف الذاكرة بصفة خاصة، وإذا لم يطعموه فلن يطلب من تلقاء نفسه وقد تعودوا على الغداء بدونه وكثيراً ما تقول فارفارا :
-عجوزنا نام أمس ثانية دون عشاء .

تقول ذلك بعدم اكتراث لأنها تعودت ولسبب ما يرتدي المعطف الثقيل صيفاًوشتاء وفي الأيام الحارة جدا فقط لا يخرج ويبقى في البيت وفي العادة، وبعد أن يرتدي المعطف الثقيل ويرفع ياقته ويزرر كل الأزرار، يتجول في القرية، وفي طريق المحطة، أو يجلس من الصباح إلى المساء على أريكة بجوار بوابة الكنيسة يجلس بلا حراك ويحييه المارة برؤوسهم ولكنه لا يرد لأنه، كسابق العهد، لا يحب الفلاحين وعندما يسألونه عن شيء ما فإنه يجيب إجابة عاقلة تماماً، وبلهجة مهذبة، ولكن باقتضاب .

وتتردد الأقاويل في القرية بأن كنته طردته من بيته وتحرمه من الطعام، وأنه يأكل من الصدقات والبعض سعيد لذلك والبعض الآخر يرثى له .

وازدادت فارفارا امتلاء وبياضاً وما زالت تقوم بأعمال الخير كما فيالسابق، وأكسينيا لا تمنعها من ذلك وأصبحت المربي الآن كثيرة إلى درجة أنهم لا يتمكنون من أكلها كلها حتى موسم الثمار التالي، ولذلك تتكلس فتكاد فارفارا تبكى ولا تعرف ماذا تفعل بها .

وأخذوا ينسون أنيسيم وذات مرة وصلتهم رسالة منه مكتوبة شعراً، على ورقة كبيرة في صورة التماس، بنفس ذلك الخط الرائع الظاهر أن صديقه ساموروودوف كان يقضي فترة العقوبة معه وتحت الأشعار كتب سطر واحد بخط قبيح غير واضح: أنا هنا مريض دائماً، حالتي صعبة، ساعدوني بحق المسيح

وذات مرة وكان ذلك قبيل المساء في يوم خريفي صحو كان العجوز تسيبوكين جالساً بجوار بوابة الكنيسة، وقد رفع ياقة معطفة، فلم يرى إلا أنفه ومقدمة عمرته وعلى طرف الأريكة الطويلة الآخر جلس المقاول يليزاروف وبجواره حارس المدرسة ياكوف، وهو عجوز في حوالي السبعين، بفم خال من الأسنان وكان العكاز والحارس يتحدثان .

قال ياكوف بعصبية :

-الأولاد ينبغي أن يطعموا آباءهم احترم أباك وأمك أما وهي، الكنة أقصد، فقد طردت حماها من بيته الملك والعجوز لا يجد الطعام والشراب، فإلى أين يذهب؟ لليوم الثالث لم يأكل .

-لليوم الثالث! - دهش العكاز .

-يجلس هكذا ويصمت ضعف ولماذا الصمت؟ فليرفع قضية، وفي المحكمة لن يمتدحوها .

فسأل العكاز إذ لم يسمع جيداً - :من الذي امتدحوه في المحكمة؟ .

-ماذا؟

-إنها امرأة لا بأس بها، مجتهدة بدون ذلك لا تسير أمورهن أقصد بدون الحرام

فاستطرد ياكوف بعصبية من بيته الملك حسناً، اقتنى لك بيتاً أولاً، ثم اطرديه انظر أية سيدة الملعونة | !كان تسيبوكين يسمع ولا يتحرك .

-بيت ملك أم بيت غيرك، سيان، المهم أن يكون دافئاً وألا تتشاجر فيه النساء قال العكاز وضحك - عندما كنت شاباً كنت أشفق على زوجتي ناستاسيا جداً كانت امرأة هادئة وكانت تقول لي دائماً: اشتر بيتا يا مكاريتش! اشتر بيتاً يا مكاريتش! اشتر حصاناً يا مكاريتشحتى وهي تموت قالت: اشتر يا مكاريتش عربة حتى لا تسير على قدميك أما أنا فلم أكن اشترى لها غير الكعك، ولا شيء أكثر .

ومضى ياكوف يقول وهو لا يصغي إلى العكاز زوجها الأطرش غبي، أحمق تماماً مثل ذكر الوز فهل هو يستطيع أن يفهم؟ لوضربت ذكر الوز على رأسه بالعصي فلن يفهم .ونهض العكاز ليعود إلى البيت ونهض ياكوف أيضاً، وسار الاثنان معاً وواصلا الحديث وعندما ابتعدا حوالي خمسين خطوة نهض العجوز تسيبوكين أيضاً وجر ساقيه في أثرهما بتردد وكأنه يخطو فوق جليد زلق .

غرقت القرية في غسق المغيب، ولم تلمع الشمس إلا في الأعلى على الطريق الذي كان يصعد من أسفل متلويا كالثعبان وكانت العجائز عائدات من الغابة ومعهن الأولاد يحملون سلالاً مملوءة بالفطر وسار جمع من النساء والفتيات العائدات من المحطة

حيث كن يشحن العربات بالطوب، وكانت أنوفهن وخدودهن تحت عيونهن مغطاة بطبقة رقيقة حمراء من غبار الطوب كن يغنين وفي مقدمة الجميع سارت ليبا وهي تنظر إلى السماء وتغني بصوت رفيع رنان، كأنما تشعر بالفرحة والظفر لأن النهار انتهى والحمد لله، وأصبح من الممكن أن تستريح وسارت في الجمع أمها، براسكوفيا، ومعها صرة في يدها، وكانت تلهث كالعادة .

-مرحبا يا مكاريتش قالت ليبا عندما رأت العكاز مرحباً ياعمى ففرح العكاز وقال :

-مرحبا يا لينكا؟ يا نسوان، يا بنات، أحببن تاجراًغنياً! ها - ها! يا أبنائى،

يا أبنائى وشهق العكاز باكياً يا فؤوسى الغالية .

ومضى العكاز وياكوف في طريقهما، وسمع صوتهما وهما يتحدثان ومن بعدهما التقى الجمع بالعجوز تسيبوكين، وفجأة ساد السكون تخلفت ليبا وبراسكوفيا قليلاً، وعندما حاذاهما العجوز انحنت ليبا بشدة وقالت :

-مرحبا يا جريجورى بتروفتش !.

وانحنت أمها أيضاً فتوقف العجوز ونظر إليهما دون أن ينطق بكلمة كانت شفتاه ترتعشان وعيناه مليئتان بالدموع وأخرجت ليبا من صرة أمها قطعة فطيرة بالعصيدة ومدتها إليه، فأخذها وراح يأكل .

غربت الشمس تماما وانطفأ بريقها في الأعلى، على الطريق وأصبح الجو مظلماً وبارداً ومضت ليبا وبراسكوفيا في طريقهما، ولفترة طويلة ظلتا ترسمان علامة الصليب .

كاشتانكا

الفصل الأول :سلوك مشين

أخذت كلبة حمراء شابة خليط من فصيلة الهجين والدشهند سحنتها قريبة الشبه جداً بسحنة الثعلب، تجرى إلى الأمام وإلى الخلف على الرصيف وتتلفت حولها بقلق، وأحياناًكانت تتوقف، وترفع باكية تارة هذه الكف المقرورة وتارة تلك، وهي تحاول أن تفهم: كيف حدث أن ضلت الطريق؟ كانت تذكر جيداً كيف قضت النهار، وكيف أصبحت أخيراًعلى هذا الرصيف المجهول .

بدأ النهار بأن ارتدى سيدها، صانع الأثاث لوقا ألكسندريتش، الطاقية الفراء، وأخذ تحت إبطه قطعة خشبية ما، ملفوفة في منديل أحمر، وصاح :
-كاشتانكا، هيا !

وعندما سمعت الكلبة الخليط من فصيلة الهجين والدشهند اسمها، خرجت من تحت نضد النجارة حيث كانت ترقد على نشارة الخشب، وتمطت بتلذذ وركضت خلف سيدها كان زبائن لوقا ألكسندريتش يعيشون بعيداً جداً، حتى إنه كان على صانع الأثاث قبل أن يصل إليهم، أن يعرج عدة مرات على الحانة ليتناول ما ينعش به نفسه وكانت كاشتانكا تذكر أن سلوكها أثناء الطريق كانغير لائق أبداً فقد راحت تقفز، إذ سرها أن سيدها أخذها للتريض

وتنقض على عربات ترام الخيول بالنباح، وتعرج على الأفنية وتطارد الكلاب وكانت بين الحين والحين تغيب عن أنظار صانع الأثاث فيتوقف ويصرخ فيها بغضب بل إنه ذات مرة ضم أذنها الثعلبية في قبضته بينما ارتسم على وجهه تعبير نهم، وهزها وقال وهو يشدد على مقاطع الكلمات :

-إن شا الله - تأ خذك بلوى ياملعونة !.

وبعد أن زار لوقا ألكسندريتش زبائنه، عرج لحظة على أخته حيث شرب عندها وأكل ومن أخته توجه إلى عامل تجليد من معارفه، ومن عامل التجليد إلى الحانة،ومن الحانة إلى الأشبين وهكذا وباختصار، عندما أصبحت كاشتانكا على هذا الرصيف المجهول كان المساء قد حل، وأصبح عامل الأثاث ثملاً كحوذي وأخذ يلوح بذراعيه، ويزفر بعمق، ويدمدم:

ولدتني أمي في رحم الذنوب! آه، الذنوب، الذنوب !اليوم نسير في الشوارع وننظر إلى المصابيح، فإذا متنا فسنصلى عذاب السعير أو كانت تداهمه نوبة طيبة، فيدعو إليه كاشتانكا ويقول لها :

-أنت يا كاشتانكا لست سوى حشرة وليس أكثر من ذلكأنت بالمقارنة مع الإنسان مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الأثاثوبينما كان يتكلم معها بهذه الطريقة دوت الموسيقى فجأة والتفتت كاشتانكا فرأت فوج جنود يسير في الشارع نحوها مباشرة

ولما كانت لا تطيق سماع الموسيقى التي تثير أعصابها، فقد اندفعت جانباً وهى تعوى ولدهشتها البالغة رأت صانع الأثاث، بدلاًمن أن يفزع ويصرخ وينبح، يبتسم ابتسامة عريضة، وينتصب شاداً قامته، ويرفع أصابعه الخمس مؤدياً التحية وعندمارأت كاشتانكا أن سيدها لا يحتج، عوت بصوت أعلى، وانطلقت عبر الشارع إلى الرصيف الآخر وهي لاتعي شيئاً .

وعندما أفاقت لم تعد الموسيقى تصدح، واختفى الفوج فركضت عبر الطريق إلى المكان الذي تركت فيه سيدها، ولكن هيهات !لم يكن صانع الأثاث هناك فاندفعت إلى الأمام، ثم إلى الخلف، وعبرت الطريق ثانية، ولكن لم يكن هناك أثر لصانع الأثاث، وكأنما ابتلعته الأرض وأخذت كاشتانكا تشم الرصيف، على أمل أن تعثر على سيدها عن طريق آثاره، ولكن أحد الأوغاد كان قد مر في خف جديد من المطاط، فاختلطت الآن كل الروائح الرهيفة برائحة الكاوتشوك القوية الكريهة، بحيث لم يعد من الممكن تمييز شيء .

ركضت كاشتانكا إلى الأمام وإلى الخلف دون أن تعثر على سيدها، وفي تلك الأثناء أظلمت الدنيا وعلى جانبي الشارع أضيئت المصابيح، وظهرت الأنوار في نوافذ المنازل وتساقط الثلج ندفاً كبيرة زغبية، فطلى باللون الأبيض أرض الشارع وظهور الخيول وطواقى الحوذية، وكلما ازداد الجو ظلاماً تبدت الأشياء أكثر بياضاً

ومر بجوار كاشتانكا بلا توقف، إلى الأمام وإلى الخلف، زبائن مجهولون،وهم يحجبون عنها الرؤية ويدفعونها بأقدامهم كانت كاشتانكا تقسم البشر إلى قسمين غير متساويين أبداً: إلى سادة وزبائن وكان هناك فرق جوهرى بين هؤلاء وأولئك: فقد كان من حق الفريق الأول أن يضربوها، أما الفريق الثاني فكان من حقها هي أن تطبق على سمانات سيقانهم وكان الزبائن يسرعون إلى جهة ما، دون أن يعيروها أي انتباه .

وعندما أطبق الظلام تماماً استولى اليأس والرعب على كاشتانكا فانزوت عند مدخل أحد المنازل وراحت تبكي بمرارة لقد هدها التعب من التجوال مع لوقا ألكسندريتش طول النهار، وبردت أذناها وأكفها، وعلاوة على ذلك كانت جائعة إلى درجة رهيبة فلم تمضغ طوال النهار سوى مرتين: عند عامل التجليد أكلت قليلاً من الصمغ، وفي إحدى الحانات وجدت بجوار النضد قشر سجق وهذا كل ما هناك ولو كانت إنساناً لفكرت على الأرجح : كلا، هذه حياة لا تطاق !ينبغي أن أنتحر.

الفصل الثاني: الرجل الغريب الغامض

ولكنها لم تفكر في شيء بل كانت تبكى فحسب وعندما غطى الثلج الزغبي الناعم ظهرها ورأسها تماماً وغابت في نعاس ثقيل بسبب الإرهاق فرقع باب المدخل فجأة وتحشرج ولطمها في جنبها، فقفزت ومن الباب المفتوح خرج رجل ما، ينتمي إلى فريق الزبائن ولما كانت كاشتانكا قد عوت واصطدمت بقدمه فلم يكن من الممكن إلا أن تلفت انتباهه فانحنى عليها وسألها :

-من أين أنت أيتها الكلبة؟ هل آذيتك ؟ آه يا مسكينة حسناً، لا تغضبى، لا تغضبيأنا آسف .

ونظرت كاشتانكا إلى الرجل الغريب من خلال ندف الثلج العالقة برموشها فرأت أمامها رجلاً قصيراً وبديناً، بوجه حليق مكتنز، وبقبعة أسطوانية ومعطف فراء مفتوح .

ومضى يقول وهو ينفض الثلج عن ظهرها بإصبعه - :لماذا تعولين؟ أين سيدك؟ يبدوأنك فقدت؟ آه، يا للكلب المسكين !وماذا سنفعل الآن؟ .

وعندما أحست كاشتانكافى صوت الرجل الغريب بنبرة دافئة قلبية، لعقت يده، وأعولت بصوت أكثر شكاية

فقال الرجل الغريب : ولكنك لطيفة، مضحكة! كالثعلب تماماً طيب، ما العمل، هيا معيربما تنفعين في شيء ما هيا، فويت !.

ومصمص بشفتيه ولوح لكاشتانكا بذراعه بحركة لا يمكن إلا أن تعنى شيئاً واحداًهيا فمضت كاشتانكا ولم يمر أكثر من نصف ساعة حتى كانت جالسة على الأرض في غرفة كبيرة مضيئة، تنظر بتأثر وفضول، وقد أمالت رأسها جانباً، إلى هذا الرجل الغريب، الذي كان جالساً إلى الطاولة يتناول طعامه كان يأكل ويلقى إليها بقطع في البداية أعطاها قطعة خبز وقشرة جبن خضراء، ثم قطعة لحم، ونصف شطيرة، وعظام دجاج، فأكلت من الجوع كل ذلك بسرعة حتى إنها لم تتمكن من معرفة طعمه وكلما أكلت أكثر ازداد إحساسها بالجوع .

وقال الغريب وهو يرى بأى نهم وحشى تزدرد القطع دون مضغ ولكن أصحابك يطعمونك بصورة سيئة! يا لك من نحيلة! جلد على عظم .

أكلت كاشتانكا كثيراً لكنها لم تشبع، بل ثملت فقط من الطعام وبعد الأكل تمددت في وسط الغرفة ومدت قوائمها، وهزت ذيلها وقد أحست بضعف لذيذ في جسدها كله وبينما كان سيدها الجديد مضطجعاً في الفوتيل يدخن السيجار، مضت تهز ذيلها وتقرر مسألة: أين الأفضل، عند الرجل الغريب أم عند صانع الأثاث؟ كان الفرش عند الرجل الغريب فقيراً وقبيحاً

فبخلاف الفوتيلات والكنبة والمصباح والسجاجيد لم يكن لديه شيء وبدت الغرفة خاوية أما لدى صانع الأثاث فالشقة كلها غاصة بالأشياء فلديه طاولة، ونضد نجارة وكوم من النشارة، و مساحيق وأزاميل ومناشير وقفص به عصفور، وبرميل ولا تنبعث لدى الغريب أية روائح، أما لدى صانع الأثاث فالضباب يملأ دائماً شقته وتفوح رائحة رائعة من الصمغ وورنيش اللك والنشارة ولكن لدى الغريب ميزة مهمة للغاية، فهو يقدم طعاماً كثيراً، وهو وللإنصاف، عندما كانت كاشتانكا جالسة أمام الطاولة تتطلع إليه بتأثر، لم يركلها مرة واحدة، ولم يدق بقدمه مرة ولم يصرخ: غورى من هنا يا ملعونة.

وبعد أن فرغ السيد الجديد من تدخين سيجارة خرج، ثم عاد بعد دقيقة ممسكاً في يده بفرشة .

وقال وهو يضع الفرشة في الركن بجوار الكنبةتعال هنا يا كلب ارقد هنا ونمثم أطفأ المصباح وخرج وتمددت كاشتانكا على الفرشة وأغمضت عينيها وتناهى نباح من الشارع فأرادت أن ترد عليه، ولكن الحزن داهمها فجأة تذكرت لوقا ألكسندريتش وابنه فيدوشكا، ومكانها المريح تحت نضد النجارة وتذكرت أنه في أمسيات الشتاء الطويلة، عندما كان سيدها ينجر أو يقرأ الصحف بصوت مسموع

كان فيدوشكا يلعب معها عادة كان يسحبها من قائمتيها الخلفيتين من تحت النضد ويصنع بها من الألاعيب ما يجعل عينيها تغيمان ومفاصلها كلها تؤلمها كان يجعلها تسير على قائمتيها الخلفيتين، ويلعب بها لعبة الناقوس، أي يشدها بقوة من ذيلها فتصرخ لذلك وتنبح، ويدس في أنفها التبغ وكانت اللعبة التالية أشدها تعذيباً: كان فيدوشكا يربط قطعة لحم بخيط ويلقى بها إلى كاشتانكا، وبعد أن تبتلعها يسحب القطعة فيخرجها من معدتها وهو يقهقه عالياً وكلما توهجت الذكريات ازداد نحيب كاشتانكا ارتفاعا ووحشة .

ولكن سرعان ما تغلب الإرهاق والدفء على الحزن وبدأت تنعس.وفي خيالها ركضت كلاب وركض بالمناسبة ذلك البودل العجوز الأشعث الذي رأته اليوم في الشارع، ذو السحابة على عينه وخصل الشعر حول أنفه وطارد فيدوشكا البودل بمعول في يده، وفجأة اكتسى هو بشعر أشعث، ونبح بمرح وظهر بجوار كاشتانكا وتشمم كل منهما أنف الآخر بمودة وركضا إلى الشارع .

الفصل الثالث : تعارف جديد سار جدا

عندما استيقظت كاشتانكا كان النور قد انتشر، وتناهى من الشارع ضجيج النهار المميز ولم يكن هناك أحد في الغرفة وتمطت كاشتانكا وتثاءبت وأخذت تطوف بالغرفة غاضبة متجهمة وتشممت الأركان والأثاث وأطلت في المدخل، فلم تجد أي شيء طريف وكان هناك باب آخر بخلاف الباب المفضي إلى المدخل وفكرت كاشتانكا قليلاً ثم مضت تخمشه بأظافر كفيها دفعة واحدة ففتحته، ودلفت إلى الغرفة التالية وهنا على السرير، كان الزبون، ذلك الرجل الغريب الذي رأته بالأمس نائماً وقد تغطى ببطانية .

هر ر ر، زمجرت، ثم تذكرت غداء الأمس فهزت ذيلها وبدأت تتشممه .

تشممت ملابس الرجل الغريب وحذاءه، فوجدت أنه تفوح منها بشدةرائحة خيول وفي غرفة النوم أيضاً كان ثمة باب يفضي إلى مكان ما، وكان أيضاًمغلقاً وخمشت كاشتانكا هذا الباب، واتكأت عليه بصدرها ففتحته، وعلى الفور أحست برائحة غريبة جداً وتوقعت كاشتانكا لقاء غير سار فزمجرت وتلفتت وهي تدلف إلى غرفة صغيرة، بورق جدران قذر، ثم تقهقرت مذعورة فقد رأت شيئا غير متوقع ومخيفاً فنحوها مباشرة تقدم ذكر أوز رمادي وهو يفح، وقد أمال رأسه وعنقة إلى الأرض ونشر جناحيه وغير بعيد عنه تمددقط أبيض على فرشة

وعندما رأى كاشتانكا قفز من مكانه، وقوس ظهره، ورفع ذيله ونفش شعره وفح هو الآخر وخافت الكلبة حقاً، ولكنها لم تشأ أن تفصح عن خوفها فنبحت بصوت عال وانقضت على القط وقوس القط ظهره أكثر وفح، وضرب كاشتانكا بكفه على رأسها وقفزت كاشتانكا مرتدة، وجلست على أكفها الأربع، ومدت بوزها نحو القط وانفجرت في نباح عال حاد وفي تلك الأثناء اقترب ذكر الأوز من الخلف، ونقرها بمنقاره في ظهرها بقوة فهبت كاشتانكا وانقضت على ذكر الأوز.

-ماهذا؟ - تردد صوت عال غاضب، ودخل الرجل الغريب إلى الغرفةمرتدياً روباً وبين أسنانه سيجار ما معنى هذا؟ الزم مكانك !اقترب من القط، ولكزه في ظهره المقوس قائلاً :

-ما معنىهذا يا فيودور تيموفييتش؟ تثيرون شجاراً؟ يالك من محتال عجوز!نم !واستدار نحو ذكر الأوز وصاح: - إيفان إيفانيتش، الزم مكانك ! رقد القط بإذعان على فرشته وأغمض عينيه وبدا من تعبير سحنته و شواربه أنه هو نفسه لم يكن راضياً عن احتداده واشتراكه في المشاجرةوعوت كاشتانكا بإحساس بالإهانة، أما ذكر الأوز فقد مد عنقه وانطلق متحدثاً عن شيء ما بسرعة وحرارة ووضوح، ولكن بصورة غير مفهومة أبدا. فقال رب الدار متثائباً :

.حسناً، حسناً! ينبغي أن تعيشوا في سلام ومودة، وربت ظهر كاشتانكا واستطرد: أما أنت أيتها الحمراء فلا تخافي هذه جماعة طيبة، لن تمسك بسوء ولكن مهلاً، كيف سنسميك؟ لا يليق أن تظلى بلا اسم يا أختاه .

وفكر الغريب قليلاً ثم قال - :اسمعى سيكون اسمك: خالة مفهوم؟ خالة !

وبعد أن كرر كلمة خالة عدة مرات خرج وجلست كاشتانكا وراحت تراقب الموقف كان القط جالساً على الفرشة بلا حراك، متظاهراً بالنوم ومضى ذكر الأوز يتحدث عن شيء ما بسرعة وحرارة،وهو يمد عنقه ويراوح في مكانه .

ويبدو أنه كان ذكر أوز ذكياً جداً فبعد كل عبارة من عباراته الطويلة كان يتراجع إلى الخلف بدهشة، ويتظاهر أنه يعجب بكلامه وبعد أن استمعت كاشتانكا إليه وأجابته ب هررر أخذت تتشمم الأركانكان في أحد الأركان طست صغير رأت فيه حمضاً منقوعاً وكسرات مبلولة من خبز الجودار وتذوقت الحمص فلم تجده لذيذاً، وتذوقت الكسرات وبدأت تأكل ولم يغضب ذكر الأوز على الإطلاق من أن كلبة غريبة تأكل طعامه، بالعكس، تحدث بحرارة أكثر، ولكي يظهر لها ثقته، تقدم إلى الطست وأكل عدة حمصات .

الفصل الرابع :عجائب مذهلة

بعد فترة قصيرة عاد رب الدار حاملاً معه شيئاً غريباً يشبه البوابة أو حرف وتدلى من عارضة هذا الحرف الخشبي السيئ الصنع ناقوس وشد إليها مسدس ومن لسان الناقوس وحرك المسدس امتدت خيوط وضع الغريب حرف في وسط الغرفة، وأمضى وقتاً طويلاً في فك وربط أشياء ما، ثم نظر إلى ذكر الأوز وقال :

-تفضل يا إيفان إيفانيتش؟ فاقترب منه ذكر الأوز ووقف في وضع ترقب. فقال الغريب :

حسناً فلنبدأ من البداية قبل كل شيء يجب أن تحيى الجمهور وتنحني احتراما. بسرعةفمد إيفان إيفانيتش عنقه، وأومأ في جميع الجهات، وحك الأرضبساقه .

حسنا، شاطروالآن مت.

فرقد ذكر الأوز على ظهره ورفع ساقيه عالياً وبعد أن قام الغريب بعدة نمر تافهة كهذه، أمسك برأسه فجأة، راسماً على وجهه الرعب، وصاح - : النجدة! حريق! النار؟ فركض إيفان إيفانيتش نحو حرف ، وأمسك بمنقاره الخيط وقرع الناقوس .

وأحس الغريب بالرضى تماماً فمسد عنق ذكر الأوز وقال:

-شاطر يا إيفان إيفانيتش! والآن تصور أنك مجوهراتى تبيع الذهب والماسات وتصور الآن أنك ذهبت إلى متجرك فوجدت فيه لصوصاً فكيف تتصرف في هذه الحالة؟ .

فأمسك ذكر الأوز في منقاره بخيط آخر وشده، فدوت على الفور طلقة تصم الآذان وأعجبت كاشتانكا جداً بالرنين، أما الطلقة فسلبت لبها حتى أنها دارت حول حرف ونبحت فصاح بها الرجل الغريب :

-يا خالة، الزمى مكانك! صمتاً ولم ينته عمل إيفان إيفانيتش عند حد إطلاق النار .

فقد ظل الرجل الغريب يديره حوله ساعة كاملة وقد ربطه إليه بحبل، وهو يفرقع بالسوط، وكان على ذكر الأوز أثناء ذلك أن يقفز فوق حاجز وعبر حلقة، ويشب على أطرافه، أي يقع على مؤخرته ويلوح بساقيه ولم تحول كاشتانكا نظرها عن إيفان إيفانيتش، وعوت من شدة الإعجاب، وركضت خلفه عدة مرات وهي تطلق نباحاً رنائاً. وبعد أن أرهق الغريب ذكر الأوز وأرهق نفسه، مسح العرق عن جبينه وصاح :

-يا ماريا، هاتى خفرونيا إيفانوفنا إلى هنا !

وبعد لحظات تردد نخير فزمجرت كاشتانكا، واتخذت مظهر الشجاعة الفائقة، وتحوطاً للأمر، اقتربت أكثر من الرجل الغريب وفتح الباب، وأطلت امرأة عجوز، وقالت شيئاً ما، ثم دفعت إلى الداخل بخنزيرة سوداء قبيحة للغاية ودون أن تعير الخنزيرة أي اهتمام لزمجرة كاشتانكا، رفعت نخرتها إلىأعلى ونخرت بصوت مرح يبدو أنها كانت مسرورة جداً برؤية سيدها والقط وإيفان إيفانيتشوعندما اقتربت من القط ودفعته بنخرتها برفق في بطنه، ثم تحدثت عن شيء ما مع ذكر الأوز، تجلى في حركاتها وصوتها وفى ارتعاش ذيلها الكثير من الطيبة وأدركت كاشتانكا على الفور أنه لا جدوى من النباح والزمجرة مع مخلوقات كهذه .

ونحي السيد حرف وصاح: - تفضل يا فيودور تيموفييتش فنهض القط، وتمطى بكسل، واقترب من الخنزيرة بلا رغبة كأنما يصنع معروفاً

وقال السيد -:فلنبدأ بالهرم المصرى .

ومضى يوضح شيئاً ما مدة طويلة، ثم أمرواحد اثنان ثلاثة ولدي سماع إيفان إيفانيتش كلمة ثلاثة خفق بجناحيه وقفز على ظهر الخنزيرة وعندما استقر على الظهر الأهلب وهو يحفظ توازنه بجناحيه وعنقه،صعد فيودور تيموفيتش إلى ظهر الخنزيرة بتراخ وكسل، وباستهتار واضح، وبدا كأنما يحتقر فنه ولا يكن له أدنى تقدير، ثم تسلق بلا رغبة ظهر ذكر الأوز ووقف على قائمتيه الخلفيتين

وتكون ما سماه الرجل الغريب بالهرم المصرى وعوت كاشتانكا من شدة الإعجاب، ولكن في تلك اللحظة تثاءب القط العجوز فاختل توازنه وسقط من فوق ظهر ذكر الأوز وترنح إيفان إيفانيتش وسقط هو الآخروصرخ الرجل الغريب، ولوح بيديه، وعاد يشرح شيئاً ما وبعد أن أنفق ساعة كاملة في نمرة الهرم، بدأ رب الدار الذي لا يكل في تعليم إيفان إيفانيتش كيف يمتطى صهوة القط، ثم بدأ في تعليم القط كيف يدخن وما إلى ذلك .

وانتهى التعليم بأن مسح الرجل الغريب العرق عن جبينه وخرجونفخ فيودور تيموفيتش بأنفه في اشمئزاز، ورقد على الفرشة وأغمض عينيه، وتوجه إيفان إيفانيتش إلى الطست، أما الخنزيرة فساقتها المرأة العجوز وبفضل هذهالكثرة من الانطباعات الجديدة انقضى النهار بسرعة بالنسبة لكاشتانكا، وفي المساء أنزلت مع فرشتها في الغرفة ذات ورق الجدران القذر، وباتت في صحبة فيودور تيموفيتش وذكر الأوز .

الفصل الخامس: موهبة موهبة

ومر شهروتعودت كاشتانكا على أنهم كل مساء يطعمونها عشاء لذيذاً وينادونها با الخالة وتعودت أيضاًعلى الرجل الغريب وعلى شركائها في المسكن .

ومضت الحياة في يسر وسهولة .

كانت الأيام كلها تبدأ بداية متشابهة وكان إيفان إيفانيتش يستيقظ عادة قبل الجميع، وعلى الفور يتوجه إلى الخالة أو إلى القط، ويلوى عنقة ويبدأ في الحديث عن شيء ما بحرارة ويقين، ولكن بصورة غير مفهومة كما في السابق .وأحياناً كان يرفع رأسه ويلقي منولوجات طويلة وفي الأيام الأولى لتعارفهما ظنت كاشتانكا أنه يتحدث كثيراً لأنه ذكى جداً، ولكن ما إن مرت فترة قصيرة حتى فقدت كل احترام له وعندما كان يتوجه إليها بحديثه الطويل لم تعد تهز ذيلها، بل كانت تزدريه باعتباره ثرثاراً مملاً يزعج نوم الآخرين، ودون أدنى تكلفة كانت تجيبه بـ هرر ر .

أما فيودور تيموفييتش فكان سيداً من طراز آخر فعندما يستيقظ لا يصدر أي صوت، ولا يتحرك، بل حتى لم يكن يفتح عينيه ولو كان بمستطاعه لما استيقظ، لأنه كما يبدو لم يكن يحب الحياة لم يكن ثمة ما يثير اهتمامه، وكان ينظر إلى كل شيء بتراخ واستخفاف ويحتقر كل شيء

وحتى حينما يتناول طعامه اللذيذ ينفخ بأنفه في اشمئزاز وكانت كاشتانكا عندما تستيقظ تبدأ في الطواف على الغرف وتشمم الأركان ولم يكن مسموحاً إلا لها وللقط فقط بالطواف في الشقة، أما ذكر الأوز فلم يكن يحق له أن يتخطى عتبه الغرفة ذات ورق الجدران القذر، بينما كانت خفرونيا إيفانوفنا تقطن حظيرة في مكان ما في الفناء ولا تظهر إلا فترة التدريب وكان السيد يستيقظ متأخراً، وما إن يشرب الشاي حتى يشرع على الفور في شعوذته وكل يوم يحمل إلى الغرفة حرف والسوط، والحلقات، وكل يوم تجرى نفس التدريبات تقريباً كان التدريب يستمر ثلاث أو أربع ساعات، حتى أن فيودور تيموفييتش كان يترنح أحياناً كالثمل من شدة الإرهاق، ويفتح إيفان إيفانيتش منقاره لاهثاً، أما السيد فيصبح أحمر الوجه ولا يتمكن أبداً من مسح العرق عن جبينه .

كان التدريب والطعام يجعلان أوقات النهار شيقة جداً، ولكن الأمسيات كانت تمضي في ملل وفي العادة كان رب الدار يرحل كل مساء الى مكان ما ويأخذ معه ذكر الأوز والقط وحينما تصبح الخالة وحدها ترقد على الفرشة ويتولاها الحزن كان الحزن يتسلل إليها بصورة لا تلحظ، ويشملها تدريجياً، كما تشمل العتمة الغرفة ويبدأ ذلك بأن تفقد الكلبة أية رغبة في النباح أو الأكل أو الركض في الغرف أو حتى التطلع، ثم تلوح في مخيلتها صورتان غير واضحتين لكلاب أو بشر، بوجهين لطيفين رقيقين ولكن غير مفهومين

وعند ظهورهما تهز الخالة ذيلها، ويخيل إليها أنها رأتهما في وقت ما وفي مكان ما وأحبتهما وعندما يداعبها النعاس كانت تشعر برائحة الصمغ ونشارة الخشب وورنيش اللك تفوح من هاتين الصورتين .

وعندما ألفت تماماً حياتها الجديدة وتحولت من كلبة نحيلة معروقة إلى كلبة شبعانة معتني بها، ربت السيد على ظهرها ذات مرة قبل بدء التدريب وقال : آن الأوان يا خالة أن تزاولى عمل كفاك تسكعاً أريد أن أجعل منك فنانة أتريدين أن تصبحي فنانة؟ وبدأ يعلمها شتى العلوم في الدرس الأول تعلمت كيف تقف وتمشي على قائمتيها الخلفيتين، الأمر الذي أعجبها للغاية وفي الدرس الثاني كان عليها أن تقفز على قائمتيها الخلفيتين وتخطف السكر الذي كان معلمها يمسك به عالياً فوق رأسها وفي الدروس التالية رقصت، ودارت وهى مربوطة بحبل، وعوت على أنغام الموسيقى، وقرعت الناقوس وأطلقت النار، وبعد شهر أصبح بوسعها أن تحل باقتدار محل فيودور تيموفيتش في الهرم المصرى كانت تقبل على التعليم عن طيب خاطر، وأرضاها نجاحها أما الدوران بالحبل بلسان مدلى، والقفز عبر الحلقة، وامتطاء صهوة فيودور تيموفييتش العجوز، فكان يجلب لها متعة عظيمة وكانت تصاحب كل نمرة ناجحة بنباح رنان حماسى، أما المعلم فيدهش، ويتولاه الحماس هو أيضاً فيفرك راحتيه قائلاً - :موهبة ! موهبة ! موهبة حقيقية! بالتأكيد ستحظين بالنجاح!.

الفصل السادس : ليلة مزعجة

رأت الخالة في المنام حلماً كلابياً، إذ طاردها البواب بمكنسة، فاستيقظت من الخوف .

كانت الغرفة مظلمة، ساكنة وخانقة جداً وكانت البراغيث تلدغولم يسبق للخالة أن شعرت بالخوف من الظلام ولكنها الآن أحست لسبب مابالرعب وأرادت أن تنبح وفي الغرفة المجاورة زفر رب الدار عالياً وبعد ذلك بقليل تخرت الخنزيرة في حظيرتها، ثم لف الصمت كل شيء عندما تفكر في الطعام تشعر في نفسك بالراحة، ومن ثم أخذت الخالة تفكر في أنها سرقت من فيودور تيموفييتش اليوم ورك دجاجة وخبأتها في غرفة الجلوس بين الصوان والحائط، حيث تتراكم خيوط عنكبوت وغبار كثير جداً ولا بأس لو مضت الآن لتنظر هل هذا الورك بخير أو لا؟ من المحتمل جداً أن يكون رب الدار قد عثر عليها وأكلها ولكنها، حسب القواعد، لا تستطيع الخروج من الغرفة قبل الصباح وأغمضت الخالة عينيها لتنعس بسرعة، إذ كانت تعرف بخبرتها أنه كلما أسرعت في النوم أسرع الصباح بالمجيء ولكن دوت فجأة بجوارها صرخة غريبة جعلتها تنتفض وتقفز واقفة على سيقانها الأربع كانت تلك صرخة إيفان إيفانيتش، ولم تكن صرخته ثرثارة ومقنعة كالعادة، بل رهيبة، ثاقبة غير طبيعية، تشبه صرير بوابة تفتح

وعندما لم تميز الخالة أو تفقه شيئاًفي الظلام، أحست بمزيد من الخوف فزمجرت :هر ر رومر بعض الوقت، بقدر ما يكفي للعق عظمة طيبة .

ولم تتكرر الصرخة، وشيئاً فشيئاً هدأت الخالة وأدركها النعاس ورأت في المنام كلبين أسودين كبيرين بخصائل من شعر العام الماضي على أفخاذهما وأجنابهما كانا يأكلان بشراهة من برميل كبير فضلات طعام تصاعد منها بخار أبيض ورائحة لذيذة جداً وأحياناً يتطلعان إلى الخالة ويكشران عن أنيابهما ويزمجران: لن نعطيك شيئاً ولكن رجلاًارتدي معطف فراء خرج من البيت ركضاً وطردهما بالسوطعندئذ ذهبت الخالة إلى البرميل وشرعت تأكل ولكن ما إن غاب الرجل وراء البوابة حتى انقض الكلبان الأسودان على الخالة وهما يزأران، وفجأة دوت من جديد الصرخة الثاقبة .صرخ إيفان إيفانيتش: - كيككيكيى ى

واستيقظت الخالة وقفزت واقفة، ودون أن تغادر الفرشة انفجرت في نباح معول أصبح يخيل إليها أن من يصرخ ليس إيفان إيفانيتش بل أحد آخر غريب ولسبب ما نخرت الخنزيرة مرة أخرى في الحظيرة .

ولكن ها هي ذي تتردد خشخشة حذاء، ودلف السيد إلى الغرفة مرتدياً روباً وفى بده شمعة وتراقص النور المتذبذب على ورق الجدران القذر وعلى السقف وطرد الظلمة ورأت الخالة أنه لا يوجد أحد غريب في الغرفة

كان إيفان إيفانيتش جالساً على الأرض، ولم يكن نائماً وكان جناحاه ممدودين ومنقاره مفتوحاً، وعموماً بدا كأنه متعب جداً ويريد أن يشرب ولم يكن فيودور تيموفييتش العجوز نائماً هو الآخر يبدو أن الصرخة أيقظته هو أيضاً .

وسأل السيد ذكر الأوز: - إيفان إيفانيتش، ماذا بك؟ لماذا تصرخ؟ هل أنت مريض؟ .

وصمت ذكر الأوز وتحسس السيد عنقه، وربت على ظهره وقال: - يا لك من غريب الأطوار لا تنام ولا تدع الآخرين ينامون .

وعندما خرج السيد وأخذ معه الضوء حل الظلام ثانية وأحست الخالة بالخوف ولم يصرخ ذكر الأوز، ولكن عاد يخيل إليها أن أحداًغريباً يقف في الظلام وكان أفظع شيء أنها لا تستطيع أن تعض هذا الغريب، لأنه لم يكن مرئياً وليس له شكل محدد ولسبب ما فكرت أنه في هذه الليلة حتماً سيحدث شيء ما سيئ جداً

وكان فيودور تيموفيتش هو الآخر قلقاً فقد سمعته الخالة يتقلب في مرقده ويتثاءب وينفض رأسه .

وفي مكان ما في الخارج تردد طرق على بوابة، ونخرت الخنزيرة فيا لحظيرة وعوت الخالة، ومدت قائمتيها الأماميتين وأسندت إليهما رأسها وخيل إليها أن ثمة في الطرق على البوابة، وفي نخير الخنزيرة المستيقظة لسبب ما، وفي الظلام والسكون، شيئاً موحشاًورهيباًكما في صرخة إيفان إيفانيتش كان كل شيء في اضطراب وقلق، ولكن ما السبب؟ ومن هو ذلك الغريب الذي لم يكن مرئياً؟ وها هي ذي تومض بجوار الخالة للحظة شرارتان خضراوان كابيتان كانت تلك أول مرة يقترب منها فيودور تيمو فييتش طوال فترة تعارفهما ترى ماذا يريد؟ ولعقت الخالة كفه، ودون أن تسأله عن سبب مجيئه، أعولت بصوت خافت وبنغمات متنوعة .

وصرخ إيفان إيفانيتش - :كيكى ى! كيكى كى؟ .

وفتح الباب مرة أخرى ودخل السيد بالشمعة كان ذكر الأوز جالساً في وضعه السابق بمنقار مفتوح وجناحين ممدودين وكانت عيناه مغمضتين .

وناداه السيد - :إيفان إيفانيتش.

فلم يتحرك ذكر الأوز وجلس السيد أمامه على الأرض، ونظر إليه دقيقة في صمت ثم قال - :يا إيفان إيفانيتش! ماذا جرى لك؟ هل نويت أن تموت؟ - وصاح وأمسك رأسه بيديه - آه، الآن تذكرت، تذكرت عرفت السبب هذا لأن الحصان اليوم داسك! يا إلهي، يا إلهى.

لم تفهم الخالة ما قاله سيدها، ولكنها رأت في وجهه أنه يتوقع شيئاً رهيباً. فمدت بوزها نحو النافذة المظلمة التي خيل إليها أن شخصاً غريباًيطل منها، وأعولت .

وقال السيد وهو يشيح بيديه - :إنه يحتضر يا خالة! نعم، نعم، يحتضر! الموت جاء إلى غرفتكم، فما العمل؟ .

وعاد السيد الشاحب المنزعج إلى غرفة نومه وهو يتنهد ويهز رأسهوأحست الخالة بالرعب من البقاء في الظلام، فتبعته وجلس على السرير وردد عدة مرات - :يا إلهي، ما العمل؟ .

ودارت الخالة حول ساقيه وهي لا تفهم سر هذه الوحشة التي تحس بها، ولماذا يسيطر الانزعاج على الجميع، ولكي تفهم راحت تراقب كل حركة تصدر عنه أما فيودور تيموفيتش، الذي كان نادراً ما يغادر فرشته، فقد جاء هو الآخر إلى غرفة السيد، وأخذ يتمسح بقدميه وراح ينفض رأسه، كأنما كان يريد أن ينفض منها الأفكار المزعجة، ويتطلع تحت السرير بارتياب .

وتناول السيد طبقاً صغيراً وصب فيه ماء من صنبور المغسل، وذهب إلى ذكر الأوز مرة أخرى .

وقال برقة وهو يضع الطبق أمامه - :اشرب يا إيفان إيفانيتش! اشرب يا عزيزى

ولكن إيفان إيفانيتش لم يتحرك ولم يفتح عينيه وأحنى السيد رأس ذكر الأوز إلى الطبق ووضع منقاره في الماء ولكنه لم يشرب، بل بسط جناحيه أكثر، وبقي رأسه في الطبق .

فتنهد السيد قائلاً :

-كلا لم يعد من الممكن عمل شيء! كل شيء انتهى هلك إيفان إيفانيتش؟.

وانحدرت على خديه قطرات براقة كتلك التي تسيل على النوافذ أثناء المطر. والتصقت الخالة وفيودور تيموفيتش بسيدهما وهما لا يفهمان شيئاً، وتطلعا إلى ذكر الأوز برعب .

وقال السيد وهو يتنهد بأسى :

-مسكين يا إيفان إيفانيتش! كنت أحلم بأن آخذك في الربيع إلى الدار الريفية

وأتجول معك عل العشب الأخضر .

أيها الحيوان العزيز، يا رفيقي الطيب، لقد فقدتك! كيف سأعمل الآن بدونك؟ وخيل للخالة أنه سيحدث لها نفس الشيء، أي أنها هي أيضاً ستغمض عينيها هكذا، لسبب غير معروف، وتمد قوائمها، وتكشر عن أنيابها، وسوف ينظر إليها الجميع برعب

ويبدو أن مثل هذه الأفكار جالت بخاطر فيودور تيموفييتش أيضاً ولم يسبق أن كان القط العجوز مكفهراً ومرعوباً كما هو الآن .

وبدأ الفجر يلوح، ولم يعد موجوداً في الغرفة ذلك الغريب الذي أرعب الخالة إلى تلك الدرجة وعندما طلع الفجر تماماً جاء البواب فرفع ذكر الأوز من ساقيه وحمله إلى مكان ما وبعده بقليل جاءت العجوز فحملت الطست .

وذهبت الخالة إلى غرفة الجلوس وأطلت وراء الصوان :

لم يأكل السيد ورك الدجاجة، وكانت في مكانها وسط الغبار وخيوط العنكبوت ولكن الخالة كانت تشعر بالوحشة والحزن وبرغبة في البكاء ودخلت تحت الكنبة حتى دون أن تشم الورك، وأخذت تعول هناك بصوت خافت رفيع - :عو عو.

الفصل السابع: بداية غير موفقة

ذات مساء دلف السيد إلى الغرفة ذات ورق الجدران القذر وقال وهو يفرك يديهحسناً.

كان يريد أن يقول شيئا آخر ولكنه لم يقل وخرج وخمنت الخالة، التي درست جيداً وجهه ونبراته أثناء التدريبات، أنه منفعل ومهموم، بل على ما يبدو، غاضب وعاد بعد قليل وقال :

-اليوم سآخذ معي الخالة وفيودور تيموفيتش أنت يا خالة ستحلين اليوم محل المرحوم إيفان إيفانيتش في الهرم المصري الشيطان يعلم ما هذا! لمنستعد أبداً، ولم نحفظ شيئاً، والتدريبات كانت قليلة! سننفضح ونفشل ! ثمخرج مرة أخرى وعاد بعد دقيقة في معطف الفراء والقبعة الأسطوانية واقترب من القط فرفعه من ساقية الأماميتين وخبأه في صدره تحت المعطف، بينما بدا فيودور تيموفيتش غير مبال أبداً، وحتى لم يكلف نفسه عناء فتح عينيه والظاهر أنه كان يستوي عنده تماماً سواء رقد أو رفع من ساقيه، أو تمدد على الفرشة، أو استقر على صدر سيده تحت المعطف.

وقال السيد - :يا خالة، هيا بنا .

وسارت الخالة خلفه وهي لا تفهم شيئاً وتهز ذيلها وبعد دقيقة كانت جالسة في الزحافة عند قدمى سيدها تصغي إلى دمدمته وهو ينكمش من البرد والقلق - :سنفضح! ستفشل !.

توقفت الزحافة أمام بيت كبير غريب، يشبه قصعة حساء مقلوبة وكان المدخل الطويل لهذا المنزل، ذو الأبواب الزجاجية الثلاثة، مضاء بدستة مصابيح قوية وكانت الأبواب تفتح برنين، وكالأشداق تبتلع الناس الذين كانوا يتزاحمون عند المدخل كان الناس كثيرين جداً، والخيول أيضاً كثيراً ما كانت تفد راكضة إلى المدخل، ولكن لم يبد أثر للكلاب .

وحمل السيد الخالة على يديه ودسها في صدره تحت المعطف حيث كان فيودور تيموفييتشوكان المكان هنا مظلماً خانقاً ولكنه دافئ وللحظة توهجت شرارتان خضراوان كابيتان، إذ فتح القط عينيه وقد أزعجته أكف جارته الباردة الصلبة ولعقت الخالة أذنه، وأرادت أن تتخذ وضعاً مريحا فتحركت بقلق وداسته تحتها بأكفها الباردة، وأطلت برأسها عفواً من فتحة المعطف، ولكنها زمجرت على الفور بغضب وغاصت تحت المعطف وخيل إليها أنها رأت غرفة ضخمة، سيئة الإضاءة، مليئة بالكائنات الخرافية المخيفة ومن وراء الحواجز والشباك التي امتدت على جانبي الغرفة أطلت سحن رهيبة

سحن خيول، وسحن بقرون، وبآذان طويلة، وسحنة ضخمة سمينة بذيل في مكان الأنف، وبعظمتين طويلتين معروقتين تبرزان من فمها .

وماء القط بصوت أبح تحت أكف الخالة،ولكن المعطف انفتح في تلك اللحظة، وقال السيد هوب فقفز فيودور تيموفيتش والخالة إلى الأرض كانوا الآن في غرفة صغيرة بجدران رمادية من ألواح الخشب ولم يكن هنا، بخلاف طاولة صغيرة بمرآة ومقعد بلا ظهر، وخرق معلقة في الأركان، أي أثاث آخر، وبدلاً من المصباح أو الشمعة توهج نور ساطع على شكل مروحة كان موضوعاً في أنبوب مدقوق في الحائط ولعق فيودور تيموفيتش فروته التي جعلتها الخالة، ومضى فرقد تحت المقعد وبدأ السيد يخلع ملابسه وهو لايزال مضطرباً يفرك يديه خلع ملابسه كما يفعل عادة في البيت عندما يستعد للنوم تحت البطانية الخفيفة، أي نزع عنه كل شيء عدا الملابس الداخلية، ثم جلس على المقعد، وراح يصنع بنفسه أشياء عجيبة وهو يتطلع إلى المرآة قبل كل شيء وضع على رأسه باروكة بمفرق وقصتين تشبهان القرنين، ثم طلى وجهه بطبقة كثيفة من مادة بيضاء، ورسم فوق الطلاء الأبيض حاجبين وشوارب ووجنتين حمراوين ولم تنته أفعاله عند هذا الحد فبعد أن لوث وجهه وعنقه بدأ يرتدي حلة غير عادية لا يمكن مقارنتها بشيء، حلة لم ترها الخالة من قبل أبداً لا في البيوت ولا في الشوارع تصوروا مثلاً سروالاً واسعاً للغاية محاها من قماش الشيت المنقوش بالأزهار

من ذلك النوع المستخدم في بيوت صغار البرجوازيين للستائر وتنجيد الأثاث، سروالآيزرر عند الأبطين تماماً وإحدى ساقي السروال محاكة من شيت بنى والأخرى من شيت أصفر فاقع وغرق السيد في هذا السروال، ثم ارتدي أيضاً سترة من الشبت بياقة كبيرة مسننة ونجمة ذهبية على الظهر، وجورباً مختلف الألوان وحذاء أخضر.

ومن كثرة الألوان زاغ بصر الخالة وقلبها وانبعثت من هذا الجسد المترهل الأبيض الوجه رائحة السيد، وكان صوته أيضاً مألوفاً، صوت السيد، ولكن الشكوك كانت تعذب الخالة أحياناً، وعندئذ كانت على استعداد لأن تهرب بعيداًعن هذا الجسد المزركش وتنبح فالمكان الجديد، والنور المروحي، والرائحة، والتحول الذي طرأ على السيد كل ذلك بعث في نفسها خوفاً مبهماً وإحساساً بأنها سوف تقابل حتماً شيئاً مرعباً، مثل تلك السحنة السمينة ذات الذيل في مكان الأنف وعلاوة على ذلك فقد دوت الموسيقى الكريهة في مكان ما بعيداً خلف الجدار، وتناهى أحياناً زئير غير مفهوم شيء واحد فقط هدأ من روعها: برود فيودور تيموفيتشفقد كان نائماً في هدوء تحت المقعد، ولم يفتح عينيه حتى عندما كانوا يزحزحون المقعد .

وأطل في الغرفة شخص ما يرتدي حلة الفراك وصديرياً أبيض وقال :
-الآن نمرة ميس أرابيللا، وأنتم بعدها .

فلم يرد السيد بشيء وأخرج من تحت الطاولة حقيبة غير كبيرة، وجلس، وراح ينتظر وكان واضحاً من شفتيه ويديه أنه منفعل، وسمعت الخالة تهدج أنفاسه .

وصاج أحد ما وراء الباب: - مسيو جورج، تفضل؟ .

ونهض السيد، ورسم علامة الصليب ثلاث مرات، ثم أخرج القط من تحتالمقعد ودسه في الحقيبة وقال بصوت خافت - :هيا يا خالة !.

واقتربت الخالة من يديه وهي لا تفهم شيئاً، فقبلها في رأسها ووضعها بجوار فيودور تيموفيتشتم حل الظلام وداست الخالة على القط، وخدشت جدران الحقيبة ولم تستطع من الرعب أن تتفوه بصوت، بينما كانت الحقيبة تتأرجح كأنها فوق موج وترتعش .

وصاح السيد بصوت عال: - أنا هنا أنا هنا؟ .

وشعرت الخالة بعد هذه الصيحة بالحقيبة تصطدم بشىء صلب وتكف عن التأرجح وتردد زئير عال غليظ، وربت أحدهم على شخص ما، فزأر هذا الشخص، الذي كان في الغالب تلك السحنة ذات الذيل في مكان الأنف، وقهقه بصوت عال حتى أن أقفال الحقيبة ارتعشت ورد السيد على الزئير بضحك رفيع ثاقب، لم يضحك مثله أبداً في البيت وصاح محاولاً أن يطغى على الزئير

- حضرة الجمهور المحترم! أنا وصلت حالاً من المحطة! جدتي ماتت في داهية وتركت لى ميراثاً في الحقيبة شيء ثقيل يبدو أنه ذهبها ها! ربمافيها مليون! سنفتحها الآن ونرى وفرقع قفل الحقيبة وتسلط ضوءساطع على عيني الخالة، فقفزت من الحقيبة وتراكضت حول سيدها بكل ما في وسعها من سرعة، وقد أصمها الزئير، وانفجرت في نباح رنان .

فصاح السيد - :ها !خالى فيودور تيموفييتش! خالتي العزيزة! أقربائي الأعزاء، فلتخطفكم الأبالسة !

وارتمى على بطنه فوق الرمل، وأمسك بالقط والخالة وراح يحضنهما .

وبينما كان السيد يعصر الخالة في أحضانه نظرت هي بطرف عينها إلى ذلك العالم الذي ألقاها فيه القدر، وأذهلتها ضخامته، فتسمرت لحظة من الدهشة والإعجاب، ثم أفلتت من أحضان سيدها، ودارت كالخذروف في مكانها من قوة الانطباع كان العالم الجديد كبيراً ومليئاًبالأضواء الساطعة وأينما نظرت بدت في كل مكان، من الأرض حتى السقف، وجوه، ووجوه فقط، ولاشيء آخر .

وصاح السيد - :يا خالة، اجلسي أرجوك .

ولما كانت الخالة تذكر ما معنى هذا فقد قفزت على الكرسي وجلست ونظرت إلى سيدها كانت نظرة عينيه جادة ورقيقة كالعادة، ولكن وجهه، خاصة فمه وأسنانه، كانت تشوهها ابتسامة واسعة جامدة أما هو نفسه فكان يقهقه ويقفز ويهز كتفيه، ويتظاهر بأنه مسرور للغاية في حضرة آلاف الوجوه وصدقت الخالة سروره، وفجأة أحست بكل كيانها أن آلاف الوجوه هذه تحدق فيها، فرفعت بوزها الثعلبي إلى أعلى وعوت بمرح .

فقال لها السيد - :اجلسي أنت يا خالة أما أنا وخالي فسنرقص كمارينسكيكان فيودور تيموفييتش واقفا وهو يتطلع حوله بلا اكتراث، في انتظار اللحظة التي سيجبرونه فيها على القيام بأشياء حمقاء ورقص بفتور، وباستهتار وعبوس، وبدا واضحاً من حركاته، ومن ذيله وشواربه، أنه يحتقر إلى حد بعيد هذا الجمهور،والضوء الساطع، وسيدة،ونفسه وبعد أن أدى دوره تثاءب وجلس .

وقال السيد ـ طيب يا خالة في البداية سنغنى معاً، وبعد ذلك سنرقص حسنا؟ |وأخرج من جيبه مزماراً وعزف عليه وتململت الخالة، التي لم تكن تطيق الموسيقى، على الكرسي بقلق وعوت .

وتناهي الزئير والتصفيق من كل مكان فانحني السيد محيياً، وبعد أن سكن كل شيء استأنف العزف وأثناء عزفه نوتة عالية جداً ندت عن أحد المتفرجين في أعلى الصالة آهة عالية

وصاح صوت طفولى - :بابا !هذه كاشتانكا؟ فأكد صوت تينوره ثمل مرتعش :

-بالضبط كاشتانكا! كاشتانكا! يافيدوشكا فليعاقبني الله إن لم تكن كاشتانكا! فويت !وصفر أحد ما في أعلى الصالة، وصاح صوتان عاليان، أحدهما طفولى والآخر لرجل :كاشتانكا! كاشتانكا؟ .

وانتفضت الخالة ونظرت إلى الموضع الذي ترددمنه الصياح كان هناك وجهان، أحدهما أشعر، ثمل، ضاحك باستهزاء، وآخر مكتنز أحمر الخدين ومذعور تسلطا على عيني الخالة كما تسلط الضوء الساطع من قبل فتذكرت، وسقطت من الكرسي وتقلبت على الرمل، ثم قفزت واقفة واندفعت نحو هذين الوجهين وهى تعوى بفرح ودوى زئير يصم الآذان تخلله الصفير وصيحة طفل ثاقبة - :كاشتانكا! كاشتانكا !.

وقفزت الخالة عبر الحاجز، ثم فوق كتف ما، وأصبحت في المقصورة ولكي تبلغ الطابق التالي كان عليها أن تقفز من فوق جدار مرتفع وقفزت الخالة ولكنها لم تصل فانزلقت عن الجدار إلى أسفل ثم انتقلت بعد ذلك من يد إلى يد، وهي تلعق أيدي ورؤوس أشخاص ما، وتقدمت صاعدة أعلى فأعلى، حتى وصلت أخيراً إلى أعلى الصالة .

بعد نصف ساعة كانت كاشتانكا تسير في الشارع خلف شخصين تفوح منهما رائحة الصمغ وورنيش اللك وكان لوقا ألكسندريتش يترنح، ويحاول غريزياً، وقد علمته الخبرة، أن يسير بعيداً عن خندق الطريق .

ومضى يدمدم - :في رحم الذنوب السحيق أتمرغ أما أنت يا كاشتانكا فأمرك عجب أنت، بالمقارنة مع الإنسان، مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الأثاث وبجوارهما سار فيدوشكا مرتدياً عمرة أبيه ونظرت كاشتانكا إلى ظهريهما وخيل إليها أنها تسير خلفهما منذ زمن بعيد وتشعر بالفرحة لأن حياتها لم تتوقف لحظة واحدة .

وتذكرت الغرفة ذات ورق الجدران القذر، وذكر الأوز، وفيودور تيموفيتش، والطعام اللذيذ، والتدريب، والسيرك، ولكن ذلك كله بدالها الآن كحلم طويل مشوش مرهق.

القبلة

في ٢٠ مايو، وفي الساعة الثامنة مساء توقفت جميع البطاريات الست من لواء س المدفعية الاحتياطي، التي كانت متجهة إلى المعسكر، للمبيت في قرية ميستيتشكيوفي أوار الهرج، عندما كان بعض الضباط يروحون ويجيئون قرب المدافع، بينما كان البعض الآخر، وقد تجمعوا في الميدان قرب سور الكنيسة، يستمعون إلى تقارير مسئولى الإيواء، ظهر من وراء الكنيسة فارس في زى مدنى وعلى متن حصان غريب كان حصاناً كميتاً، صغيراً، بعنق جميل وذيل قصير، ولم يكن يسير في خط مستقيم، بل منحرف، ويأتى بحركات قصيرة راقصة بقوائمه، كأنما كان أحد مايضربه بالسوط عليها وعندما اقترب الفارس من الضباط رفع قبعته وقال :

صاحب السعادة اللفتنانت جنرال فون رابيك، الإقطاعي المحلي، يدعوالسادة الضباط للحضور إليه حالاً لتناول الشايوانحنى الحصان، ورقص، وتراجع بجنبه إلى الخلف، ورفع الفارس قبعته مرة أخرى، وبعد لحظة كان قد اختفى مع حصانه الغريب وراء الكنيسة .

ودمدم بعض الضباط بتذمر وهم ينصرفون إلى مساكنهم .

-الشيطان يعلم ما هذا! نريد أن ننام، بينما يأتينا هذا الفون رابيك بشايه

ما الداعي؟ وأي شاي الآن !.

وتذكر ضباط البطاريات الست على الفور حادث العام الماضي، عندما وجهت إليهم الدعوة أثناء المناورات، هم وضباط أحد ألوية القوزاق، بمثل هذه الطريقة، لتناول الشاي عند إقطاعى كونت، عسكرى سابق واستقبلهم الكونت المضياف البشوش برقة، وأطعمهم وسقاهم، ولم يدعهم يذهبون إلى القرية للنوم بل استبقاهم للمبيت في داره وكان كل هذا بالطبع حسناً، بل وليس هناك أفضل من ذلك، ولكن المصيبة أن فرحة العسكري المتقاعد بالضباط الشبان فاقت كل الحدود فظل حتى الفجر يروي للضباط مشاهد من ماضيه الطيب، وطاف بهم على الغرف وهو يعرض عليهم لوحاته الثمينة والرسوم القديمة والأسلحة النادرة، وقرأ لهم رسائل خطية من شخصيات كبيرة، أما الضباط المعذبون المنهكون فكانوا يستمعون إليه وينظرون إلى معروضاته وهم يتحرقون شوقا إلى الأسرة، ويخفون بحذر تثاؤباتهم في أكمامهم وعندما أطلق المضيف سراحهم أخيراً لم يكن هناك وقت للنوم .

ترى أيكون هذا الفون رابيك مثله؟ وسواء كان مثله أم لم يكن، فليس ثمة حيلة بدل الضباط ملابسهم، ورتبوا هندامهم، وانطلقوا جميعاً يبحثون عن دار الإقطاعيوفي الميدان أمام الكنيسة قيل لهم إنه يمكن الذهاب إلى دار السادة من الأسفل أن يهبطوا من خلف الكنيسة إلى النهر

ويسيروا على الشاطئ حتى يبلغوا بستان الدار، وهناك ستقودهم دروبها إلى حيث يريدون أو أن يذهبوا من أعلىمن الكنيسة مباشرة، على الطريق الذي يفضي بعد نصف فرسخ من القرية إلى مخازن السادة مباشرة وقرر الضباط أن يتبعوا الطريق العلوي .

وتساءلوا أثناء الطريق :

-من هو فون رابيك هذا؟ أليس هو الذي كان يقود فرقة الخيالة سقرب بليفيا؟

كلا، لم يكن فون رابيك، بل رابى، وبدون فونما أروع الطقس !وتفرع الطريق عند أول مخزن من مخازن السادة، فاتجه فرع منه إلى الأمام مباشرة حيث اختفى في ظلام المساء، بينما انعطف الفرع الثاني إلى اليمين نحو منزل السادة ومضى الضباط يميناً وراحوا يتحدثون بصوت خافتوعلى جانبي الطريق امتدت مخازن حجرية بأسقف حمراء، وكانت جهمة ثقيلة، تشبهكثيراً ثكنات مدينة ريفية وفي الأمام لاحت أضواء نوافذ بيت السادة .

وقال أحد الضباط :

-يا سادة هذا فأل حسن! إن كلب صيدنا يسير في مقدمة الجميع، إذن فهو يشم رائحة فريسة !.

سار الملازم لوبيتكو في المقدمة، وكان طويلاً وممتلئ الجسم، ولكنه بلا شوارب على الإطلاق كان قد جاوز الخامسة والعشرين، ولكن لسبب ما لم ينبت في وجهه المستدير الشبعان أي شعر وكان مشهوراًص في اللواء بحدسه وقدرته على التكهن بوجود نساء عن بعد فاستدار قائلاً :

-نعم، هنا ينبغي أن توجد نساء إنني أدرك ذلك بغريزتيواستقبل الضباط عند عتبة الدار فونرابيك نفسه، وهو شيخ بهى، في حوالي الستين، في حلة مدنية وقال وهو يصافح الضيوف إنه مسرور جداً وسعيد، ولكنه يرجو السادة الضباط بشدة ويستحلفهم بالله أن يعذروه على عدم دعوته لهم للمبيت فقد حضرت إليه شقيقتاه وأبناؤهما وإخوته وجيرانه، بحيث لم تبق لديه غرفة واحدة خالية .

صافح الجنرال أيدي الجميع وهو يرجو المعذرة ويبتسم، ولكن بدا على وجهه أنه لم يكن أبداً مسروراً إلى هذا الحد بهؤلاء الضيوف، مثلما كان ذلك الكونت في العام الماضي، وأنه لم يدع إليه الضباط إلا لأن اللياقة، حسب رأيه،تقتضي ذلك وأدرك الضباط أنفسهم، وهم يصعدون الدرج اللين ويصغون إلى الكونت أنهم لم يدعوا إلى هذا البيت إلا لأن عدم دعوتهم أمر محرج، وعندما رأوا الخدم يسارعون إلى إشعال المصابيح عند المدخل في الأسفل، وفي البهو في الأعلى، خيل إليهم أنهم حملوا معهم إلى هذا البيت الإزعاج والقلق

فهل يمكن أن يكون وجود تسعة عشر ضابطاً غرباء أمراً محبباً في مكان اجتمع فيه، ربما لمناسبة عائلية أو لاحتفال ما، شقيقتان مع أبنائهما وأخوة وجيران؟ .

وفي الأعلى، عند مدخل القاعة، استقبلت الضيوف عجوز طويلة ممشوقة،ذات وجه طويل وحاجبين أسودين، شديدة الشبه بالإمبراطورة أوجين قالت وهي تبتسم بترحاب ومهابة إنها مسرورة وسعيدة برؤية الضيوف في بيتها، واعتذرت لعدم تمكنها هي وزوجها في هذه المرة من دعوة السادة الضباط للمبيت وبدا من ابتسامتها الجميلة المهيبة، التي كانت تختفي من وجهها على الفور كلما حولته عن الضيوف لأمر ما، أنها رأت في حياتها الطويلة كثيراً من السادة الضباط، وأنها في شغل عنهم الآن، وإذا كانت قد دعتهم إلى دارها ومضت تعتذر لهم، فإنما تفعل ذلك فقط لأن ترتيبها ووضعها في المجتمع يقتضيان هذا .

وفي غرفة الطعام الكبيرة التي دلف إليها الضباط، جلس إلى أحد جانبى مائدة طويلة حوالي عشرةرجال ونساء كبار وشبان، يشربون الشاي ومن خلف مقاعدهم بدت مجموعة من الرجال تغلفهم سحب دخان السيجار الخفيفة وفي وسطهم وقف شاب نحيل بسالفين صغيرين أحمرين يتحدث عن شيء ما بصوت عال وبالإنجليزية وهو يلثغ ومن خلف المجموعة بدت من خلال الباب غرفة مضيئة بأثاث أزرق

وقال الجنرال بصوت عال محاولاً أن يبدو مرحاً جداً :

-أيها السادة، إنكم من الكثرة بحيث يستحيل تقديمكم فلتتعارفوا بأنفسكم يا سادة، دون تكلفة !.

وانحنى الضباط محيين كيفما كان، بعضهم بوجوه جادة للغاية، بل وحتنصارمة، والبعض الآخر بابتسامات متكلفة،وهم يشعرون جميعاً بالحرج الشديد، وجلسوا لتناول الشاى .

كان أكثر الجميع شعوراً بالحرج النقيب ريابوفتش، وهو ضابط صغير الجسم، محنى القامة، يضع نظارة، وذو سوالف كسوالف الوشق وبينما كان بعض زملائه يكسبون وجوههم ملامح الجد، والبعض الآخر يتكلف الابتسام، كان وجهه هو، وسوالفه الوشقية ونظارته، كأنما تقول: أنا أكثر ضباط اللواء كله خجلاً وتواضعاً، وأقلهم تميزا وفي اللحظات الأولى، عندما دخل غرفة الطعام، ثم بعد ذلك، وهو جالس يتناول الشاي، لم يستطع أبداً أن يركز انتباهه على وجه واحد أو شيء واحد فقد امتزجت الوجوه والملابس وأباريق الكونياك المضلعة، والبخار المتصاعد من أكواب الشاي، والسلال الخزفية، امتزج ذلك كله في انطباع واحد هائل ألقي في قلب ريابوفتش بالجزع والرغبة في إخفاء رأسه وكالممثل الذي يواجه الجمهور لأول مرة، كان يرى كل شيء أمام عينيه، إلا أن ما رآه كان عسير الفهم تسمى هذه الحالة لدى الفسيولوجيين بالعمى السيكولوجى

وذلك عندما يرى الشخص ولا يفهم ما يراه ولكن بعد مضي بعض الوقت تأقلم ريابوفتش فعاد إليه بصره وراح يراقب وكان أول ما أثار انتباهه، كشخص خجول منطو ذلك الشيء الذي كان يفتقده دائماً، أي تلك الجرأة الفائقة للمعارف الجدد إذ أن فون رابيك، وزوجته، والسيدتين الكبيرتين، وتلك الفتاة ذات الثوب البنفسجي، والشاب ذا السوالف الحمراء، الذي اتضح أنه الابن الأصغر لرابيك، قد توزعوا بين الضباط ببراعة شديدة وكأنما تدربوا على ذلك من قبل، وعلى الفور أثاروا نقاشاًحامياًلم يكن بوسع الضيوف إلا أن يشاركوا فيه وراحت الفتاة البنفسجية تؤكد بحرارة أن حياة رجال المدفعية أسهل بكثير من حياة الخيالة أو المشاة، أما رابيك والسيدتان الكبيرتان فكانوا يؤكدون العكس وبدأ حديث متقاطع ونظر رابوفتش إلى الفتاة البنفسجية التي كانت تجادل بحرارة في أمر غريب عنها وغير مثير لاهتمامها أبداً، وراقب كيف كانت الابتسامات غير الصادقة تظهر على وجهها ثم تختفي .

وجذب فون رابيك وأسرته الضباط إلى الجدال بمهارة، بينما مضوا في نفس الوقت يراقبون بيقظة أكواب الضباط وأفواههم، وهل يشربون جميعاً، وهل شايهم حلو، ولماذا لا يتناول الضابط الفلاني البسكويت أو لا يشرب الكونياك وكلما أطال ريابوفتش النظر وأصاخ السمع ازداد إعجابه بهذه الأسرة التي وإن كانت غير صادقة المشاعر إلا أنها رائعة الانضباط

وبعد الفراغ من تناول الشاي اتجه الضباط إلى الصالة ولم يخب حدس الملازم لوبيتكو فقد كان في الصالة كثير من السيدات والنساء الشابات وكان الملازم - كلب الصيد واقفاً بالفعل بجوارشقراء شابة جدا ترتدي فستاناً أسود، وقد انحنى بجسارة كأنما كان يعتمد على سيف غير مرئى، وهو يبتسم ويلعب كتفيه بدلال كان في الغالب يقول هراء ما طريفاً للغاية، لأن الشقراء كانت تنظر تسامح إلى وجهه الشبعان وتتساءل بلا اكتراث: حقا؟ ولو كان كلب الصيد ذكياً لما توقع من هذه الحمقاء اللامبالية أن يقولوا له: خذها!.

ودوت أنغام المعزف وانطلق فالس حزين من الصالة عبر النوافذ المفتوحة، ولسبب ما تذكر الجميع أن الربيع الآن وراء النوافذ، وأن الليلة أمسية من شهر مايو وأحس الجميع في الجو برائحة أوراق الحور الشابة والورود والبنفسج أما ريابوفتش الذي أفصح فيه الكونياك المشروب عن نفسه تحت تأثير الموسيقى، فقد حول بصره إلى النافذة وابتسم، ثم راح يتابع حركات النساء، وبدا له الآن أن رائحة الورود والحور والبنفسج لا تنبعث من البستان بل من وجوه النساء وفساتينهن .

ودعا ابن رابيك فتاة ما نحيلة إلى الرقص ودار معها دورتين أما لوبيتكو فقد هرول، وهو ينزلق على الباركيه، إلى الفتاة البنفسجية وحلق معها في الصالة وبدأ الرقص .

ووقف ريابوفتش بجوار الباب وسط جمهور غير الراقصين وأخذ يراقب لم يرقص في حياته كلها مرة واحدة، ولم يتسن له في حياته كلها أن يحتضن خصر سيدة محترمة كان يعجبه جداً أن يمسك الشخص بخصر فتاة لا يعرفها على مرأى من الجميع ويقدم لها كتفه لتضع عليها يدها، إلا أنه لم يستطع أبداً أن يتصور نفسه في مكان هذا الشخص وفي وقت ما كان يحسد شجاعة زملائه وشطارتهم ويحز ذلك في نفسه .

وكان إدراكه بأنه خجول، محنى القامة وباهت، وأنه طويل الخصر ووشقي السوالف يترك في نفسه إحساسا عميقا بالمهانة، ولكن بمضي الزمن أصبح هذا الإحساس مألوفا، ولم يعد الآن، وهو ينظر إلى الراقصين أو المتحدثين بصوت عال، يشعر بالحسد، بل بإعجاب حزين .

وعندما بدأت رقصة الكادريل اقترب ابن فون رابيك الشاب من غير الراقصين ودعا اثنين من الضباط إلى لعب البلياردو ووافق الضابطان وخرجا معه من الصالة ولما لم يكن لدي ريابوفتش ما يفعله، وبدافع الرغبة في المشاركة بأي شيء في الحركة العامة، فقد مضى في أثرهم خرجوا من الصالة إلى غرفة الاستقبال، ثم إلى ممر زجاجي ضيق، ومنها دلفوا إلى غرفة، حيث قفز لدى ظهورهم ثلاثة من الخدم الناعسين من على الكنبة بسرعة وأخيراً، وبعد عبور عدد كبير من الغرف، دخل رابيك الشاب والضباط غرفة غير كبيرة، امتدت فيها طاولة البلياردو وبدأ اللعب

وقف ريابوفتش، الذي لم يمارس في حياته أية لعبة سوى الورق، بجوار الطاولة وراح ينظر بلا اكتراث إلى اللاعبين، أما هم فكانوا يدورون، بسترات مفكوكة الأزرار وبالعصي في أيديهم،وهم يتبادلون القفشات ويصبحون بكلمات غير مفهومة لم يلحظه أحد من اللاعبين، وأحياناً فقط، عندما كان أحدهم يضربه بكوعه أو تشتبك عصاه به عفواً، يستدير إليه ويقول .pardonوقبل أن ينتهي الدور الأول كان قد أحس بالملل، وبدأ يتخيل أنه زائد على الحاجة ويعوقهم وراودته رغبة في العودة إلى الصالة فخرج .

وفي طريق العودة تعرض لمغامرة صغيرة فقد انتبه في وسط الطريق إلى أنه يسير إلى غير الجهة التي يقصدها فقد كان يذكر جيداً أنه ينبغي أن يقابل .

اللعوب

شهد زفاف أولجا إيفانوفنا كل أصدقائها ومعارفها الطيبين .

-انظروا إليه، أليس صحيحا أن فيه شيئاً ما؟ - قالت لأصدقائها وهي تومئ إلى زوجها وكأنما تريد أن توضح لهم لماذا تزوجت هذا الرجل البسيط والعادي للغاية والذي ليس فيه أي شيء مميز .

وكان زوجها أوسيب ستيبانتش ضيموف طبيباً يحمل لقب المستشار الاعتباري وكان يعمل في مستشفيين، في إحداهما طبيباً ممارساً منتدباً، وفي الآخر طبيب مشرحة وكان يستقبل المرضى ويعمل في العنبر يومياً من التاسعة صباحا حتى منتصف النهار، وبعد الظهر يتوجه بالعربة إلى المستشفى الآخر حيث يشرح من يتوفى من المرضى وكان دخله من الممارسة الخاصة ضئيلاً، لا يتعدى خمسمائة روبل في العام وهذا كل ما هنالك فما الذي يمكن أن نضيفه عنه؟ بينما كانت أولجا إيفانوفنا وأصدقاؤها و معارفها الطيبون أناسا غير عاديين أبداً كان كل منهم يتميز بشيء ما، ومعروفاً قليلاً، وله اسمه وشهرته، أو إذا لم يكن بعد مشهوراً فقد كان يبشر بآمال رائعة كان هناك ممثل من مسرح الدراما، موهبة كبيرة، معترف بها منذ زمن ورجل رشيق، ذكي ومتواضع وأستاذ ممتاز في الإلقاء كان يعلم أولجا إيفانوفنا فن الإلقاء ومغني أوبرا ورجل بدين طيب

كان يؤكد لأولجا إيفانوفنا متنها أنها تقضى على نفسها، فلو لم تركن إلى الكسل، وحزمت أمرهاالأصبحت مغنية رائعة وكان هناك أيضاً عدد من المصورين وعلى رأسهم ريابوفسكى مصور المواضيع والحيوانات والمناظر شاب أشقر، جميل جداً في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، حقق نجاحاً في المعارض وباع لوحته الأخيرة بخمسمائة روبل كان يصحح لأولجا إيفانوفنا رسوماتها ويقول إنها ربما بلغت شيئاً ما وكان هناك أيضاً عازف الفيولنشلو الذي كانت آلته تنتحب، والذي اعترف صراحة بأنه من بين جميع من يعرفهن من النساء لا توجد من تستطيع مصاحبته في العزف سوى أولجا إيفانوفنا وكان هناك أديب، شاب ولكنه معروف، يكتب الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة ثم من أيضاً؟ نعم، كان هناك فاسيليتش، السيد الإقطاعي، المصور الهاوي والمزخرف، الذي كان يجيد تذوق الأسلوب الروسي القديم والروايات الشعبية والملاحم وكان يصنع المعجزات على الورق والخزف والأطباق المدخنة ووسط هذه الجماعة الأرستقراطية الحرة التي دللها القدر، وإن كانت مهذبة ومتواضعة، هذه الجماعة التي لم تكن تتذكر وجود أطباء ما إلا ساعة المرض، والتي كان اسم ضيموف لا يثير اهتمامها تماماً كأسماء مثل سيدروف أو ساراتوف وسط هذه الجماعة كان ضيموف يبدو غريباً ونشازاً ، وأن له لحية خولى وعموماً فلو أنه كان كاتباً أو مصوراً لقالوا إن الحيته تذكر بالأديب زولا .

وكان الممثل يقول لأولجا إيفانوفنا إنها بشعرها الكتانى وفي ثوب الزفاف تشبه إلى حد كبير شجرة كرز رشيقة عندما تغطيها الأزهار البيضاء الرقيقة تماماً في الربيع .

وقالت له أولجا إيفانوفنا وهي تقبض على يده :كلا، بل اسمع! كيف أمكن أن يحدث ذلك فجأة؟ اسمع، اسمع ينبغي أن أقول لك إن أبي كان يعمل مع ضيموف في مستشفى واحد وعندما مرض أبي المسكين ظل ضيموف مرابطاً إلى جوار سريره ليل نهار أوه، باللتفانى! أسمع يا ريابوفسكى وأنت يا حضرة الأديب اسمع، فهذا طريف جداً اقترب منا.ياللتفاني والمشاركة المخلصة! أنا أيضاً لم أنم الليالي جالسة بجوار أبى، وفجأة أهلاً، انتصرت على الفارس الشجاع!غرق ضيموف في حبي حتى أذنيه حقاً ما أغرب تصاريف القدر حسناً، بعد وفاة والدي كان يزورني أحياناً ويلقاني في الشارع، وذات مساء رائع، هوب طلب يدى وكان لذلك وقع الصاعقة على قضيت الليل كله في النحيب ووجدت نفسي أحبه بجنون وها قد أصبحت كما ترون زوجة أليس صحيحاً أن فيه شيئاً ما قوياً، هائلاً، شيئاً من الدببة؟ إن وجهه الآن لا يبدو لنا من هنا كاملاً، والإضاءة ضعيفة، ولكن عندما يلتفت انظروا إلى جبينه ماذا تقول في هذا الجبين يا ريابوفسكى؟ وصاحت بزوجها - يا ضيموف، إننا نتحدث عنك! تعال هنا مد يدك الشريفة إلى ريابوفسكى نعم هكذا فلتكونا صديقين

ومد ضيموف يده إلى ريابوفسكى وهو يبتسم ببشاشة وسذاجة وقال :

-سعيد جداً لقد تخرج معي شخص يدعى ريابوفسكى، أليس قريبك؟

كانت أولجا إيفانوفنا في الثانية والعشرين من عمرها بينما كان ضيموف في الحادية والثلاثين وعاشا بعد الزفاف حياة رائعة وغطت أولجا إيفانوفنا جدران غرفة الجلوس كلها برسوماتها ورسومات الآخرين، في أطر وبدون أطر، وصنعت بجوار البيانو والأثاث ازدحاماً جميلاً من المظلات الصينية والحوامل والخرق الملونة والخناجر والتماثيل النصفية والصور وغطت جدران غرفة الطعام برسومات اللوب وعلقت على الجدران أحذية اللابتى والمناجل، ووضعت في أحد الأركان محصدة ومجرفة، فأصبحت غرفة طعام على الطراز الروسي أما غرفة النوم فأرادت أن تجعلها تشبه الكهف فكست السقف والجدران بقماش داكن، وعلقت فوق الأسرة مصباحاً من طراز مصابيح البندقية ووضعت بجوار الباب تمثالاً يحمل رمحاً برأس بلطة وقال الجميع إن لدى الزوجين الشابين ركناً لطيفاً .

وعندما تنهض أولجا إيفانوفنا من الفراش كل صباح في الساعة الحادية عشرة تلعب على البيانو، أو إذا كان النهار مشمساً، ترسم شيئاً ما بألوان الزيت ثم ترحل بعد الثانية عشرة إلى خياطتها

ولما كانت نقودها هي وضيموف قليلة وتكفي بالكاد فقد لجأت هي وخياطتها إلى الحيلة لكي تبدو كثيراً في أزياء جديدةوتبهر الناس بفساتينها وكثيراً جداً ما كان يخرج من الفستان القديم المعاد صبغه ومن قطع الدانتلا والقطيفة والحرير التي لا قيمة لها معجزات حقيقية، شيء ما خلاب، ليس فستاناً بل حلماً ومن الخياطة كانت أولجا إيفانوفنا تتوجه عادة إلى إحدى معارفها من الممثلات لتعرف أخبار المسرح وبالمناسبة تدبر أمر بطاقة لأول عرض لمسرحية جديدة أو بنفيس ومن الممثلة كان عليها أن تذهب إلى مرسم مصور أو إلى معرض صور، ثم إلى أحد المشهورين لتدعوه لزيارتهم أو لترد الزيارة أو لمجرد الثرثرة وفي كل مكان كانوا يستقبلونها بمرح ومودة ويؤكدون لها أنها جميلة ورقيقة ونادرة وأولئك الذين كانت تسميهم بالمشهورين أو العظام كانوا يستقبلونها كواحدة منهم،على قدم المساواة، ويتنبأون لها في صوت واحد بأنها بمواهبها وذوقها وذكائها يمكن أن تصبح ذات شأن كبير إذا لم تبعثر قواها لقد كانت تغني وتعزف على البيانو وترسم بالألوان وتشكل الصلصال وتشترك في تمثيليات الهواة، ولكنها لم تكن تفعل ذلك كيفما كان، بل بموهبة وسواء أكانت تصنع أحذية فلاحية قديمة كانت تصنع من لحاء الشجر أو المصابيح للزينات، أم تتزين، أم تعقد ربطة العنق لشخص ما فقد كان كل شيء يخرج من بين يديها بفن ورشاقة ولطف لا مثيل له ولكن موهبتها لم تتجل في أي شيء بمثل هذا السطوع

كما تجلت في قدرتها على التعارف بسرعة والتقرب من مشاهير الناس فما إن يشتهر شخص ما ولو قليلاً، وما إن يجعل الناس تتحدث عنه حتى تتعرف به على الفور وتتصادق معه في نفس اليوم وتدعوه لزيارتها وكان كل تعارف جديد عيداً حقيقياً بالنسبة لها كانت تعبد المشاهير وتفخر بهم وتراهم كل ليلة في الحلم كانت متعطشة إليهم ولم تستطع أبداً أن تروى ظمأها كان القدامى يرحلون أو يطويهم النسيان، ويأتي محلهم آخرون جدد، ولكنها كانت تعتاد عليهم بسرعة أو يخيب أملها فيهمفتبدأ في البحث بنهم عن الجديد والجديد من المشاهير فتجدهم، ثم تعود تبحث ثانية لأي شيء؟ .

وبعد الرابعة كانت تتغدى في البيت مع زوجها كانت بساطته وتفكيره الراجح وطيبة قلبه تثير تأثرها وإعجابها فكانت من حين لآخر تهب واقفة وتعانق رأسه بتأثر وتغمره بالقبلاتكانت تقول له :

-أنت يا ضيموف إنسان ذكى، نبيل ولكن فيك عيباً واحداً خطيراً جداً أنت لا تهتم أبداً بالفن أنت تنكر الموسيقى والتصوير .

فيقول باستكانة :

-أنا لا أفهمهما لقد اشتغلت طوال حياتي بالعلوم الطبيعية والطب ولم يكن لدي وقت للاهتمام بالفنون .

ولكن هذا فظيع يا ضيموف !.

-لماذا؟ إن معارفك لا يعرفون العلوم الطبيعية والطب، ولكنك لا تعيبين عليهم ذلك لكل شخص ما يخصه أنا لا أفهم المناظر أو الأوبرات، ولكني أفكر هكذا: إذا كان بعض الناس الأذكياء يكرسون لها حياتهم كلها، وبعض الناس الأذكياء الآخرين يدفعون مقابلها مبالغ ضخمة، إذن فهي ضرورية إنني لا أفهمها ولكن عدم الفهم لا يعني الإنكار .

دعني أشد على يدك الشريفة! وبعد الغداء كانت أولجا إيفانوفنا تذهب إلى معارفها، ثم إلى المسرح أوإلى حفلة موسيقية، وتعود إلى البيت بعد منتصف الليل هكذا كل يوم .

وفي أيام الأربعاء كانت تقيم حفلات وفي هذه الحفلات لم تكن ربة البيت أو الضيوف يلعبون الورق أو يرقصون، بل يسرون عن أنفسهم بشتى الألوان الفنية فكان فنان مسرح الدراما يلقي، والمغني يغني، والمصورون يرسمون في الألبومات التي كانت أولجا إيفانوفنا تحتفظ بعدد ضخم منها، وعازف الفيولنشلو يعزف، أما ربة الدار فكانت أيضاً ترسم وتشكل الصلصال وتغنى وتصاحب العازفين والمغنين .

وفي فترات الراحة ما بين الإلقاء والعزف والغناء كانوا يتحدثون ويتناقشون في الأدب والمسرح والتصوير ولم تكن هناك نساء، لأن أولجا إيفانوفنا كانت تعتبر جميع النساء، ما عدا الممثلات وخياطتها مملات ومبتذلات ولم تكن حفلة تمر دون أن تنتفض ربة الدار لدى كل قرع الجرس الباب، ودون أن تقول بتعبير انتصار على وجهها: هذا هو! وهي تعنى بهو شخصية شهيرة جديدة دعتها إلى الحفلة لم يكن ضيموف يبقى في غرفة الاستقبال، ولم يكن أحد يتذكر غيابه ولكن في الحادية عشرة والنصف تماماً كان الباب المفضي إلى غرفة الطعام يفتح، ويظهر ضيموف بابتسامته البشوش المستكينة ويقول وهو يفرك راحتيه :

-تفضلوا إلى المائدة يا سادة فيسير الجميع إلى غرفة الطعام ويرون في كل مرة نفس الأشياء على المائدة: طبق أم الخلول، وقطعة من الخنزير أو العجل، وسردين وجبن وكافيار وفطر وفودكا ودورقان من النبيذ .

وتقول أولجا إيفانوفنا وهي تشيح بيديها من الإعجاب :

-آه يا متردوتيلى العزيز! أنت ساحر انظروا يا سادة إلى جبينه! ضيموف، استدر إلينا بجانب وجهك انظروا يا سادة: وجه نمر بنغالي، بينما التعبير طيب ورقيق كأنه لغزال أوه يا حبيبي !

ويأكل الضيوف وهم يتطلعون إلى ضيموف ويفكرون: بالفعل، إنه شاب رائع، ولكنهم سرعان ما ينسونه، ويواصلون الحديث عن المسرح والموسيقى والتصوير .

كان الزوجان الشابان سعيدين، وسارت حياتهما كأروع ما يكون ولكن الأسبوع الثالث من شهر العسل لم يمض في سعادة تامة، بل مضى في حزن، فقد مرض ضيموف بعدوى الحمرة ولزم الفراش ستة أيام، واضطر أن يحلق تماماً شعره الأسود الجميل وجلست أولجا إيفانوفنا إلى جواره وبكت بحرقة، ولكن عندما تحسنت حالته قليلاً، وضعت على رأسه الحليق منديلاً أبيض، وراحت ترسم عنه صورة بدوى وشعر كلاهما بالمرح وبعد ثلاثة أيام من شفائه وتردده ثانية على المستشفى وقع له حادث جديد .

إنني سيئ الحظ يا ماما قال ذات مرة على الغداء - كان لدىأربععمليات تشريح اليوم فجرحت أصبعين دفعة واحدة ولم ألحظ ذلك إلا في المنزل .

وخافت أولجا إيفانوفنا فابتسم وقال إن هذا شيء تافه وإنه كثيراً ما يجرح أصابعه أثناء التشريح .

إنني أنهمك في التشريح يا ماما فأصبح شارداً وراحت أولجا إيفانوفنا تتوقع عدوى الجثة بقلق وتصلى لله في الليل، ولكن كل شيء مر على ما يرام ومن جديد سارت حياتهما هادئة سعيدة بلا أحزان أو هموم

كان الحاضر رائعاً، واقترب الربيع ليحل محله وهو يبتسم من بعيد ويبشر بألف فرحة ولن تكون للسعادة نهاية! سينقضي أبريل ومايو ويونيو في البيت الريفي البعيد عن المدينة، وفي التريض والرسم وصيد السمك وسماع غناء البلابل، وبعد ذلك، ومن يوليو حتى الخريف ستكون رحلة للمصورين في نهر الفولجا وفي هذه الرحلة سوف تشارك أولجا إيفانوفنا باعتبارها عضوا أساسيا فيالسوسيتيوقد أعدت لنفسها بالفعل ثوبى سفر من الخيش، وابتاعت ألواناً وفرشاً وقماش رسم ولوحة ألوان جديدةوأصبح ريابوفسكى يتردد عليها كل يوم تقريباً لكي يرى مدى التقدم الذي أحرزته في التصوير وعندما كانت تعرض عليه رسومها، كان يدفع يديه عميقاً في جيبى سرواله، ويزم شفتيه بقوة ويشن بأنفه ثم يقول :

-هكذا هذه السحابة عندك تصرخ ليست مضاءة بضوء الغروب المنظر الأمامي ممضوغ قليلاً، وليس بالشكل المطلوب يعنى أما المنزل فقد ضغط عليه شيء ما وهو لذلك يعول متوجعاًهذا الركن ينبغى رسمه بصورة أدكن قليلاً وعموماً فلا بأس أثني عليك .

وكلما ازدادت كلماته غموضا، سهل على أولجا إيفانوفنا أن تفهمهفي اليوم التالى لعيد العنصرة بعد الغداء اشترى ضيموف مزات وحلوى ورحل إلى زوجته في البيت الريفي لم يكن قد رآها منذ أسبوعين واشتاق إليها كثيراً

وعندما كان جالساً في عربة القطار، وبعد ذلك عندما كان يبحث عن داره في الغيضة الكبيرة، كان يشعر دائماً بالجوع والتعب ويحلم بالعشاء مع زوجته في حرية ثم بالخلود إلى النوم وأحس بالمرح وهو ينظر إلى اللفة التي يحملها وبها الكافيار والجبن والسمك الأبيض.

وعندما وجد داره وتعرف عليها كانت الشمس تميل نحو المغيب وقالت الخادم العجوز إن السيدة ليست في الدار ومن المفروض أن تعود قريباًلم يكن منظر الدار جذاباً أبداً كان بها ثلاث غرف فقط، وأسقفها منخفضة ومغطاة بورق أبيض وأرضيتها مشققة وغير مستوية وكان في إحدى الغرف سرير، وفي الثانية تراكمت الفرش وقماش الرسم والأوراق المشحمة والمعاطف والقبعات الرجالية على الكراسيوفي الغرفة الثالثة وجد ضيموف ثلاثة رجال لا يعرفهم كان اثنان منهم أسودى الشعر وبلحى صغيرة، أما الثالث فكان حليقاً تماماً وبديناً، ويبدو أنه ممثل وعلى المائدة كان السماور يغليوسأل الممثل ضيموف بصوت غليظ وهو يتفحصه بنظرة غير ودودماذا تريد؟ هل تريد أولجا إيفانوفنا؟ انتظر، سوف تأتي قريباً.

وجلس ضيموف وراح ينتظر وتطلع إليه أحد الرجلين الأسودى الشعر بكسل وتراخ وسأله وهو يصب لنفسه شاياً :

-ربما تريد شاياً؟

كان ضيموف يريد أن يشرب وأن يأكل، ولكنه امتنع عن تناول الشاي لكيلا يفسد شهيته وسرعان ما تردد وقع خطوات وتناهي الضحك المألوف واصطفق الباب واندفعت أولجا إيفانوفنا إلى داخل الغرفة وهي ترتدي قبعة عريضة الحواف وتحمل في يدها صندوقاً، ودخل وراءها ريابوفسكى مرحاً، أحمر الوجه يحمل مظلة كبيرة وكرسياً مطوياً وصاحت أولجا إيفانوفنا وتضرجت من الفرحة :ضيموف! ضيموف! رددت وهي تضع يديها ورأسها على صدره - أهو أنت! لماذا لم تأت طوال هذه المدة؟ لماذا؟ لماذا؟.

-متى أستطيع يا ماما؟ إنى مشغول دائماً، وعندما أفرغ قليلاً أجد مواعيد القطارات غير مناسبة دائماً.

أوه كم أنا مسرورة برؤياك حلمت بك طوال الليل، وخفت أن تمرض آه لو تعرف كم أنت غال وكم جئت في الوقت المناسب ستكون مخلصى أنت الوحيد الذي يستطيع أن ينقذنى ومضت تقول وهي تضحك وتربط لزوجها ربطة العنق ستقام هنا حفلة زفاف طريفة للغاية سيتزوج عامل البرق في المحطة، المدعو تشيكيلدييف وهو شاب جميل، ليس غبياً، وفي وجهه، أتدرى شيء ما قوى، شىء من الدببة يمكن أن ترسم منه شاباً من النورمانديين ونحن المصطافين جميعا نشاركه الفرحة وأعطيناه كلمة شرف أن نشهد العرس إنه شخص غير ثرى ووحيد وخجول

وحرام بالطبع ألا نشاركه فرحته تصور، الزفاف بعد الصلاة مباشرة، ثم سيتوجه الجميع من الكنيسة سيراً على الأقدام إلى شقة العروس أتفهم الغيضة، وصدح الطيور، وبقع الشمس على العشب، ونحن جميعاً نسير كالبقع الملونة على خلفية خضراء زاهية شيء طريف للغاية، حسب ذوق الانطباعيين الفرنسيين - ثم سألت وأكسبت وجهها تعبيراً باكياً ولكن يا ضيموف ماذا أرتدي للكنيسة؟ ليس لدى شيء هنا، ليس لدي شيء إطلاقاً! لا فساتين ولا أزهار، ولا قفازات عليك أن تنقذني إذا كنت قد جئت فإن القدر قد أرسلك لتنقذنى خذ يا عزيزى المفتاح وارحل إلى المنزل وخذ من الصوان فستاني الوردي أنت تذكره، إنه أول فستان على المشجب وفي غرفة المخزن سترى إلى اليمين على الأرض علبتين من الكرتون تفتح العلبة العليا فتجدها مليئة بالدانتلا وقطع القماش المختلفة، وتحتها الأزهار أخرج الأزهار كلها بحذر، وحاول يا روحي ألا تجعدها، وسوف أختار منها واشتر قفازاً.

فقال ضيموف :حسنا، سأرحل غداً وأرسلها لكفتساءلت أولجا إيفانوفنا وهي تنظر إليه بدهشة :

متى غداً؟ متى تلحق غداً؟ غدا يمضى أول قطار في التاسعة، والزفاف في الحادية عشرة كلا يا عزيزى، بل اليوم، لا بد اليوم! إذا لم يكن في وسعك أن تأتي غداً أرسلها مع رسول حسناً، أذهب إذن سيأتي القطار الآن لا تتأخر يا روحي.حسناً.

فقالت أولجا إيفانوفنا والدموع تترقرق في عينيها :

-آه، كم يحزنني أن ترحل! يا لى من حمقاء! لماذا وعدت عامل البرق؟ وشرب ضيموف كوباً من الشاي بسرعة، وأخذ سميطة، وابتسم باستكانة، ثم اتجه إلى المحطة أما الكافيار والجبن والسمك الأبيض فقد أكله صاحبا الشعر الأسود والممثل .

في ليلة هادئة مقمرة من ليالي يوليو وقفت أولجا إيفانوفنا على ظهر مركب من مراكب الفولجا ومضت تنظر تارة إلى المياه وتارة إلى الشواطئ الجميلة ووقف ريابوفسكى إلى جوارها وهو يقول لها إن الظلال السوداء في الماء ليست ظلالاً، بل حلماً، وإنه عند رؤية هذه المياه الساحرة ذات البريق الخيالي، وعند رؤية السماء اللانهائية والشواطئ الحزينة المتأملة التي تتحدث عن باطل حياتنا وعن وجود شيء ما سام وخالد، ومقدس، يجدر بالمرء أن يندثر، أن يموت،أن يصبح ذكرى فالماضي مبتذل وليس طريفاً، والمستقبل تافه، أما هذه الليلة الرائعة، الليلة الوحيدة في العمر كله فسرعان ما تنتهى وتتحد بالخلود فلماذ العيش؟ .

وكانت أولجا إيفانوفنا تصغي تارة لحديث ريابوفسكى وتارة لسكون الليل وهي تفكر في أنها خالدة ولن تموت أبداً وحدثها لون المياه الفيروزي، الذي لم تره من قبل أبداً، والسماء، والشطآن والظلال السوداء والفرحة الغامرة التي ملأت روحها بأنها ستصبح مصورة عظيمة

وأنه هناك في مكان ما، وراء الأفق، وخلف الليلة المقمرة، في الفضاء اللامتناهى، ينتظرها النجاح والشهرة وحب الشعب وعندما حدقت طويلاً في الأفق وهي لا تطرف خيل إليها أنها ترى جموع الشعب والأضواء وأنغام الموسيقى المهيبة، وصيحات الإعجاب، وكانت هي نفسها في رداء أبيض، بينما انهالت عليها الأزهار من جميع الجهات وجال بخاطرها أيضاً أنه يقف إلى جوارها مرتكزاً على الحاجز إنسان عظيم حقيقة، عبقرى، من الذين اختارهم الله كل ما أبدعه حتى الآن رائع وجديد وغير عادى، وكل ما سوف يبدعه في المستقبل، عندما يشتد عوده وتترسخ موهبته الفريدة، سيكون باهراً وسامياً إلى ما لا نهاية، وهذا واضح من وجهه وطريقة تعبيره ومن نظرته إلى الطبيعةفهو يتحدث عن الظلال،وألوان المساء وبريق القمر بطريقة خاصة، وبكلماته هو، بحيث تشعر لا إراديا بسحر سلطانه على الطبيعة أما هو نفسه فجميل جداً، وفريد، وحياته حرة، مستقلة، بعيدة عن أمور المعيشة وتشبه حياة طائر.وقالت أولجا إيفانوفنا :الجو مال إلى البرودة وانتفضت ودثرها ريابوفسكى بردائه وقال بحزن :إنني أشعر أنني تحت سيطرتك إنني عبد لم أنت باهرة هكذا اليوم؟ .

كان يحدق فيها طوال الوقت دون أن يحول عنها عينيه وكانت عيناه مرعبتين فخافت أن تتطلع فيهماوهمس وهو يزفر أنفاسه على خدها :

فقالت أولجا إيفانوفنا وهي تغمض عينيها :

وخفق قلب أولجا إيفانوفنا أرادت أن تفكر في زوجها لكن ماضيها كله،أن تدفعه عنها بوهن :

نعم، يا لها من ليلة ! همست وهي تتطلع إلى عينيه البراقتين بالدموع، ثم الانسانزائل ونسبى وأحمق، وما كان ينبغي أن يربط نفسه بهذه المرأة وباختصار كان متضايقاً ومكتئباً.

وكانت أولجا إيفانوفنا جالسة على السرير خلف الحاجز وهي تقلب بأصابعها شعرها الكتاني الرائع، وتتخيل نفسها تارة في غرفة الجلوس، وتارة في غرفة النوم، وتارة في غرفة مكتب زوجها وحملها الخيال إلى المسرح، وإلى خياطتها، وإلى أصدقائها المشهورين ترى ماذا يفعلون الآن؟ هل يتذكرونها؟ لقد بدأ الموسم، وآن الأوان للتفكير في الحفلات وضيموف؟ ضيموف العزيز! كم يرجوها باستكانة وشكاية طفل في رسائل أن تعود بسرعة وكان يرسل إليها كل شهر ٧٠ روبلاً، وعندما كتبت إليه تقول إنها مدينة للمصورين بمائة روبل أرسل إليها هذه المائة أيضاً يا له من إنسان طيب، سمح ! لقد أرهقت الرحلة أولجا إيفانوفنا، وشعرت بالملل، وأحست بالرغبة في أن تترك بسرعة هؤلاء الرجال ورائحة الرطوبة النهرية، وأن تتطهر من إحساسها بالقذارة الجسدية، هذا الإحساس الذي تملكها وهي تعيش طوال الوقت في بيوت الفلاحين وتنتقل من قرية إلى قرية

ولولا أن ريابوفسكى وعد المصورين بشرفة أن يبقى معهم حتى العشرين من سبتمبر لكان من الممكن أن ترحل اليوم وكم كان ذلك جميلاً ! وأن ريابوفسكى - :يا إلهى ! متى ستشرق الشمس؟ لا أستطيع أن أكمل منظراً مشمساً بدون الشمس !فقالت أولجا إيفانوفنا خارجة من وراء الحاجز :لديك مشهد بسماء غائمةأتذكر، في الجانب الأيمن غابة وفي الأيسر قطيع بقر وأوز تستطيع الآن أن تكملهفامتعض المصور وقال :

-إيه؟ أكمله! أحقاً تظنين أننى من الغباء بحيث لا أعرف ما الذي ينبغي على عمله !

فزفرت أولجا إيفانوفنا قائلة :كم تبدل شعورك نحوى !فليكن، رائع وارتعش وجه أولجا إيفانوفنا، فاتجهت نحو الفرن و أجهشت بالبكاء - لم يكن ينقصنا سوى الدموع كفاك ! إن لدى ألف سبب للبكاء ولكنني لا أبكيفقالت أولجا إيفانوفنا وهي تجهش - :

ألف سبب! أهم سبب أنك بدأت تضيق بينعم ! قالت ثم انفجرت بالنحيب - إذا شئت الحقيقة فأنت تخجل من حبنا أنت تحاول دائماً ألا يلحظ المصورون، رغم أن ذلك لا يمكن إخفاؤه، وهم يعرفون كل شيء من زمان فقال المصور بضراعة وهو يضع يده على قلبه :

-أولجا، أرجو منك شيئاً واحداً شيئاً واحداً :لا تعذبينى! أنا لا أريد منك أكثر من ذلك !.

-أقسم إنك ما زلت تحبني! فقال المصور من بين أسنانه وهو يقفز - :يا للعذاب! سينتهى الأمر بأن ألقي بنفسي في الفولجا أو أفقد عقلى؟ دعيني !.

-اقتلني، اقتلني! اقتل !.

وعادت إلى العويل ثانية ومضت خلف الحاجز ونقر المطر على سقف المنزل الريفي القش وأمسك ريابوفسكى برأسه وسار من ركن إلى ركن، ثم اكتسى وجهه ملامح الحزم وكأنه يريد أن يثبت شيئاً ما لأحد ما، وارتدى القبعة ووضع بندقية الصيد على كتفه وخرج من المنزل.

وبعد خروجه ظلت أولجا إيفانوفنا مستلقية على السرير طويلاً وهي تبكي وفي البداية فكرت في أنه من المستحسن أن تتناول سماً لكي يعود ريابوفسكى فيجدها ميتة، ثم حملها الخيال إلى غرفة الجلوس، وغرفة مكتب زوجها، وتصورت نفسها جالسة إلى جوار ضيموف دون حراك، وهي تستمتع بالسكينة والنظافة الجسدية، وفي المساء جالسة في المسرح تصغى إلى مازينى وعصر قلبها الشوق إلى التحضر وصخب المدينة والشخصيات الشهيرةودلفت فلاحة إلى المنزل وراحت تشعل الفرن على مهل لتجهز الغذاء وانتشرت رائحة الحريق وأصبح الهواء أزرق من الدخان

وجاء المصورون ينتعلون أحذية طويلة قذرة ووجوههم مبللة بالمطر، وشاهدوا الرسوم وقالوا عزاء لأنفسهم إن للفولجا سحره حتى في الجو السيئ أما ساعة الحائط الرخيصة فمضت تتك تك تك وتجمع الذباب المفرور في الركن الأمامي بجوار الأيقونات وهو يئز، وتناهى صوت الصراصير وهي تعبث في المحافظ السميكة تحت الأرائك .

عاد ريابرفسكي إلى البيت عند الغروب وألقى قبعته على الطاولة وتهالك

على الأريكة شاحباً، منهكاً وفي حذاء قذر، وأغمض عينيه.

-أنا متعبقال وهو يحرك حاجبيه محاولاً أن يفتح جفنيه ولكي تتقرب أولجا إيفانوفنا إليه وتبدى له أنها ليست غاضبة منه، اقتربت وقبلته في صمت، ومرت بالمشط في شعره الأشقر فقد أرادت أن تمشطه.

فانتفض ريا بوفسكى وكأن شيئاً بارداً قد مسه، وسأل وهو يفتح عينيه :
-ماهذا! ما هذا؟ دعيني لحالي، أرجوك.

وأبعدها عنه بيديه، وتنحى قليلاً، وخيل إليها أن تعابير وجهه تنم عن التقزز والأسى وفي تلك اللحظة دخلت الفلاحة حاملة في يديها طبقاًمن حساء الكرنب، ورأت أولجا إيفانوفنا أصابع الفلاحة الكبيرة وهي مغموسة في الحساء وبدت لها هذه المرأة القذرة المحزومة البطن، والحساء الذي أخذ ريابوفسكى يلتهمه بشراهة

والبيت، وكل هذه الحياة التي أحبتها كثيراً في البداية لبساطتها وفوضاها الفنية، بدت لها الآن فظيعة وفجأة أحست بالإهانة فقالت ببرود :

-نبغي أن نفترق لبعض الوقت، وإلا فقد نتشاجر جدياً بسبب الملل لقد سئمت كل هذا سأرحل اليوم.

-وكيف؟ هل ستمتطين صهوة عصا؟ -اليوم خميس، إذن فسيأتي المركب في التاسعة والنصف. -هه ؟ نعم، نعم حسناً، سافرى - قال ريابوفسكى بنعومة وهو يمسح فمه بالفوطة بدلاً من المنديل - أنت هنا تسأمين ولا عمل لديك، وينبغي أن أكون أنانياً كبيراً حتى أمنعك من الرحيل سافرى، وبعد يوم عشرين سنتقابل وحزمت أولجا إيفانوفنا أمتعتها بمرح، بل إن خديها تضرجا من السرور وسألت نفسها: أحقاًسوف ترسم في غرفة الاستقبال وتنام في غرفة النوم وتتغدى على طاولة بمفرش؟ وانزاح الأسى عن قلبها ولم تعد غاضبة على المصوروقالت :

-سأترك لك الألوان والفرش يا ريابوشا وما يبقى منها أحضره معكإياك أن تتكاسل وتكتئب هنا بدونى، بل اعمل أنت شاطر يا ريابوشافي التاسعة قبلها ريابوفسكى قبلة الوداع لكي لا يقبلها، كما اعتقدت، أمام المصورين على ظهر المركب، وودعها حتى المرفأ وسرعان ما وصل المركب وحملها.

ووصلت إلى البيت بعد يومين ونصف ودون أن تنزع القبعة ومعطف المطر، مضت إلى غرفة الاستقبال وأنفاسها تتلاحق من الانفعال، ثم دلفت من هناك إلى غرفة الطعام كان ضيموف جالساً إلى المائدة بدون سترة، في صديري مفتوح الأزرار، وهو يسن السكين بالشوكة، وأمامه في الطبق ديك برى وعندما دخلت أولجا إيفانوفنا الشقة كانت موقنة بأنها لابد أن تخفى عن زوجها كل ما حدث، وأن لديها من المهارة والقدرة ما يمكنها من ذلك بيد أنها الآن، عندما رأت هذه الابتسامة العريضة المستكينة السعيدة، والعينين البراقتين الفرحتين أحست أن إخفاء الأمر عن هذا الإنسان شيء وضيع مقزز ومستحيل، لا تقوى عليه تماماً مثل الافتراء والسرقة أو القتل، فقررت في لحظة أن تروى له كل شيء وبعد أن تركته يقبلها ويعانقها، جثت أمامه على ركبتيها وغطت وجهها بيديها فسأل ضيموف برقة - :ماذا؟ ماذا يا ماما؟ اشتقت إلى؟ .

ورفعت إليه وجها مضرجاً بحمرة الخجل، ونظرت إليه نظرة مذنبة وضارعة، ولكن الخوف والخجل منعاها من أن تقول الحقيقةوقالت :

-لاشيهكذافأنهضها ضيموف وأجلسها قائلا - :فلنجلس نعم هكذا كلى الديك لقد جعت يا مسكينة !واستنشقت بنهم الهواء المألوف وأخذت تأكل الديك البرى بينما أخذيتطلع إليها بحب ويضحك بسعادة ويبدو أن ضيموف بدأ في منتصف الشتاء يخمن أنها تخونه وكأنما كان ضميره هو الذي يعذبه

إذ لم يعد يستطيع أن ينظر مباشرة في عيني زوجته، ولم يعد يبتسم بفرح عند رؤياها، ولكي يقلل من فترة بقائه معها على انفراد كان كثيراً ما يدعو إلى الغداء زميله كوروستليوف، وهو رجل قصير حليق الشعر ذو وجه مكرمش وعندما كان يتحدث مع أولجا إيفانوفنا يفك جميع أزرار سترته ويزررها ثانية من الخجل ثم يروح يبرم شاربه الأيسر بيده اليمنى وأثناء الغداء كان الطبيبان يتحدثان في أن ارتفاع الحجاب الحاجز يؤدي أحياناً إلى اضطراب ضربات القلب، أو في ازدياد الحالات العصبية في الفترة الأخيرة، أو في أن ضيموف عندما شرح أمس جثة بتشخيص أنيميا خبيثة اكتشف سرطاناً في البنكرياس وبدا وكأنهما يخوضان في أحاديث طبية فقط لكي يعطيا أولجا إيفانوفنا فرصة لأن تصمت،أي لكيلا تكذب وبعد الغداء كان كوروستليوف يجلس إلى المعزف، بينما يتنهد ضيموف ويقول - :إيه يا أخي! فليكن !اعزف لنا شيئاً حزيناً.

ويرفع كوروستليوف كتفيه عالياً ويبسط أصابعه ويعزف بعض النغمات ويبدأ في الغناء بصوت تينور دلني على دار لا يئن فيها الفلاح الروسى ويتنهد ضيموف ثانية ويعتمد برأسه على قبضته ويستغرق في التفكير.

وفي الآونة الأخيرة كانت أولجا إيفانوفنا تتصرف بصورة غير حذرة للغاية كانت تستيقظ كل صباح في أشد حالات الكدر وبفكرة أنها لم تعد تحب ريابوفسكى وأن كل شيء قد انتهى والحمد لله

ولكن بعد أن تشرب القهوة تدرك أن ريابوفسكى سلبها زوجها، وأنها الآن أصبحت بلا زوج وبلا ريابوفسكى وبعد ذلك تتذكر أحاديث معارفها عن أن ريابوفسكى يعد للمعرض شيئاً صاعقاً، خليطاً من المنظر والموضوع، حسب ذوق بولينوف، شيئاً يثير إعجاب كل من يزور مرسمه وفكرت أولجا إيفانوفنا في سرها أن هذا قد أبدعه تحت تأثيرها، وعموماً فبفضل تأثيرها عليه تغير بشدة نحو الأفضل إن تأثيرها عليه مفيد بحيث لو تركته فربما انتهى وتذكرت أيضاً أنه زارها في المرة الأخيرة في سترة رمادية وفي ربطة عنق جديدة وسألها بنظرة ساهمةهل أنا جميل؟ وبالفعل كان بخصلاته الطويلة وعينيه الزرقاوين وأناقته جميلاً جداً (أو ربما خيل إليها هكذا) وكان رقيقا معها.

وبعد أن تتذكر أولجا إيفانوفنا الكثير وتقلبه في رأسها ترتدي ثيابها في حالة من الاضطراب الشديد وتتجه إلى مرسم ريابوفسكى وتجده مرحاً ومعجباً بلوحته الرائعة بالفعل كان يقفز ويتشاقى ويرد بالنكات على الأسئلة الجادة وغارت أولجا إيفانوفنا على ريابوفسكى من اللوحة ومقتهما، ولكنها بدافع المجاملة كانت تقف أمامها صامتة حوالي خمس دقائق، وتتنهد كما يتنهد المرء أمام شيء مقدس، وتقول بصوت منخفض :

-نعم، لم ترسم أبداً شيئاً مثل هذا أتدرى؟ إنها تثير الرهبة ثم تروح تتوسل إليه أن يحبها، وألا يهجرها، وأن يشفق عليها المسكينة البائسة كانت تبكي وتقبل يديه وتلح عليه أن يقسم لها بأنه يحبها، وتثبت له أنه بدون تأثيرها الطيب سيضل الطريق ويهلك

وبعد أن تفسد عليه مزاجه الرائق وتحس بنفسها مهانة، ترحل إلى الخياطة أو إلى أحدى معارفها الممثلات لتدبر أمر بطاقة فإذا لم تجده في المرسم تترك له رسالة تقسم فيها إنها سوف تنتحر بالسم حتماً إذا لم يأت إليها اليوم ويخاف ربابوفسكى فيأتى ويبقى لتناول الغداء ولم يكن يخجل من وجود زوجها فيخاطبها بتبجح، وترد عليه بنفس الصورة كان كلاهما يحس بأنه يكبل الآخر وبأنهما طاغيتان وعدوان فيزدادان غلاً، ويعميهما الغل عن ملاحظة سلوكهما الفاضح وعن أنه حتى كوروستليوف الحليق يدرك كل شيء وبعد الغداء كان ريابوفسكى يسرع بالوداع والانصرافقتسأله أولجا إيفانوفنا في المدخل وهي تنظر إليه بكراهية: - إلى إين أنت ذاهب؟ .

فيمتعض ويزر عينيه، ويذكر اسم إحدى النساء من معارفهما المشتركين، وكان واضحاً أنه يسخر من غيرتها ويريد أن ينغص عليهافكانت تمضي إلى غرفة نومها وتستلقي في الفراش وبسبب الغيرة والأسى والإحساس بالمهانة والخزي كانت تعض الوسادة وتعول بصوت عال فيترك ضيموف كوروستليوف في غرفة الجلوس، ويذهب إلى غرفة النوم ويقول لها بصوت خافت وهو محرج ومرتبك :

-لا تبكي بصوت عال يا ماما لماذا؟ عليك أن تسكتى على هذا عليك ألا تبدي ما بك أتدرين أن ما وقع لا يمكن إصلاحه؟ .

ودون أن تدرى أولجا إيفانوفنا كيف تكبت في نفسها غيرتها الممضة التي كان صدغاها يكادان يتكسران بسببها، وإذ تعتقد أنه ما زال من الممكن إصلاح الأمور، تنهض فتغتسل وترش البودرة على وجهها الباكى، وتطير قاصدة السيدة معرفتها وعندما لا تجد ريابوفسكى عندها، تذهب إلى سيدة أخرى، ثم إلى ثالثة وفي البداية كانت تخجل من هذا الطواف، ولكنها تعودت على ذلك فيما بعد، وكان يحدث أن تطوف في مساء واحد بجميع معارفها من النساء بحثاً عن ريابوفسكى، وكان الجميع يدركون ذلك وذات مرة قالت لريابوفسكى عن زوجها - :هذا الرجل يرهقني بسماحته !.

وأعجبتها هذه الجملة لدرجة أنها عندما كانت تلتقى بالمصورين الذين كانوا يعرفون قصة غرامها مع ريابوفسكى، كانت تقول في كل مرة وهي تحرك يدها حركة حادة :

-هذا الرجل يرهقني بسماحته.

وظل نظام حياتها كما كان في العام الماضي فالحفلات تقام في أيام الأربعاء ويلقى الممثل،ويرسم المصورون،ويعزف عازف الفيولنشلو، ويغنى المطرب، وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف يفتح الباب المؤدي إلى غرفة الطعام، ويقول ضيموف وهو يبتسم - :تفضلوا إلى المائدة يا سادة.

وظلت أولجا إيفانوفنا كما في السابق تبحث عن الأشخاص العظام، وتجدهم ولا تكتفي فتبحث من جديد وكما في السابق كانت تعود كل يوم في ساعة متأخرة من الليل، ولكنها لا تجد ضيموف نائماً كما في العام السابق، بل جالساً إلى مكتبه يعمل وكان يأوي إلى الفراش في حوالي الثالثة ويستيقظ في الثامنة وذات مساء، عندما كانت واقفة أمام المرآة لتستعد للذهاب إلى المسرح، دخل ضيموف مرتدياً حلة سهرة وربطة عنق بيضاء كان يبتسم بوداعة، ونظر في عيني زوجته مباشرة بفرح كما في السابق كان وجهه متهللاً.

وقال وهو يجلس ويمسد ركبتيه: لقد ناقشت الآن رسالة الدكتوراه فسألته أولجا إيفانوفنا :ونجحت المناقشة؟ .

-أيوه وضحك ومد رقبته لكي يرى في المرآة وجه زوجته التي ظلت مولية ظهرها له وتصلح تسريحتها، وردد - أيوه !أتدرين، من المحتمل جداً أن يعرضوا على بريفات - دوتسنتوراه في الباثولوجي العام يبدو كذلك.

كان واضحاً على وجهه السعيد المنهلل أنه لو شاركته أولجا إيفانوفنا فرحته وانتصاره، لغفر لها كل شيء، في الحاضر والمستقبل ولنسى كل شيء، ولكنها لم تكن تفهم معنى بريفات - دوتسنتورا والباثولوجي العام، وعلاوة على ذلك كانت تخشى أن تتأخر عن المسرح، فلم تقل شيئاً.

فجلس ضيموف دقيقتين ثم ابتسم ابتسامة مذنبة، وخرجكان ذلك يوماً مزعجاً في الصباح أحس ضيموف بصداع شديد ولم يتناول الشاي في الصباح،ولم يذهب إلى المستشفى، وظل طوال الوقت راقداً على الكنبة التركية في غرفة مكتبه وكالعادة توجهت أولجا إيفانوفنا في الثانية عشرة إلى ريابوفسكى لتريه مشهد ناتور - مور رسمته وتسأله لم لم يحضر أمس؟ وكان الرسم يبدو لها تافهاً، ولم ترسمه إلا لتجد ذريعة أخرى لزيارة المصور.

دخلت دون جرس، وبينما كانت تخلع خفها في المدخل خيل إليها أنهاسمعت صوت هرولة خفيفة في المرسم وحفيف ثوب نسائى، وعندما أسرعت لتلقي نظرة على المرسلمتر إلا جانباً من جونلة بنية ظهر لحظة واختفي وراء لوحة كبيرة مغطاة هي والحامل بغطاء أسود منسدل حتى الأرض لم يكن ثمة مجال للشك لقد كانت تختفي هنا امرأة وكم مرة اختفت أولجا إيفانوفنا نفسها وراء هذه اللوحة! ويبدو أن ريابوفسكى كان مرتبكاً للغاية فتظاهر بإبداء دهشة لمجيئها، ومد نحوها كلتا ذراعيه وقال وهو يعتصر ابتسامة :اناسعيد جداً برؤياك ماذا لديك من أنباء طيبة؟ .

اغرورقت عينا أولجا إيفانوفنا بالدموع كانت تشعر بالخجل والمرارة، ولم تكن لتوافق، ولو دفعوا لها مليوناً، على الكلام في حضرة امرأة غريبة، غريمة ومخادعة، تقف الآن خلف اللوحة وربما تضحك بتشفجئت إليك بمشهد قالت بوجل وبصوت رفيع، وارتعشت شفتاها ناتور - مورآهمشهد؟

وأخذ المصور المشهد في يديه وراح يتفحصه وهو يسير إلى الغرفة الأخرى كأنما بصورة آليةوتبعته أولجا إيفانوفنا بإذعان ودمدم وهو ينتقى كلمات مسجوعة - :ناتور - مور - أحسن دور بورحور سور.

وتناهي من المرسم وقع خطوات حثيثة وحفيف فستان إذن فقد خرجت تلك وودت أولجا إيفانوفنا لو صرخت بصوت عال وضربت المصور بشيء ثقيل على رأسه وانصرفت ولكنها لم تر شيئاً خلال الدموع، وكانت مقهورةمن الخجل، وأحست في نفسها بأنها ليست أولجا وليست مصورةبل حشرة صغيرة.

- أنا متعب قال المصور ساهماً وهو يتطلع إلى المشهد ويهز رأسه ليطرد عنه النعاس - هذا طبعاً جميل، ولكن اليوم مشهد، وفي العام الماضي مشهد، وبعد شهر سيكون مشهد كيف لا تملين ذلك؟ لو كنت مكانك لتركت التصوير وأنكببت جدياً على الموسيقى أو أي شيء آخر إنك لست مصورة بل موسيقارة ولكن أتعلمين كم أنا متعب سأطلب لك شاياً، هه؟ .

وخرج من الغرفة وسمعته أولجا إيفانوفنا وهو يأمر خادمه بشئ ما ولكي لا تودعه،وتتصارح معه، والأهم من ذلك لكي لا تنتحب،هرولت بسرعة إلى المدخل قبل أن يعود ريابوفسكى، وارتدت خفها وخرجت إلى الشارع وهناك تنفست الصعداء وأحست بنفسها حرة إلى الأبد من ريابوفسكى ومن التصوير، ومن الخجل الممض الذي أطبق على قلبها في المرسم انتهى كل شيء.

وتوجهت إلى الخياطة، ثم إلى برناى الذي وصل بالأمس فقط، ومنه إلى متجر للنوت الموسيقية، وظلت طول الوقت تفكر في الرسالة التي ستكتبها لريابوفسكى، رسالة باردة، قاسية، مفعمة بالعزة، وفي أنها ستسافر مع ضيموف في الربيع أو الصيف إلى القرم، لتتخلص هناك تماماً من الماضي وتبدأ حياة جديدةوعندما عادت إلى البيت في ساعة متأخرة من المساء، لم تبدل ثيابها وجلست في غرفة الجلوس تدبج الرسالة لقد قال لها ريابوفسكى إنها ليست مصورة، وسوف تكتب الآن، انتقاماً منه، إنه يرسم كل عام نفس الشيء، ويقول كل يوم نفس الشيء، وإنه قد ركد ولن يبلغ شيئاً أكثر مما بلغ وأرادت أن تكتب أيضاً إنه مدين لها بتأثيرها الطيب عليه، وإذا كان يسلك سلوكاً مشيناً فذلك فقط راجع إلى أن تأثيرها تشله شتى السيدات المريبات، كتلك التي اختبأت اليوم وراء اللوحة.

-اما !- نادي ضيموف من غرفة المكتب دون أن يفتح الباب - ماما – !

ماذا تريد؟

-ماما، لا تدخلى على، بل اقتربي فقط من الباب اسمعى منذ ثلاثة أيام انتقلت إلى في المستشفى عدوى الدفتريا، والآن حالتى سيئة أرسلى بسرعة في طلب كوروستلوف.

كانت أولجا إيفانوفنا تدعو زوجها، ككل معارفها الرجال، باسم عائلته لا باسمه، فلم يكن اسم زوجها يعجبها لأنه كان يذكرها بشخصية أوسيب عند جوجول، أما الآن فقد صاحت - :أوسيب، هذا لا يمكن !.

-أرسلي في طلبه! حالتى سيئة قال ضيموف خلف الباب، وسمع وقع خطواته وهو يتجه إلى الكنبة ويستلقي عليها، وجاء صوته مكتوماً أرسلى ! وفكرت أولجا إيفانوفنا والرعب يجمد أطرافها: ما هذا؟ إنه شيء خطر .

ودونما داع تناولت شمعة ومضت إلى غرفتها، وهنا أدركت ماالذي ينبغي عليها أن تفعله، ونظرت عرضاً إلى صورتها في المرآة وبدت لنفسها مخيفة ودميمة بوجهها الشاحب المذعور، وبسترتها ذات الأكمام العالية والشرائط الصفراء على الصدر، والخطوط ذات الاتجاهات غير العادية في الجونلة وفجأة أحست لدرجة الألم بالأسف على ضيموف، وعلى حبه اللا محدود لها، وعلى حياته الشابة، بل حتى على فراشه هذا اليتيم الذي لميعد يرقد فيه من زمن طويل، وتذكرت ابتسامته المألوفة الوادعة المذعنة وبكت بحرقة وكتبت لكوروستليوف رسالة ضارعة وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً.

عندما خرجت أولجا إيفانوفنا من غرفة النوم في الثامنة صباحاً،شعرت بصداع في الرأس بسبب السهاد، وغير مصففة الشعر وقبيحة وبتعبير مذنب على وجهها، مر بجوارها شخص ما أسود اللحية

يبدو أنه طبيب وانتشرت رائحة الأدوية وبجوار باب غرفة المكتب وقف كوروستليوف وهو يبرم شاربه الأيسر بيده اليمني وقال لأولجا إيفانوفنا متجهماً :

عفواً، لن أسمح لك بالدخول إليه قد يعديك وعموماً فلا حاجة لدخولك في الواقعإنه على أية حال يهذيفسألت أولجا إيفانوفنا بهمس: -

هل عنده دفتريا حقيقة؟ فدمدم كوروستليوف دون أن يجيب على سؤال أولجا إيفانوفنا :

-أولئك الذين يندفعون بتهور ينبغي محاكمتهم في الواقع أتعلمين كيف أنتقلت إليه العدوى؟ في يوم الثلاثاء شفط بالأنبوبة أغشية الدفتريا من طفل مريض فما الداعى؟ حماقة هكذا، بلا تفكير.

فسألت أولجا إيفانوفنا - :هل هذا خطير؟ جداً؟ - نعم، يقولون إن الحالة صعبة، في الواقع ينبغي أن نستدعى شريكوجاء رجل صغير، أحمر الشعر، طويل الأنف، ويتحدث بلكنة يهوديةثم رجل طويل، مقوس، مشعث الشعر يشبه رئيس الشمامسة وبعده جاء شاب، بدين جداً، أحمر الوجه، يضع نظارة كانوا أطباء جاءوا ليسهروا بجوار زميلهم ولم يكن كوروستليوف ينصرف إلى داره بعد أن يقضي نوبة سهره، بل يبقى وهو يطوف بالغرف كلها كالظل

وكانت الخادم تقدم الشاي للأطباء المناوبين وتذهب كثيراً إلى الصيدلية، ولم يكن هناك من ينظف الغرف وساد جو من الهدوء والوحشة.

وجلست أولجا إيفانوفنا في غرفة النوم وأخذت تفكر في أن هذا عقاب من الله لها على خداعها لزوجها كان هناك مخلوق صموت، مطيع، غير مفهوم، فقد شخصيته بسبب وداعته، مخلوق بلا إرادة، وضعيف بسبب طيبته الزائدة، يتعذب هناك على الكنبة في غرفته دون أن يشكو ولو أنه اشتكى، حتى في الهذيان، لعلم الأطباء المناوبون أن الدفتريا ليست المذنبة وحدها، وليسألوا كوروستليوف فهو يعرف كل شيء،ولذلك فهو ينظر إلى زوجة صديقه نظرات وكأنها هي الشريرة الأولى الحقيقية، وما الدفتريا الا شريكتها ولم تعد تذكر الأمسية المقمرة على الفولجا ولا الاعتراف بالحب، ولا الحياة الشاعرية فيالبيت الفلاحي بل كانت تذكر فقط أنها بدافع النزوة الفارغة واللهو قد تلطخت كلها، بيديها ورجليها، بشيء قذر، لزج، لن يزيله أبداً أي غسيلآه، كم كذبت بفظاعة !!فكرت أولجا إيفانوفنا وتذكرت حبها القلق الريابوفسكى. اللعنة على كل ذلك في الساعة الرابعة تناولت الغداء مع كوروستليوف ولم يذق شيئاً، بل شرب فقط النبيذ الأحمر، وتجهم ولم تذق هي أيضاً أي شيء وكانت تارة تصلى في سريرتها وتقسم لله بأنها، إذا ما شفى ضيموف فسوف تحبه ثانية وتبقى زوجة وفية له وتارة تنسى لحظة فتنظر إلى كوروستليوف وتفكر: أليس من الممل حقاً أن يكون المرء بسيطاً، لا يتميز بشيء، إنساناً مجهولاً

وفوق ذلك يكون له وجه مكرمش كهذا، وتصرفات غير مهذبة؟ وتارة يخيل إليها أن الله سيقضى عليها في التو واللحظة لأنها، خوفاً من العدوى، لم تدخل غرفة مكتب زوجها بعد ولا مرة وعموماً فقد كانت تحس بالتبلد والوحشة وبقناعة أن الحياة قد فسدت ولن يمكن إصلاحهاحل الغسق بعد الغداء وعندما خرجت أولجا إيفانوفنا إلى غرفة الجلوس كان كوروستليوف نائماً على الأريكة، وقد وضع تحت رأسهوسادة حريرية مطرزة بخيوط مذهبة وكان شخيرة يتصاعد كخيبوا كنى بوا.

وحتى الأطباء الذين يجيئون للمناوبة، وينصرفون لم يلاحظوا هذه الفوضى

فوجود شخص غريب نائم في غرفة الجلوس ويشخر والمشاهد المعلقة على الجدران والوضع الغريب في البيت، وربة الدار غير المصففة الشعر والمهملة الثياب كل ذلك لم يعد يثير الآن أدنى اهتمام وضحك أحد الأطباء عرضاً، فتردد هذا الضحك غريباً وخجلاً، بل وأثار الرهبةوعندما خرجت أولجا إيفانوفنا إلى غرفة الجلوس مرة أخرى، لم يكن كوروستليوف نائماً بل جالساً يدخن وقال لها في شبه همس :

لديه دفتريا التجويف الأنفي أصبح القلب يعمل بشكل مضطربالأحوال سيئة في الواقعفقالت أولجا إيفانوفنا - :أستدع شريك؟ .

كان هنا بالفعل وهو الذي لاحظ أن الدفتريا انتقلت إلى الأنف إيه وماذا يفعل شريك، في الواقع شريك لا شيء إنه شريك وأنا كوروستليوف ولا شيء أكثرمضى الوقت ببطء رهيب كانت أولجا إيفانوفنا مستلقية بثيابها في الفراش الذي لم يرتب منذ الصباح وهي تغفو وتراءى لها أن الشقة كلها ملأى من السقف حتى الأرض بقطعة ضخمة من الحديد، وأنه ما إن يلقي بهذا الحديد إلى الخارج حتى يشعر الجميع بالخفة والمرح وعندما استيقظت تذكرت أن ذلك ليس حديداً بل هو مرض ضيموف.

وفكرت وهي تغفو من جديد: ناتور مور بور حور وكيف شريك؟ شريك، بريك، فريك، كريك،وأين الآن أصدقائي؟ هل يعلمون بمحنتنا؟ يا إلهي الرحمة، النجاة شريك، بريك.

ويعود الحديد ثانية والوقت يمضي ببطء والساعة في الطابق الأسفل تدق كثيراً ومن حين لآخر يدق جرس الباب ويدخل الأطباء ودخلت الخادم تحمل كوباً فارغاً على صينية وسألت :

-سيدتى، هل تأمرين بإعداد الفراش؟ .

وخرجت دون أن تتلقى جواباً ودقت الساعة في الأسفل، ورأت أولجا إيفانوفنا في الحلم المطر يسقط على الفولجا، ومرة أخرى دخل غرفة النوم شخص ما، يبدو أنه غريب

فقفزت أولجا إيفانوفنا وعرفت فيه كوروستليوففسألته - :كم الساعة؟ - حوالي الثالثة - ماذا هناك ؟ -وماذا هناك ! جئت أقول إنه يحتضروأجهش بالبكاء، وجلس على السرير بجوارها، ومسح دموعه بكمه ولم تدرك ما قاله على الفور، ولكن البرودة شملت جسدها كله، أخذت ترسم علامة الصليب ببطءوردد كوروستيوف بصوت رفيع :يحتضر وأجهش ثانية- إنه يموت لأنه ضحى بنفسه وقال بمرارة - يا لها من خسارة للعلم لقد كان بالمقارنة بنا جميعاً إنساناً عظيماً، إنساناً غير عادى !أية مواهب! أية آمال كنا نعلقها عليه !ومضى يقول وهو يعصر يديه .

-يا ربي، كان من الممكن أن يصبح عالماً لا مثيل له الآن أوسكا ضيموف، أوسكا ضيموف، ما الذي فعلته! آه يا إلهى. !

وغطى كوروستليوف وجهه بكلتا يديه من اليأس وهز رأسه ومضى يقول وهو يزداد حقداً على شخص ما :

وأية قوة أخلاقية! روح طيبة، طاهرة، محبة لم يكن إنساناً، بل بلوراً! عاش في خدمة العلم ومات بسبب العلم كان يعمل كالبغل، ليل نهار، ولم يرحمه أحد، وكان عليه وهو العالم الشاب والأستاذ المقبل أن يبحث عن زبائن، وأن يعمل في الترجمة ليلاً لكي يدفع ثمن هذه اللخرق الحقيرة !.

وتطلع كوروستليوف بمقت إلى أولجا إيفانوفنا، وأمسك الملاءة بكلتا يديه وشدها بغضب، وكأنها هي المذنبة -لم يرحم نفسه، ولم يرحمه الآخرون آوه، ماذا أقول، في الواقع !.

وقال شخص ما في غرفة الجلوس بصوت غليظ -:نعم، كان إنساناً نادراً وتذكرت أولجا أيفانوفنا كل حياتها معه، من البداية حتى النهاية بكل تفاصيلها، وأدركت فجأة أنه كان بالفعل إنساناً غير عادي ونادراً بالمقارنة مع من كانت تعرفهم وعندما تذكرت كيف كان يعامله المرحوم أبوها وكل زملاؤه الأطباء، أدركت أنهم جميعاً كانوا يرون فيه رجلاً عظيما في المستقبل وغمزت لها الجدران والسقف والمصباح والبساط بتهكم وكأنها تريد أن تقول لهايا غافلة، يا غافلة! فانطلقت من غرفة النوم وهي تبكى، وعبرت غرفة الجلوس مارة بشخص غريب، واندفعت إلى غرفة مكتب زوجها كان ممدأبلا حراك على الكنبة التركية، مغطى إلى نصفه ببطانيه ضمر وجهه وهزل بشدة وأصبح لونه رمادياً أصفر بصورة لا تبدو بها أبدًا وجوه الأحياء، وكان لا يمكن معرفة أن هذا هو ضيموف إلا من جبينه وحاجبيه الأسودين وابتسامته المعهودة وتحسست أولجا إيفانوفنا صدره وجبينه ويديه بسرعة كان صدره لا يزال دافئاً، لكن جبينه ويديه كانت باردة بصورة منفرة وكانت عيناه شبه المفتوحتين لا تنظران إلى أولجا إيفانوفنا، بل إلى البطانية ونادته بصوت عال - :ضيموف! ضيموف !.

كانت تريد أن تشرح له أن ذلك كان خطأ، وأنه لم يضع كل شيء بعد، وأن الحياة يمكن أن تكون رائعة وهنيئة، وأنه أنسان نادر، غير عادى، وعظيم، وأنها سوف تظل تقدسه طول العمر وتصلى له وتضمر الخوف المقدس. -ضيموف! ضيموف! يا ضيموف! دعته وهي تهزه من كتفه دون أن تصدق أنه لن يستيقظ أبداً .

وفي غرفة الجلوس كان كوروستليوف يقول للخادم :

-وفيم السؤال؟ اذهبي إلى خفير الكنيسة واسألي أين تقطن عجائز الملجأ سيغسلن الجسد ويهندمنه، ويقمن بكل المطلوب.

السيدة صاحبة الكلب

قيل إن وجهاً جديداً ظهر على الكورنيش، سيدة تصحب كلبا أخذ دميترى دميتريتش جوروف الذي وصل إلى يالطا منذ أسبوعين وألف المكان، يهتم بالوجوه الجديدة هو الآخر ورأى وهو جالس في جناح فيرنيه كيف مرت على الكورنيش سيدة شابة، شقراء، متوسطة القامة، تضع على رأسها بيريه ووراءها ركض كلب أبيض صغير.

ثم قابلها بعد ذلك في حديقة المدينة وفي المنتزهعدة مرات في اليوم كانت تتنزه وحدها، في نفس البيريه وبصحبة الكلب الأبيض ولم يعرف أحد من هي، فسموها ببساطة: السيدة صاحبة الكلب.

وفكر جوروف: إذا كانت هنا بدون زوجها وبدون معارف، فلا بأس من التعرف بها.

لم يكن قد بلغ الأربعين بعد، ولكنه كان أباً لبنت في الثانية عشرة وولدين في المدرسة لقد زوجوه مبكراً، وهو بعد طالب في الصف الثاني، وبدت زوجته الآن أكبر منه سناً بمرة ونصف كانت امرأة طويلة، بحاجبين داكنين، صريحة، متكبرة، رزينة، وكما كانت تسمى نفسها: مفكرة وكانت تقرأ كثيراً، ولا تكتب في رسائلها حرفوتدعو زوجها لا دميترى بل ديميترى

كان هذا الحرف يكتب سابقاً في آخر الكلمات الروسية المنتهية بحرف ساكن بينما كان يعدها في سره امرأة غير ذكية محدودة الأفق، غير لبقة وكان يخشاها ولا يحب البقاء في البيت وقد بدأ يخونها منذ زمن بعيد، وكان يخونها كثيراً، وربما لذلك كان رأيه في النساء سيئاً دائماً وعندما يدور الحديث عنهن في حضوره كان يسميهن هكذا :- جنس منحط !.

كان يظن أن تجربته المرة قد علمته بما يكفي لكي يسميهن كما يشاء، ومع ذلك فبدون الجنس المنحط لم يكن ليستطيع أن يعيش يومين اثنين كان يشعر بين الرجال بالملل والضيق، وكان معهم قليل الكلام، بارداً، ولكنه عندما يصبح وسط النساء يحس بالحرية ويعرف عم يتحدث معهن وكيف يتصرف، وحتى الصمت كان سهلاً عليه كان في مظهره وخلقه، وفي طبيعته كلها شيء ما جذاب خفي، يستميل إليه النساء ويستهويهن وكان يعرف ذلك، وهو أيضاً كانت قوة ما تشده إليهن.

وقد علمته التجارب العديدة، والمريرة حقاً، منذ زمن بعيد، أن كل تقارب، إذ يجعل الحياة في البداية أكثر تنوعاً وبهجة ويمثل مغامرة لطيفة خفيفة، لا بد أن يتحول لدى الأشخاص القويمى السلوك خاصة أهالى موسكو، البطيئى الحركة، المترددين، إلى مسألة كبيرة معقدة للغاية، ويصبح الوضع في النهاية مرهقاً ومع ذلك فلدى كل لقاء جديد بامرأة جذابة كانت هذه التجارب تغيبب صورة ما عن ذاكرته، وتراوده الرغبة في الحياة ويبدو كل شيء بسيطاً ومسلياً

وذات مرة، قبيل المساء، كان يتغدى في الحديقة، واقتربت السيدة ذات البيريه على مهل لكي تشغل الطاولة المجاورة وأنبأه تعبير وجهها، ومشيتها، وفستانها، وتسريحتها، أنها من وسط محترم، متزوجة وفي يالطا لأول مرة وبمفردها وأنها تشعر بالملل هنا كان في الأقاصيص التي تروى عن فساد الأخلاق المحلية الكثير من الكذب، وكان يحتقرها ويعلم أن مثل هذه القصص، في أغلبها، يؤلفها أشخاص لو كان بمقدورهم لارتكبوا الآثام عن طيب خاطر ولكن عندما جلست السيدة إلى الطاولة المجاورة، على بعد ثلاث خطوات منه، تذكر تلك القصص عن الانتصارات السهلة والرحلات إلى الجبال، وسيطرت عليه فجأة فكرة مغرية عن علاقة قريبة عابرة، عن قصة غرام مع امرأة مجهولة لا يعرف اسمهاودعا الكلب إليه بلطف، وعندما اقترب منه رفع أصبعه مهدداً، فنبح الكلب مغضبا وهدده جوروف ثانية ونظرت إليه السيدة وخفضت بصرها على الفور وقالت -:إنه لا يعض وتضرجت وجنتاهاهل يمكن أن أعطيه عظمة؟- وعندما هزت رأسها موافقة سألها ببشاشة.

-هل وصلت إلى يالطا منذ مدة طويلة؟ .

-منذ خمسة أيام أما أنا فأجرجر الأسبوع الثاني هنا وصمتا قليلاًثم قالت دون أن تنظر إليه - :الوقت يمضي بسرعة، ومع ذلك فما أشد الملل هنا !.

إنها مجرد عادة أن يقال إن المكان هنا ممل ولكن الواحد من هؤلاء يعيش في بيته، في مكان ما في بليوف أو جيز در، دون أن يشعر بالملل، وما إن يأتي إلى هنا حتى يقول: آه يا للملل! يا للتراب!حتى لتظن أنه جاء من غرناطة وضحكت ثم واصلا الأكل في صمت كشخصين لا يعرفان بعضهما، ولكن بعد الغداء سارا متجاورين، وبدأ بينهما حديث مازح خفيف، حديث أناس أحرار، راضين، سيان لديهم إلى أين يمضون وعم يتحدثون، ومضيا يتنزهان ويتحدثان عن غرابة إضاءة البحر، فقد كان لون المياه بنفسجياً، ناعماً ودافئاً، وامتد عبرها من القمر شريط ذهبي وتحدثا عن الجو الخانق بعد يوم حار وأخبرها جوروف أنه من موسكو، وأنه خريج كلية الآداب ولكنه يعمل في بنك، وكان في وقت ما يستعد للغناء في أوبرا خاصة، ولكنه ترك ذلك، ويملك في موسكو منزلين وعرف منها أنها نشأت في بطرسبورج ولكنها تزوجت في مدينة س، حيث تعيش منذ عامين، وأنها ستقضي في يالطا حوالى شهر، وربما يأتي في أثرها زوجها الذي يريد أيضاً أن يستريح ولم تستطع أبداً أن توضح أين يعمل زوجها: في إدارة المحافظة أم في إدارة الإقليم وضحكت هي نفسها من ذلك وعرف جوروف أيضاً أن اسمها آنا سر جيفنا.

وبعد ذلك فكر فيها وهو في غرفته بالفندق، وفي أنها ربما تقابله غداً هكذا ينبغي أن يكون وعندما أوى إلى الفراش تذكر أنها منذ فترة قريبة كانت طالبة، كانت تدرس كما تدرس ابنته الآن

وتذكر كم كان في ضحكها وحديثها مع رجل غريب من تهيب وارتباك لا بد أنها المرة الأولى في حياتها التي تبقى فيها وحدها وفي وضع كهذا، عندما يغازلونها، ويتطلعون إليها ويتحدثون معها بهدف خفي واحد، لا يمكن ألا أن تحدسه وتذكر عنقها الرقيق الضعيف، وعينيها الرماديتين الجميلتين وفكر جوروف وهو يستسلم للنوم: هناك شيء ما فيها يثير الشفقة مع ذلك.

مر أسبوع منذ تعارفهما وكان يوم عيد كان الجو في الغرف خانقاً، وفي الشوارع ثارت دوامات الغبار، وطيرت الريح القبعات واستبد بهما الظمأ طول النهار، فكان جوروف يدخل الجناح كثيراً ويعرض على آنا سرجيفنا شراب عصير الفواكه تارة، والآيس كريم تارة أخرى ولم يكن ثمة مكان يلجأ إليهوفي المساء، عندما هدأ الجو قليلاً، ذهبا إلى حاجز الأمواج ليشاهدا مجيءالسفينة وكان في الميناء كثير من المتنزهين، وقد جاءوا لمقابلة أشخاص ما، وحملوا في أيديهم الزهور وهنا تبدت بوضوح خصيصتان تميزان جمهور يالطا المتأنق : فقد كانت النساء الكبيرات السن متزينات كالشابات، وكان هناك جنرالات كثيرون .

وبسبب اضطراب البحر وصلت السفينة متأخرة، بعد غروب الشمس، ودارت مدة طويلة قبل أن ترسو على الحاجز وتطلعت آنا سرجييفنا عبر العوينات إلى السفينة والركاب وكأنها تبحث عن معارف، وعندما كانت تخاطب جوروف تلمع عيناها تكلمت كثيراً، وكانت أسئلتها مقتضبة

وكانت تنسي على الفور عم سألت ثم فقدت عويناتها في الزحاموتفرق الجمهور المتأنق، ولم تعد الوجوه تبين، وهدأت الريح تماماً، بينما ظل جوروف وآنا سرجييفنا واقفين وكأنما ينتظران أن يهبط أحد آخر من السفينة كانت آنا سرجيفنا الآن صامتة، تشم الزهور دون أن تتطلع إلى جوروف.

وقال جوروف :الجو في المساء صار أفضل إلى أين سنذهب الآن؟ هلا رحلنا إلى مكان ما؟.

ولم ترد بشيء.عندئذ نظر إليها ملياً واحتضنها فجأة، وقبلها في شفتيها، فهبت عليه رائحة

الزهور ورطوبتها، وعلى الفور تلفت حوله بخوف: ألم يرهما أحد؟ .

ودمدم بصوت خافت - :فلنذهب إليك وانصرفا بسرعةكان الجو في غرفتها خانقاً، وتضوعت فيه رائحة العطر الذي ابتاعته في المتجر الياباني وفكر جوروف وهو ينظر إليها الآن:ما أكثر ما يحدث في الحياة من لقاءات لقد بقيت لديه من الماضي ذكرى نساء خاليات البال، طيبات، مرحات من الحب، ممتنات له على السعادة التي منحها أياهن وإن تكن قصيرة، ونساء - مثل زوجته أحببن بلا صدق وبثرثرة كثيرةوحركات مفتعلة وهستيريا، وبتعبير على الوجه، كأنما لم يكن ذلك حباً أو شهوة، بل شيئاً أهم بكثير وامرأتان أو ثلاث، بارعات الجمال، باردات، كان يطوف بوجوههن

فجأة تعبير جشع ورغبة عنيدة في أن يأخذن، ويختطفن من الحياة أكثر مما تستطيع أن تعطى، وكن نساء مضى شبابهن، نزقات، غير مفكرات، متسلطات، غير ذكيات، وعندما كان جوروف يشعر بالبرود نحوهن كان جمالهن يثير فيه الكراهية، وتبدو له الدانتلا على ملابسهن الداخلية أشبه بقشر السمكأما هنا فتلك الهيبة والارتباك لشباب غير محنك، والشعور بالخجل، وساد انطباع بالحرج كأنما طرق أحدهم الباب فجأة، ونظرت آنا سرجييفنا، هذه السيدة صاحبة الكلب، إلى ما حدث نظرة خاصة، وبجدية شديدة، وكأنما كان في ذلك سقوطها هكذا خيل لجوروف، فبدا له ذلك غريباً وغير مناسب تهدلت قسماتها وذبلت، وتدلت على صفحتي وجهها خصلات شعرها الطويل بصورة حزينة، استغرقت آنا سرجييفنا في التفكير بكآبة، فبدت في ذلك الوضع كالخاطئة في لوحة قديمةوقالت :

-هذا ليس حسنا إنك الآن أول من لا يحترمنيوكان على المائدة في الغرفة بطيخة، فشق جوروف قطعة وراح يأكلها على مهل ومر ما لا يقل عن نصف ساعة وهما صامتانكانت آنا سرجييفنا مؤثرة، وانبعث منها طهارة المرأة القويمة، الساذجة التي لم تخبر الحياة بعد وكانت الشمعة الوحيدة المشتعلة على الطاولة لا تكاد تضيء وجهها، بيد أنه كان واضحاً أنها تعاني عذاباً داخلياً.

وسألها جوروف:ولماذا أكف عن احترامك؟ أنت لا تدرين ما تقولين فقالت وعيناها تمتلئان بالدموع :فليغفر لى الله هذا فظيعكأنما تبحثين عن تبرير وكيف أبرر ذلك؟ انني امرأة سيئة، منحطة، إني أحتقر نفسي ولا أفكر في المبررات أنا لم أخدع زوجى بل خدعت نفسي وليس الآن فحسب، بل منذ زمن بعيد وأنا أخدعها ربما كان زوجي رجلاً شريفاً، طيباً، ولكنه خادم أنا لا أعرف ماذا يفعل ولا كيف يخدم، ولكن أعرف فقط أنه خادم كنت في العشرين من عمري عندما تزوجته، وكان الفضول يؤرقني وكنت أتوق إلى شيء ما أفضل كنت أقول لنفسي :هناك حياة أخرى حقاً كنت أريد أن أعيش وأعيش وأعيش كان الفضول يلهبني إنك لا تدرك ذلك، ولكني أقسم لك، لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي، كان هناك شيء ما يحدث لي، ولم يعد من الممكن لقوة أن تبقيني، فقلت لزوجي إنني مريضة وسافرت إلى هنا وها أنا ذا قد أصبحت امرأة مبتذلة، ساقطة، بوسع أي شخص أن يحتقرهاكان جوروف قد مل السماع، وأحنقته هذه النبرة الساذجة، وهذا الندم المفاجئ وغير المناسب ولولا الدموع في عينيها لظن أنها تمزح أو تؤدى دوراً.

وقال بصوت خافت :أنا لا أفهم، ماذا تريدين؟ ودفنت وجهها في صدره والتصقت به وقالت - :صدقنى، صدقني أتوسل إليك إنني أحب الحياة الشريفة، الطاهرة، أما الخطيئة فكريهة على، أنا نفسي لا أدري ما الذي أفعله البسطاء يقولون: الشيطان أضلنا

وبوسعي الآن أن أقول عن نفسي: لقد أضلني الشيطانفدمدم جوروف : كفى، كفيوتطلع إلى عينيها الجامدتين المفزوعتين، وقبلها، وراح يتحدث بصوت خافت وبرقة فهدأت شيئاً فشيئاً، وعاد إليها المرح أخذا كلاهما يضحكانوعندما خرجا إلى الكورنيش فيما بعد، لم يكن هناك أحد، وبدت المدينة بأشجار السرو ميتة تماماً، لكن البحر ظل يصخب ويضرب الشاطئ، وتراقص على الأمواج زورق وحيد وعليه مصباح يومض ناعساً ووجدا حوذياً ورحلا إلى أورياندا وقال جوروف :

لقد عرفت اسم عائلتك عندما كنا في المدخل، كان مكتوباً على اللوحةفون ديدريتس هل زوجك ألماني؟ .

-كلا، جده كان ألمانيا على ما أظن، أما هو فروسى أرثوذوكسى.

وفي أورياندا جلسا على أريكة، غير بعيد عن الكنيسة، وتطلعا إلى البحر في الأسفل وهما صامتانكانت يالطا تلوح بالكاد من خلال ضباب الصباح، وعلى قمم الجبال استقرت السحب البيضاء بلا حراك وسكنت أوراق الشجر وأزت زيزان الحصاد، أما صخب البحر الرتيب المكتوم المتناهي من أسفل فكان يتحدث عن السكينة والكرى الخالد الذي ينتظرنا هكذا كان البحر بصخب في الأسفل عندما لم تكن هناك يالطا وأورياندا، وهكذا يصخب الآن، وسوف يصخب في المستقبل بنفس اللامبالاة والصوت المكتوم عندما لا نعود على قيد الحياة

وفي هذه الاستمرارية، في هذه اللامبالاة التامة حيال حياة كل منا وموته، ربما يكمن ضمان خلاصنا الأبدى، ضمان حركة الحياة المستمرة على الأرض، والرقي المستمر وفكر جوروف وهو جالس بجوار امرأة شابة، بدت في الفجر على هذه الصورة من الجمال، مستكن النفس، مفتوناً بهذا الجو الأسطوري: البحر والجبال والسحاب والسماء الرحبة فكر في أن كل شيء رائع في هذا العالم حقاً لو أمعنا التفكير، كل شيء ما عدا ما نفكر فيه ونفعله عندما ننسى أسمى أغراض الوجود، وكرامتنا الإنسانية.

ومر بجوارهما شخص ما، يبدو أنه حارس، وتطلع إليهما ثم انصرف وهذه الحركة بدت أيضاً غامضة وجميلة ولاحت السفينة القادمة من فيودوسيا مطفأة الأنوار وقد أضاءها نور الفجر.

وقالت آنا سرجييفنا بعد صمت - :الندى على العشب - نعم، فلنعد وعادا إلى المدينةوبعد ذلك كانا يلتقيان كل ظهر على الكورنيش، ويفطران معاً، ويتغديان ويتنزهان ويعجبان بالبحر واشتكت له من أنها تنام نوماً سيئاً، وأن قلبها يدق بقلق، وكانت توجه إليه نفس الأسئلة وهي مضطربة من الغيرة تارة وتارة أخرى من خشية أنه لا يحترمها بما فيه الكفاية وكثيراً ما كان يحدث وهما في المنتزه أو الحديقة، وعندما لا يكون بقربهما أحد، أن يجذبها إليه فجأة ويقبلها بشهوة وهذا الفراغ المطلق، وهذه القبلات في وضح النهار مع التلفت والخوف من أن يكون أحد قد رآه

والحر، ورائحة البحر والحركة الدائبة أمام عينيه لأناس غير مشغولين، متأنقين، شباع، كأنما أعادت خلقه من جديد، فكان يقول لآنا سرجييفنا كم هي جميلة، وكم هي مغرية، وكان متلهفاً عليها ولم يفارقها خطوة واحدة، بينما كانت هي تستغرق في التفكير كثيراً، وترجوه طوال الوقت أن يعترف بأنه لا يحترمها ولا يحبها أبداً بل لا يرى فيها سوى امرأة مبتذلة وكانا كل مساء تقريباً يرحلان في وقت متأخر إلى مكان خارج المدينة، إلى أورياندا أو الشلال وكانت نزهاتهما موفقة، وفي كل مرة كانت الانطباعات دائماً رائعة، ومهيبة.

وانتظرا أن يصل زوجها، ولكنها تلقت منه رسالة يخبرها فيها أنه مريض بعينيه، وتوسل إليها أن تعود بسرعة وعجلت آنا سرجييفنا بالرحيل وهي تقول لجوروف :حسن أنني سأسافر هذه مشيئة الأقدار .

ورحلت في عربة ورحل معها إلى المحطة ليودعها وقطعا النهار كله في السفر وعندما استقلت عربة القطار السريع ودق ناقوس المحطة للمرة الثانية قالت :دعني أتطلع إليك ثانية مرة أخرى هكذا لم تبك، ولكنها كانت حزينة، وبدت كأنها مريضة، وكان وجهها يرتعشوقالت :

-سأفكر فيك وأتذكرك ابق في رعاية الله لا تذكرني بسوء إننا نفترق إلى الأبد هذا ضروري، لأنه ما كان ينبغي أن نلتقي حسناً، يرعاك الله.

ورحل القطار بسرعة، وسرعان ما غابت أنواره، وبعد دقيقة لم يعد ضجيجه مسموعاً، كأنما تآمر كل شيء عن عمد لإنهاء هذه الغيبوبة العذبة، وهذا الجنون بسرعة وعندما أصبح جوروف وحده على الرصيف وهو يتطلع إلى الأفق المظلم، أخذ يصغي إلى صرير الجنادب وأزير أسلاك البرق بإحساس من استيقظ لتوه وفكر في أنه ها هي ذي مغامرة قد مرت في حياته وانتهت، ولم يبق منها سوى الذكرى كان متأثراً وحزيناً، وأحس بقليل من الندم فهذه المرأة الشابة التي لن يراها أبداً لم تكن سعيدة معه كان لطيفاً وودوداً معها، ومع ذلك فقد كان في معاملته لها وفي لهجته وملاطفاته ظل من السخرية الخفيفة، وشئ من الاستعلاء الفظ لرجل سعيد، هو فوق ذلك أكبر منها مرتين كانت تقول له طوال الوقت إنه طيب وغير عادى، وسام لقد بدا لها، فيما يظهر، على غير حقيقته في الواقع، إذن فقد خدعها عن غير قصد.

وانتشرت في المحطة رائحة الخريف، وكان المساء بارداًوفكر جوروف وهو يغادر الرصيف: وأنا أيضاً أن لي أن أرحل إلى الشمال حان الوقت عندما عاد إلى بيته في موسكو كان كل شيء يسير كما في الشتاء، وأوقدت الأفران، وفي الصباح، عندما يتهيأ الأطفال للمدرسة ويتناولون الشاى يكون الجو مظلماً فتشعل المربية الضوء بعض الوقت وبدأت بوادر الصقيع وعندما يهطل الثلج لأول مرة، وفي أول أيام استخدام الزحافات، تشعر بالسرور وأنت ترى الأرض البيضاء والأسقف البيضاء

ويصبح الهواء أنقى وأروع، وفي هذه الأوقات تتذكر سنوات الصبا وتكتسب أشجار الزيزفون والبتولا العجوز، البيضاء من الثلج، تعبيراً بشوشا، فهي أقرب إلى القلب من السرو والنخيل، ولا تراودك الرغبة بالقرب منها في التفكير في الجبال والبحر كان جوروف موسكوفيا، وقد عاد إلى موسكو في يوم بارد صحو، وعندما ارتدي معطفالفراء والقفاز الثقيل وتمشي في شارع بتروفكا، وعندما سمع مساء السبت رنين أجراس الكنائس، فقدت رحلته القريبة إلى الأماكن التي كان فيها كل سحرها بالنسبة له وغاص شيئاً فشيئاً في حياة موسكو، وأصبح يقرأ بنهم ثلاث صحف يومياً ويقول إنه لا يقرأ صحف موسكو عن مبدا واجتذبته المطاعم والأندية ودعوات الغداء والحفلات اليوبيلية، وأصبح يشعر بالفخر لزيارة مشاهير المحامين والممثلين له، ولأنه يلعب الورق مع بروفيسور في نادي الأطباء وأصبح بوسعه أن يأكل طبقاً كاملاً من السليانكا المحمرة.

وخيل إليه أنه لن يمر شهر حتى يغلف الضباب آنا سرجييفنا في ذاكرته، ولن تخطر له إلا نادراً بابتسامتها المؤثرة كما خطرت من قبل أخريات ولكن مر أكثر من شهر، وأوغل الشتاء، بيد أن كل شيء ظل واضحاً في ذاكرته وكأنما لم يفارق آنا سرجييفنا إلا بالأمس وهاجت الذكريات أقوى وأشد فما إن تتناهى إليه في مكتبه في هدوء المساء أصوات أطفاله وهم يحضرون الدروس، أو يصغي إلى أغنية عاطفية أو إلى عزف الأورغن في مطعم، أو تعول الريح في مدخنة المدفأة، حتى ينبعث كل شيء حياً في الذاكرة:

ما كان عند حاجز الأمواج، والصباح الباكر المضبب في الجبال، والسفينة القادمة من فيودوسيا، والقبلات وكان يروح ويجيء طويلاً في الغرفة، ويتذكر ويبتسم ثم تحولت الذكريات إلى أحلام، واختلط في خياله ما حدث بما سوف يكون لم تعد آنا سرجيفنا تخطر له، بل كانت تتبعه في كل مكان كالظل وتراقبه وعندما يغمض عينيه يراها أمامه حية، وبدت له أجمل وأصبى وأرق مما كانت وهو أيضاً بدا لنفسه أفضل مما كان آنذاك في يالطا وكانت تتطلع إليه في المساء من خزانة الكتب ومن المدفأة، ومن ركن الغرفة، وكان يسمع أنفاسها وحفيف ثيابها الرقيق وكان يتابع النساء في الشارع بعينيه بحثاً عمن تشبهها وأمضته رغبة شديدة في أن يفضي لأحد ما بذكرياته بيد أنه لم يكن من الممكن أن يتحدث عن حبه في البيت، أما خارج البيت فليس هناك من يتحدث إليه فليس من المعقول أن يتحدث مع السكان أو في البنك ثم عم يتحدث؟ هل هو أحبها آنذاك؟ وهل كان هناك شيء ما جميل وشاعرى أو ذو عبرة، أو حتى شيق في علاقته بآنا سرجييفنا؟ واضطر أن يقول كلاما عاماً عن الحب، وعن النساء فلم يفطن أحد إلى الأمر زوجته فقط لعبت حاجبيها الداكنين وقالت :

-أنت يا ديميترى لا تليق في دور الغندور.

وذات ليلة، وكان خارجاً من نادى الأطباء مع موظف شاركه اللعب، لم يتمالك نفسه

فقال - :و تدري بأية امرأة ساحرة تعرفت في يالطا! وجلس الموظف في الزحافة فمضت به، لكنه التفت فجأة وصاح: - يا دميترى ديميتريفيتش - ! ماذا؟ -لقد كنت على حق بالأمس، فالسمك عفن !.

أثارت هذه الكلمات، العادية تماماً، حنق جوروف فجأة لسبب ما، وبدت له مهينة ملوثة بالأخلاق الهمجية، بالهذه السحنات! وما هذه الليالي التي بلا معنى، وأية أيام مملة باهتة! اللعب المحموم، والأكل حتى التخمة، والشكر، والأحاديث المكررة عن نفس الشيء الأعمال التي لا ضرورةلها والأحاديث المكررة تستولي على أفضل ساعات العمر، وعلى أفضل القوى، ولا يبقى في النهاية سوى حياة مبتورة، مقصوصة الجناحين، لا يبقى سوى هراء، ولا تستطيع أن تهرب منه أو تفر، كأنما وضعت في مستشفى المجانين أو في السجن !.

لم ينم جوروف طوال الليل وهو ساخط، ثم عانى طوال اليوم التالي من الصداع وفي الليالي التالية نام نوماً سيئاً، وكان يجلس في الفراش ويفكر أو يروح ويجيء من ركن لركن ومل الأطفال، ومل البنك ولم يكن يرغب في الذهاب إلى أي مكان أو الحديث عن أي شيء.

وفي أعياد ديسمبر استعد للسفر، وقال لزوجته إنه راحل إلى بطرسبرج للتوسط لأحد الشبان، وسافر إلى س لماذا؟ هو نفسه لم يكن يعرف جيداً لقد أراد أن يرى آنا سرجييفنا ويتحدث إليها ويدبر موعداً معها إذا أمكن.

وصل إلى س صباحاً وحجز في الفندق أفضل غرفة، وكانت أرضيتها مغطاة كلها بجوخ عسكرى رمادي، وعلى الطاولة محبرة، رمادية من الغبار، تحمل فارساً على جواد، وقد رفع يده بالقبعة بينما كان رأسه مبتوراً وأعطاه الفراش المعلومات اللازمة: فون ديدريتش يسكن في شارع ستارو جونتشارنايا في منزله الخاص، غير بعيد عن الفندق، وهو يحيا حياة طيبة، في بحبوحة ويملك خيوله الخاصة ويعرفه الجميع في المدينة ولفظ الفراش اسمه هكذا: ضري ضيرتس.

ومضى جوروف على مهل إلى شارع ستارو جونتشارنايا وعثر على المنزل وفي مواجهة المنزل مباشرة امتد سور رمادى طويل بمساميروفكر جوروف وهو ينظر تارة إلى النوافذ وتارة إلى السور :من هذا السور لا بد أن تهرب.

وفكر: اليوم عطلة، وزوجها على الأرجح في البيت وعلى أي حال فليس من اللائق أن يدخل البيت ويحرجها وإذا أرسل لها رسالة فستقع في الغالب في يد زوجها، وعندئذ سيفسد كل شيء أفضل شيء الاعتماد على الصدفة وراح يتمشي في الشارع بجوار السور وينتظر هذه الصدفة ورأى شحاذاً يدلف إلى البوابة فتهاجمه الكلاب، ثم سمع بعد ساعة عزفاً على البيانو، وتناهت إليه الأنغام ضعيفة غير واضحة لا بد أنها آنا سرجييفنا التي تعزف

وفجأة فتح باب المدخل الرئيسي، وخرجت منه امرأة عجوز، وركض خلفها الكلب الأبيض المعروف وأراد جوروف أن ينادي الكلب، ولكن قلبه دق فجأة بعنف، ولم يستطع من الاضطراب أن يتذكر اسم الكلب.

وأخذ يتمشى وهو يزداد كراهية للسور الرمادي، وبدأ يفكر بعصبية في أن آنا سر جيفنا قد نسيته وربما تمرح الآن مع رجل غيره، فهذا شيء طبيعي بالنسبة لامرأة شابة، مضطرة أن ترى من الصباح إلى المساء هذا السور اللعين وعاد إلى غرفته في الفندق، وظل جالساً على الكنبة فترة طويلة وهو لا يدري ماذا يفعل، ثم تغدى، ونام طويلاً

ما أغبي كل هذا وأسخفه فكر بعد أن استيقظ وهو ينظر إلى النوافذ المظلمة، فقد كان المساء قد حل ها أنا ذا قد شبعت نوماً، فلماذا؟ وماذا أفعل ليلاً إذن؟.

جلس على الفراش المغطى ببطانية رمادية رخيصة مثل بطانيات المستشفى،أخذ يبكتتلك هي السيدة صاحبة الكلب تلك هي المغامرة فلتجلس الآن هنا.

وقبل ذلك في الصباح كان قد لفت نظره في المحطة إعلان بأحرف كبيرة عن عرض أوبرا فتاة الجيشا لأول مرة وتذكر ذلك الآن فتوجه إلى المسرح وفكر: من الجائز جدا أنها تحضر العروض الأولى كان المسرح مكتظاً

وهنا أيضا، مثلما في جميع مسارح الأقاليم كان الضباب متجمعاً أعلى النجفة، وارتفع اللغط في أعلى المسرح وفي الصفوف الأولى، قبيل بدء العرض، وقف المتأنقون المحليون، عاقدين أيديهم خلف ظهورهم وفي مقصورة المحافظ جلست في الصف الأول ابنته في لفاع من الفرو، أما المحافظ نفسه فكان مختبئاً بتواضع خلف ستار باب المقصورة فلم تظهر سوى يديه واهتزت ستارة المسرح وظل الأوركسترا يضبط آلاته طويلاً وكان جوروف يفتش بعينيه في نهم طوال فترة دخول النظارة وشغلهم للمقاعد.

ودخلت آنا سرجييفنا جلست في الصف الثالث، وعندما تطلع جوروف إليها خفق قلبه بعنف، وأدرك بوضوح أنه لم يعد لديه في الدنيا كلها إنسان أقرب وأعز وأهم منها هذه المرأة الصغيرة، الضائعة في هذا الحشد الريفي، والتي لا تتميز بشيء، هذه المرأة ذات المنظار المبتذل في يديها، أصبحت الآن تشغل حياته كلها، أصبحت حزنه وفرحته والسعادة الوحيدة التي يرجوها الآن لنفسه وعلى أنغام الأوركسترا السيئ وآلات الكمان السوقية أخذ جوروف يفكر كم هي جميلة كان يفكر ويحلمودخل مع آنا سرجييفنا وجلس إلى جوارها رجل شاب بسالفين صغيرين، طويل جداً، محنى القامة وكان رأسه يهتز مع كل خطوة، فبدا كأنه ينحنى محييا باستمرار يبدو أنه زوجها الذي قالت عنه في يالطا في صورة إحساس مرير، إنه خادم

وبالفعل فقد كان في قامته الطويلة، وفي سالفيه، وفي الصلعة الصغيرة شيء من تواضع الخدم، وكان يبتسم ابتسامة عسلية، ولمعت في عروة سترته شارة علمية كأنها شارة الخدموفي الاستراحة الأولى انصرف الزوج ليدخن وبقيت هي في مقعدها واقترب منها جوروف، الذي كان يجلس هو أيضا في الصالة وقال بصوت متهدج وهو يغتصب ابتسامة :مرحباً وتطلعت إليه وامتنعت، ثم تطلعت مرة أخرى برعب وهي لا تصدقعينيها، وأطبقت يدها بقوة على المروحة والمنظار معاً وهي تجاهد فيما يبدو لكي لا تسقط مغشياً عليها وكان كلاهما صامتاً كانت جالسة وهو واقف وقد أفزعه ارتباكها، دون أن يجرؤ على الجلوس بجوارها وصدحت آلات الكمان والناي التي كان العازفون يضبطونها، وتملكهما الرعب فجأة، وخيل إليهما أن الأنظار تتطلع إليهما من جميع المقصورات ولكن ها هي ذي قد نهضت واتجهت بسرعة نحو باب الخروج، فتبعها وسارا معاً يتخبطان في الطرقات والسلالم صاعدين هابطين، ومرق أمام عيونهما أناس ما في سترات قضاة ومعلمين وموظفين، ومرقت نساء، ومعاطف فرو على المشاجب، ولفحهما تيار هواء حاملاً رائحة أعقاب السجائر وفكر جوروف وقلبه يخفق بعنف آوه يا إلهي لم هؤلاء الناس، وهذا الأوركسترا؟.

وفي تلك اللحظة تذكر فجأة ذلك المساء في محطة القطار، عندما ودع آنا سرجييفنا وقال لنفسه إن كل شيء قد انتهى ولن يلتقيا بعد ذلك أبداً ولكن كم كانت النهاية بعيدة !.

وعلى سلم ضيق مظلم كتب عليه مدخل أعلى المسرح توقفت

-كم أفزعتني ! قالت وهي تتنفس بصعوبة ولا تزال شاحبة مأخوذة - آوه،

كم أفزعتني! أنا حية بالكاد لماذا جئت؟ لماذا؟ .

فقال جوروف بصوت خافت على عجل - :افهمينى يا آنا، افهميني أتوسل إليك، افهميني كانت تتطلع إليه بخوف، وتوسل، وحب، بنظرة ثاقبة لكي تطبع ملامحه في ذاكرتها طويلاً.

ومضت تقول دون أن تصغي إليه معك وأردت أن أنسى، أنسى، فلماذا جئت، لماذا؟.

على بسطة السلم العليا كان يقف طالبان، يدخنان ويتطلعان إلى أسفل، ولكن جوروف لم يعد يلقى بالاً لشيء، فجذب آنا سرجييفنا نحوه، وأخذ يقبل وجهها وخديها ويديها فقالت برعب وهي تدفعه عنها :

-ما الذي تفعله، ما الذي تفعله! لقد أصابنا الجنون ارحل اليوم، ارحلالآنأستحلفك بكل القديسين، أتوسل إليك إنهم قادمون إلى هنا؟ كان هناك شخص يصعد الدرج ومضت آنا سرجييفنا تقول همسا :

-ينبغي أن ترحل، أتسمعنى يا دميترى دميتريتش؟ سأجيء إليك في موسكو أنا لم أكن أبداً سعيدة، والآن أصبحت تعيسة،ولن أكون أبدا سعيدة، أبدا! لا تجعلني إذن أتعذب أكثر! أقسم لك إنني سآتي إلى موسكو والآن لنفترق !يا عزيزى، يا حبيبي الطيب، لنفترق !.

وصافحته ومضت تهبط الدرج بسرعة وهي تلتفت نحوه كثيراً، وكان واضحاً في عينيها أنها لم تكن سعيدة بالفعل ولبث جوروف في مكانه قليلاً وهو يرهف السمع، وعندما هدأ كل شيء بحث عن معطفه وغادر المسرح وأصبحت آنا سرجييفنا تأتي إليه في موسكو كانت تغادر س مرة كل شهرين أو ثلاثة وتقول لزوجها إنها ذاهبة لاستشارة بروفيسور بخصوص مرض نسائى، فكان زوجها يصدقها ولا يصدقها وعندما تصل إلى موسكو كانت تنزلفي سلافيانسكى بازار وترسل إلى جوروف على الفور رسولاً على رأسه قبعة حمراء وكان جوروف يذهب إليها ولا يعلم أحد في موسكو بذلك.

وذات مرة كان ذاهباً إليها في صباح شتائى جاءه الرسول قبلها في المساء فلم يجده وكانت بصحبته ابنته التي أراد أن يوصلها إلى المدرسة في طريقه وتساقط ثلج مبلل كبير الندف وقال جوروف لابنته :

درجة الحرارة الآن ثلاثة فوق الصفر ومع ذلك يسقط الثلج ولكن الجو دافئ فوق سطح الأرض فقط، أما في طبقات الجو العليا فالحرارة مختلفة تماماً.

-بابا، ولماذا لا يرعد الرعد في الشتاء؟.

فشرح لها ذلك أيضاً كان يفكر وهو يتكلم في أنه ذاهب الآن إلى موعد، ولا يعلم بذلك أي إنسان، وربما لن يعلم كان يعيش حياتين: حياة ظاهرة، يعرفها ويراها كل من ينبغي أن يعرفها ويراها، حياة مليئة بالصدق النسبي والخداع النسبي، وتشبه تماماً حياة معارفه وأصدقائه، وحياة أخرى تمضي سراً وحسب اتساق غريب للظروف، ربما كان عرضاً، جرى كل ما كان بالنسبة له مهماً، وطريفاً، وضرورياً، كل ما كان فيه مخلصاً وصادقاً مع نفسه، كل ما كان يشكل نواة حياته، جرى في سرية عن الآخرينأما ما كان كذباً، وقشرة يختبي خلفها ليخفي الحقيقة، كعمله في البنك مثلاً، ومناقشاته في النادي، وجنسه المنحطة، وتردده مع زوجته على الحفلات كل ذلك كان ظاهراً وحسب حاله كان يحكم على الآخرين ولا يصدق ما يراه ويعتقد دائماً أن لكل إنسان حياته الحقيقية، الشيقة التي تمضي تحت ستار السرية مثلما تحت جنح الليل وكل مخلوق فرد يقوم وجوده على الأسرار، وربما لذلك يسعى الإنسان المثقف بقلق من أجل أن تحترم الأسرار الشخصية.

وبعد أن أوصل جوروف ابنته إلى المدرسة اتجه إلى سلافيانسكى بازار

وخلع معطفه في الأسفل وصعد ودق الباب بخفة كانت آنا سرجييفنا في فستانها الرمادي المحبب إليه تنتظره منذ مساء الأمس وقد أرهقها السفر والانتظار كانت شاحبة وتطلعت إليه دون أن تبتسم، وما إن دخل حتى ارتمت على صدره وكانت قبلتها طويلة، ممتدة، كأنما لم يلتقيا منذ عامينوسألها جوروف - :كيف حالك ؟ ماذا هناك من جديد؟ مهلاً، سأخبرك الآن لا أستطيع

لم تستطع أن تتكلم، فقد كانت تبكي واستدارت عنه وضغطت على عينيها بالمنديل وقال جوروف لنفسه: فلتبك قليلا ولأجلس أنا وجلس في المقعد.

ثم دق الجرس وطلب شاياً وبعد ذلك، وبينما كان يشرب الشاي،ظلت هي واقفة ووجهها إلى النافذة كانت تبكي من الاضطراب، ومن إدراكها الحزين بأن حياتهما تمضي على هذا النحو البائس إذ لا يلتقيان إلا سراً، ويختبئان من الناس كاللصوص أليست حياتهما محطمة؟وقال جوروف - : هيا، كفاك بكاء.

كان من الواضح له أن حبهما هذا لن ينتهي قريباً، وليس معروفاً متى ينتهى وتعلقت به آنا سرجييفنا أكثر فأكثر ،وكانت متيمة به، ولم يكن من المعقول أن يقول لها إن كل ذلك لا بد أن تكون له في وقت ما نهاية وما كانت لتصدقذلكواقترب منها وأمسك بكتفيها لكي يلاطفها ويداعبها، وفي تلك اللحظةرأى صورته في المرآة.

كان رأسه قد بدأ يشيب وبدا له غريباً أنه هرم وتدهور إلى هذه الدرجة في الآونة الأخيرة وكانت الكتفان اللتان وضع عليهما يديه دافئتين ترتعشان وأحس بالعطف على هذه الحياة، التي كانت لا تزال دافئة جميلة، ولكنها ربما تقترب من الذبول والانطفاء كحياته هو ترى لماذا تحبه هكذا؟ لقد كان يبدو للنساء دائماً على غير حقيقته، ولم يكن يحببنه هو نفسه، بل يحببن فيه الرجل الذي صنعه خيالهن والذي كن يبحثن عنه في حياتهن بنهم وبعد ذلك، عندما يدركن خطأهن، كن مع ذلك يحببنه ولم تكن أي منهن سعيدة معه وكان الزمن يمضي وهو يتعرف ويصادق ويفارق، ولكنه لم يعرف الحب مرة واحدة كان ذلك أي شيء سوى أن يكون حباً .

والآن فقط، عندما شاب رأسه، أحب كما ينبغي، حباً حقيقاً لأول مرةفي حياتهأحبا هو وآنا سرجيفنا بعضهما البعض كشخصين قريبين جداً، كأهل، كزوج وزوجة، كصديقين رقيقين، وبدا لهما أن القدر نفسه قد هيأهما أحدهماللآخر، ولم يكن مفهوماً لماذا هو متزوج وهي متزوجة وكأنما كانا طائرين مهاجرين، ذكراً وأنثى، أمسكوا بهما وأجبروهما على العيش في قفصين منفردين لقد غفرا لبعضهما البعض كل ما كانا يخجلان منه في ماضيهما، وغفرا كل ما في حاضرهما، وأحسا أن حبهما هذا قد غيرهما كليهما.

وكان في لحظات الحزن سابقاً يطمئن نفسه بشتى الأفكار التي كانت ترد إلى ذهنه، أما الآن فكان في شاغل عن الأفكار كان يشعر بشفقة عميقة وبرغبة في أن يكون صادقاً ورقيقاًوقال لها :

-كفي بكاء يا حبيبتي، هذا يكفي تعالى نتحدث وسوف نصل إلى حل وظلا يتشاوران طويلاً ويتحدثان في كيفية التخلص من التخفي والخداعوالمعيشة في مدينتين مختلفتين والفراق الطويل، وكيف يتحرران من هذهالأغلال التي لا تطاق -كيف؟ كيف؟ - تساءل وهو يمسك برأسه - كيف؟ .

وبدا له أنه لم يبق إلا قليل ويعثر على الحل، وعندها تبدأ حياة جديدةرائعة وكان من الواضح لهما معاً أن النهاية لا تزال بعيدة بعيدة، وأن أعقد شيء وأصعبه يبدأ لتوه.

العروس

كانت الساعة العاشرة مساء، والبدر المكتمل يسطع فوق الحديقة وفي منزل آل شومين انتهت لتوها صلاة الليل التي أقيمت بطلب من الجدة مارفا ميخايلوفنا، وأصبحت نادية التي خرجت إلى الحديقة لدقيقة ترى كيف يعدون المائدة في القاعة، وكيف كانت الجدة تروح وتجيء في فستانها الحريري المنتفخ أما الأب أندريه، راعى الكاتدرائية، فكان يتحدث عن شيءمامع نينا إيفانوفنا والدة نادية، وأصبحت أمها الأن في ضوء المساء تبدو خلال النافذة لسبب ما شابة جداً وبجوارهما وقف أندريه أندريتش ابن الأب أندريه، مصغياً بانتباه.

كان الجو في الحديقة هادئاً، بارداً، وامتدت على الأرض ظلال داكنة ساكنة وتناهى من مكان بعيد، بعيد جداً، ربما وراء المدينة، نقيق الضفادع وانتشرت في الجو رائحة مايو، مايو الحبيب وتسرب الهواء عميقاً في الصدر، واستبدت بنادية الرغبة في التفكير بأنه في مكان ما غير هذا المكان، تحت السماء، وفوق الأشجار، بعيداً وراء المدينة، في الحقول والغابات انطلقت الآن حياة الربيع الخاصة، الغامضة، الرائعة، الخصبة والمقدسة، البعيدة عن إدراك الإنسان الضعيف المذنب وأرادت أن تبكى لسبب ما؟

كانت نادية في الثالثة والعشرين ومنذ أن بلغت السادسة عشرة وهي تحلم بالزواج بشغف، وها هي ذي أخيرا قد أصبحت عروس أندريه أندريتش، ذلك الذي يقف وراء النافذة كان يروق لها، وقد تحدد يوم الزفاف في السابع من يوليو، ومع ذلك لم تشعر بالفرحة، وكانت تنام نوماً سيئاً، وهجرها المرح ومن القبو الذي كان المطبخ فيه، تناهى عبر النافذة المفتوحة صوت الحركة المستعجلة ورنين السكاكين وصفق الباب، وانبعثت روائح الديك الرومي المحمر والكرز المخلل ولسبب ما خيل إليها أن ذلك سوف يظل هكذا طوال الحياة، دون تغيير!.

ها هو ذا شخص يخرج من المنزل ويقف على السلاملك إنه ألكسندر تيموفيتش، أو ببساطة ساشا الضيف الذي جاء من موسكو منذ عشرة أيام منذ زمن بعيد كانت تتردد على الجدة طلباً للصدقة إحدى قريباتها من بعيد، وتدعى ماريا بتروفنا وكانت أرملة من النبلاء المفلسين، صغيرة، نحيلة، مريضة وكان لديها ابن، هو ساشا ولسبب ما قيل إنه مصور بارع، ولما ماتت أمه، أرسلته الجدة، زكاة عن نفسها، إلى موسكو، إلى معهد كوميسارو فسكويه وبعد حوالي سنتين انتقل إلى معهد التصوير، وقضى فيه زهاء خمسة عشر عاماً وتخرج كيفما كان من قسم العمارة، ومع ذلك لم يمارس العمارة، بل عمل في إحدى ورش التشكيل بموسكو وكان يأتي كل صيف تقريباً إلى الجدة، وهو مريض عادة، لكي يستريح ويشفي.

كان يرتدي الآن سترة مزررة وسروالاً قديماً من القماش السميك، مجعداً في الأسفل ولم يكن قميصه مكوياً، وكانت هيأته كلها تبدو ذابلة كان نحيلاً للغاية، بعينين واسعتين، وأصابع طويلة دقيقة، ولحية، وكان أسمر، جميلاً رغم ذلك وقد ألف آل شومين كأهله، وكان يحس وسطهم كأنه في بيته والغرفة التي كان ينزل فيها هنا كانت تسمى منذ زمن بعيد غرفة ساشاورأى نادية وهو واقف على السلاملك فاتجه نحوها وقال :

ما أجمل المكان عندكم هنا طبعاً جميل ابق هنا حتى الخريف نعم، يبدو أنني سأفعل، سأبقى لديكم على الأرجح حتى سبتمبر وضحك دون سبب وجلس بقربها وقالت نادية :

-إنني أجلس هنا وأنظر إلى أمي إنها تبدو من هنا شابة للغاية وأضافت بعد صمت قصير بالطبع لدى أمي بعض الجوانب الغريبة، ولكنها رغم ذلك امرأة رائعةفقال ساشامؤمناً :

-نعم، طيبة إن أمك امرأة طيبة ورقيقة جداً، بالطبع على طريقتها الخاصة، ولكن كيف أوضح لك؟ لقد دخلت مطبخكم اليوم في الصباح الباكر، فرأيت هناك أربع خادمات ينمن على الأرض مباشرة، وليس هناك أسرة، وبدلاً من الفراش أسمال بالية، وروائح كريهة، وبق وصراصير نفس الوضع الذي كان منذ عشرين عاماً، دون أي تغيير حسناً، بالنسبة للجدة واضح، ليغفر لها الله

ولكن ماما، أظن أنها تتحدث الفرنسية وتشترك في العروض المسرحية من المفروض أن تدركوعندما كان ساشا يتكلم، كان يبسط أمام المستمع أصبعين طويلتين نحيفتينومضى يقول :

-كل شيء هنا يبدو لي غريبا غير مألوف الشيطان يعلم ما هذا إن أحداً لا يريد أن يعمل أمك تقضى النهار في التنزه وكأنها إحدى الدوقات، والجدة أيضاً لا تفعل شيئاً، وأنت أيضاً وعريسك أندريه أندريتش أيضاً لا يفعل شيئاً سمعت نادية هذا في العام الماضي أيضاً، ويبدو في العام الأسبق كذلك، وكانت تعلمأن ساشالا يمكن أن يفكر بصورة أخرى، وكان ذلك يضحكها في السابق، لكنها لسبب ما أحست الآن بالأسى وقالت وهي تنهض :كل هذا قديم ومللته من زمان عليك أن تخترع شيئاً أكثر جدة.

فضحك ونهض هو الآخر، وسارا نحو المنزل وبدت بطولها وجمالها ورشاقتها بجواره صحيحة جداً وأنيقة وأحست هي بذلك فشعرت بالرثاء له وبالحرج لسبب ماوقالت له - : ثم إنك تقول كلاما كثيراً زائداً ها قد تحدثت لتوك عن أندريه خطيبى،مع أنك لا تعرفه.

-أندريه خطيبي دعينا منه أندريه خطيبك ولكني أرثي لشبابك عندما دخلا القاعة كان الحاضرون قد جلسوا إلى المائدة وكانت الجدة، البدينة، الدميمة، بحاجبيها الغزيرين وشاربها الدقيق، تتحدث بصوت عال

وبدا من صوتها وطريقة كلامها أنها ربة المنزل كانت تملك حوانيت في السوق قديما بأعمدة وحديقة، لكنها كانت تصلى لله كل صباح ليحميها من الإفلاس وتبكي في أثناء ذلك وكانت هنا زوجة ابنها نينا أيفانوفنا، والدة نادية، الشقراء المشدودة بالكورسيه بقوة، والتي تضع عوينات وخاتماً ماسياً في كل أصبع، وكان هنا أيضاً الأب أندريه، وهو عجوز نحيف، بلا أسنان، وعلى وجهه تعبير من ينوي أن يروي شيئاً مضحكاً للغاية، وابنه أندريه أندريتش، خطيب نادية، وهو رجل ممتلئ وجميل، بشعر مجعد الخصلات، ويشبه ممثلاً أو مصوراً- وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن التنويم المغنطيسيوقالت الجدة مخاطبة ساشا :

ستسترد عافيتك عندي في أسبوع فقط كل أكثر وتنهدت وقالت انظرماذا تشبه لقد أصبحت مرعباً بالك من ابن ضال حقاً وقال الأب أندريه ببطء والابتسامة تشع من عينيهوبعد أن بدد ميراث أبيه، هام الملعون على وجهه مع البهائم فقال أندريه أندريتش وهو يضع يده على كتف أبيهكمأحب والدى إنه عجوز رائع عجوز طيب وصمت الجميع وفجأة ضحك ساشا وغطي فمه بالمنشفة وسأل الأب أندريه نينا إيفانوفنا: إذن فأنت تؤمنين بالتنويم المغنطيسي؟فأجابت وهي تضفي على وجهها تعبيراً جاداً للغاية بل وصارما :أنا لا أستطيع أن أؤكد أنني أؤمن، ولكن ينبغي أن أعترف أن هناك الكثيرمن الأشياء الغامضة وغير المفهومه في الطبيعة.

-أنا متفق معك تماماً، وإن كنت أجد لزاماً على أن أضيف بأن الإيمانيضيق لنا إلى حد كبير مجال الأشياء الغامضة.

وحمل الخدم ديگاً رومياً كبيراً وسميناً جداً وواصلت نينا إيفانوفنا والأب أندريه حوارهما كانت الخواتم الماسية تلمع في أصابع نينا إيفانوفنا، ثم لمعت الدموع في عينيها إذ كانت مضطربة وقالت :

-رغم أني لا أجرؤ على مجادلتك، ولكن أرجو أن توافقني على أن الحياةمليئة بالألغاز التي لم تحل ولا لغز واحد، أستطيع أن أؤكد لك وبعد العشاء عزف أندريه أندريتش على الكمان وصاحبته نينا إيفانوفنا على المعزف كان قد تخرج منذ عشر سنوات من كلية الآداب بالجامعة، ولكنه لم يلتحق بالخدمةولم يكن يزاول عملاً محدداً، وكان نادراً ما يشارك في الحفلات الموسيقية للأغراض الخيرية وسموه في المدينة بالفنان.

كان أندريه أندريتش يعزف، والجميع يصغون في صمت وعلى المائدة كان السماور يغلى بهدوء، ولم يشرب الشاي أحد سوى ساشا وعندما دقت الساعة الثانية عشرة انقطع فجأة وتر في الكمان فضحك الجميع، وساد بعض الهرج، ثم أخذوا يودعون.

وبعد أن ودعت نادية خطيبها صعدت إلى غرفتها بالطابق الثاني حيث كانت تعيش مع أمها كان الطابق الأسفل للجدة وفي الأسفل أخذوا يطفئون الأنوار في القاعة بينما ظل ساشا جالساً يشرب الشاي كان دائماً يستغرق وقتاً طويلاً في شرب الشاي، على الطريقة الموسكوفية، فيشرب حوالي سبعة أكواب في المرة الواحدة وظلت نادية تسمع طويلاً، بعد أن خلعت ثيابها وأوت إلى الفراش، أصوات الخدم وهم يجمعون الأواني، والجدة وهي تصيح غاضبة ثم هدأ أخيراً كل شيء،ولم يعد مسموعاً سوى سعال متقطع صادر عن غرفة ساشا في الأسفل.

يبدو أن الساعة كانت حوالي الثانية عندما استيقظت نادية، فقد بدأ الفجر يلوح وفي مكان ما دق الحارس منبهاً لم تكن راغبة في النوم وكان مرقدها ليناً جداً غير مريح وكما في كل ليالي مايو السابقة جلست في السرير وراحت تفكر وكانت أفكارها هي نفس أفكار الليلة السابقة، أفكاراً رتيبة، لاضرورةلها، أفكاراً ملحة حول أندريه أندريتش وكيف أخذ يتودد إليها وعرض عليها الزواج فقبلت، ثم استطاعت شيئاً فشيئاً أن تقدر هذا الشخص الطيب الذكيلكنها لا تعرف لماذا أصبحت الآن، ولم يبق على العرس أكثر من شهر، تحس بالخوف والقلق، كأنما ينتظرها شيء غير واضح وصعب ودق الحارس بكسل: تك تك، تك تك.

عبر النافذة الكبيرة القديمة تراءى البستان، ومن بعده خمائل البنفسجالمزهرة الكثيفة، الناعسة والذابلة من البردويقترب الضباب الأبيض الكثيف من البنفسج ببطء ويريد أن يغطيه وعلىالأشجار البعيدة تصيح الغربان الناعسة.

-يا إلهي،لماذا أشعر بهذا الضيق !.

ربما هذا هو ما تحسه كل فتاة قبيل العرس، من يدرى! أم إن هذا من تأثير ساشا؟ ولكن ساشا يقول نفس الكلام منذ عدة سنوات متتالية، وكأنه يقرأ من كتاب، وعندما يتكلم يبدو ساذجاً وغريباً ولكن لماذا لا يخرج ساشا من رأسي؟ لماذا؟.

كف الحارس منذ وقت طويل عن الدق، وصاحت الطيور تحت النافذة في البستان، وانقشع الضباب عن البستان وشع كل شيء بنور ربيعى وكأنه يبتسم، وسرعان ما استيقظ البستان كله وقد أدفأته الشمس وداعبته، ولمعت قطرات الندى كالماسات على الأوراق وفي هذا الصباح بدا البستان العجوز، المهمل منذ أمد بعيد، فتياً وأنيقاً واستيقظت الجدة وسعل ساشا بصوت غليظ أجش وتناهت من أسفل أصوات الخدم وهم يضعون السماور ويزحزحون المقاعد.

الساعات تمضي ببطء لقد استيقظت نادية منذ زمن طويل، وتنزهت فيالبستان منذ زمن طويل، ومع ذلك لا يزال الصباح ممتداً.

وها هي ذي نينا إيفانوفنا، دامعة العينين، تمسك بكوب مياه معدنية لقد

كانت تمارس تحضير الأرواح، والعلاج بالأعشاب، وتقرأ كثيراً، وتهوى الحديث عن الشكوك التي تنتابها، وبدا كل ذلك لنادية مشتملا على مغزى غامض عميق وها هي ذي نادية تقبل أمها وتمضي إلى جوارهاوسألتها :ما الذي أبكاك يا ماما؟

-ليلة أمس أخذت أقرأ رواية تتحدث عن رجل عجوز وابنته والعجوز يعمل في مكان ما، لا أذكر، وأحب رئيسه ابنة العجوز لم أكمل الرواية، ولكن فيها موضعاً لم أستطع أن أمنع فيه دموعي قالت نينا إيفانوفنا وجرعت من الكوب جرعة - لقد تذكرت ذلك الموضع اليوم فبكيت أيضاً.

وقالت نادية بعد صمت - :أما أنا فأشعر بالتعاسة في هذه الأيام لماذا لا أنام الليل؟.

-لست أدري يا عزيزتي أما أنا فعندما يجافيني النوم، أغمض عيني بقوة، هكذا، وأتخيل آنا كارينينا ، وكيف تسير وتتحدث، أو أتخيل شيئاً تاريخياً منالعالم القديم.

وأحست نادية أن أمها لا تفهمها ولا تستطيع أن تفهمها أحست بذلك لأول مرة في حياتها، حتى لقد أصابها الجزع، وراودتها رغبة في الاختفاء، فصعدت إلى غرفتهاوفي الثانية جلسوا إلى مائدة الغداء كان اليوم أربعاء، يوم صيام، ولذلكقدموا للجدة حساء البورش بدون سمن، وسمكة الإبريس بالعصيدة.

ولكي يثير الجدة أكل ساشا حساءه الدسم وحساء البورش بدون السمن وكان يمزح طوال فترة الغداء، ولكن نكاته كانت ثقيلة، ودائماً ذات موعظة

خلقية فلم تثر الضحك أبداً عندما كان يرفع أصابعه الطويلة جداً، النحيلة وكأنها ميتة، قبل أن يمزح وعندما يطوف بالذهن أنه مريض وربما لن يعمر كثيراً في هذه الدنيا، يزداد الرثاء له إلى درجة البكاء.

وانصرفت الجدة بعد الغداء إلى غرفتها لتستريح وعزفت نينا إيفانوفناقليلاً على المعزف ثم انصرفت هي الأخرىوبدأ ساشا حديثه المعهود بعد الغداء ـ :آه يا نادية العزيزة لو سمعت كلامى لو<

كانت غائصة في مقعد عتيق، وقد أغمضت عينيها، بينما كان هو يجوس

في الغرفة ذهاباً وإياباً،

ويقول :

-لو أنك رحلت للدراسة! الأشخاص المتنورون والقديسون هم وحدهم الشيقون، هم وحدهم الضروريون، فكلما ازداد أمثال هؤلاء، اقترب موعد قيام ملكوت الله في الأرض وعندئذ لا يبقى من مدينتكم بالتدريج حجر واحد كلشيء سينقلب رأساً على عقب، كل شيء سيتغير وكأنمامسهسحر وستكون هنا عندئذ بيوت ضخمة عظيمة، وبساتين ساحرة، ونافورات مدهشة، وأناس رائعون ولكن ليس هذا هو المهم المهم أن الغوغاء، كما نفهمهم نحن الآن، هذا الشر لن يعود موجوداً، لأن كل إنسان سيكون مؤمناً وسيعرف لماذا يعيش، ولن يبحث أحد عن ركيزة في الغوغاء يا عزيزتي، سافرى! أظهري للجميع أن هذه الحياة الراكدة الرمادية الآثمة قد أضجرتك أظهري هذا ولو لنفسك !

-لايصح يا ساشا، إنني سأتزوج - أوه، كفاك ! من بحاجة إلى ذلك؟ وخرجا إلى البستان وتمشيا قليلاًومضى ساشا يقول :

-أياً كان الأمر يا عزيزتي ينبغي عليك أن تفكرى، أن تدركى كم هى ملوثة ولا أخلاقية حياتكم الفارغة هذه ألا تفهمين أنه مثلاً، إذا كنت أنت وأمك وجدتك لا تفعلن شيئاً، فهذا يعني أن أحداً ما يعمل بدلاً منكن، إذن فأنتن تلتهمن حياة الأخرين، فهل هذا من الشرف، أليست وضاعة؟.

أرادت نادية أن تقول: نعم، هذا صحيح، وأرادت أن تقول إنها تدركذلك، ولكن الدموع ترقرقت في عينيها فسكنت فجأة وانكمشت وتقوقعت وذهبت إلى غرفتهاوقبيل المساء جاء أندريه أندريتش، وكالعادة عزف طويلاً على الكمان.

وعموماً فقد كان قليل الكلام ويحب الكمان، ربما لأنه من الممكن أن يصمت أثناء العزف وفي الحادية عشرة، وهو خارج بعد أن ارتدى المعطف، ضمنادية إليه وراح يقبل وجهها وكتفيها وذراعيها بنهم، وهو يدمدم - يا عزيزتي، يا رائعتي أوه كم أنا سعيد، إني أجن إعجاباًوخيل إليها أنها سمعت ذلك منذ أمد بعيد، بعيد جداً، أو قرأته في كتابما في رواية قديمة، ممزقة، مهجورة من زمان.

في القاعة كان ساشا جالساً إلى المائدة يشرب الشاي وقد وضع طبق الفنجان على أصابعه الخمس الطويلة وكانت الجدة تفرش أوراق اللعب، ونينا إيفانوفنا تقرأ، وطقطق اللهب في قنديل الأيقونة، وبدا أن الهدوء والتوفيق يلفان كل شيء وودعتهم نادية وصعدت إلى أعلى ورقدت وسرعان ما نامت ولكن كمافي الليلة السابقة، استيقظت ما إن انبلج الضوء جفاها النوم، وأحست بالقلق والضيق وجلست واضعة رأسها على ركبتيها وأخذت تفكر في خطيبها وفي الزفافولسبب ما تذكرت أن أمها لم تكن تحب المرحوم زوجها، ولم يعد لديها الآن شيء، وتعيش في تبعية كاملة لحماتها، للجدة

ولم تستطع أيضاً نائماً في الأسفل، فقد تناهى سعاله من هناك وفكرت نادية في أنه شخص غريب ساذج وفي جميع أحلامه، في جميع بساتينه الساحرةونافوراته المدهشة تحس بشيء أخرق ولكن لم يبدو في سذاجته وحتى في هذا الخرق قدر كبير من الروعة، لدرجة أنها ما إن فكرت في الرحيل للدراسة مجرد تفكير حتى غاص قلبها وامتلأ بالفرحة والإعجاب؟.

وهمست لنفسها :ولكن من الأفضل ألا أفكر من الأفضل ألا أفكر لا يجب أن أفكرفي هذا.

وفي مكان بعيد دق الحارس: توك توك توكوفي منتصف يونيو أحس ساشا بالوحشة فجأة ومضى يستعد للرحيلوقال عابساً :

-لا أستطيع أن أعيش في هذه المدينة، لا مياه شرب ولا مجارى !إنني

أتقزز من تناول الغداء، والمطبخ قذر بصورة لا تطاقوقالت الجدة تقنعه بصوت هامس لسبب ما :انتظر أيها الابن الضال! العرس في السابع من يوليو

لاأريد - كنت تريد أن تبقى عندنا حتى سبتمبر !

لكني الآن لا أريد ينبغي أن أعمل؟

كان الصيف رطباً بارداً، والأشجار مبللة، وبدا كل شيء في البستان متجهماً مهموماً، وبالفعل كان هناك تشوق للعمل وفي غرف الطابقين الأعلى والأسفل ترددت أصوات نسائية غريبة، وطقطقت ماكينة الخياطة لدى الجدة: كانوا يعجلون بإعداد جهاز العروس خصصوا لنادية من معاطف الفراء وحدها ستة،وأرخصها، حسب كلام الجدة، يساوي ثلاثمائة روبل! وأثار الهرج والمرج ساشا، فجلس في غرفته من حينها ومع ذلك أقنعوه بالبقاء ووعد بالا يسافر قبل أول يوليو.

نادية بأي حال أن تفهم لماذا كانت ترى في أمها حتى هذه اللحظة شيئاً خاصاً، غير عادي، ولماذا لم تلحظ أنها امرأة عادية، بسيطة، تعيسة<

مضى الوقت بسرعة وفي عيد القديس بيوتر تمشي أندريه أندرييتش مع نادية بعد الغداء في شارع موسكوفسكايا، لكي يتفقدا مرة أخرى المنزل الذي استأجروه وجهزوه منذ فترة طويلة لاستقبال العريسين كان منزلاً من طابقين، ولكن لم يكن مجهزاً بعد سوى الطابق الثاني وكانت أرضية القاعة مطلية بلون يشبه الباركيه وبها كراسي خيزران، ومعزف، وحامل نوتات للكمان وفاحت رائحة الطلاء،وعلقت على الجدار لوحة كبيرة مؤطرة مرسومة بالألوان عارية بجوارها مزهرية ليلكية بمقبض مكسوروقال أندريه أندريتش وهو يتنهد احتراما لوحة رائعة، من رسم المصور شيشماتشيفسكى.

وبعد القاعة كانت غرفة جلوس بطاولة وكنبة ومقاعد مكسوة بقماش أزرق فاقع وفوق الكنبة صورة فوتوغرافية كبيرة لوالد أندريه في قلنسوة فخرية وأوسمة ثم دلفا إلى غرفة الطعام ذات البوفيه، ثم إلى غرفة النوم كانت شبه مظلمة، تضم سريرين متجاورين، وبدا أنهم عندما فرشوا هذه الغرفة وضعوا في اعتبارهم أن الحال سيكون هنا ممتازاً دائماً،ولا يمكن أن يكون على غير هذه الصورة وطاف أندريه أندرييتش بنادية على الغرف وهو ممسك بخصرها طوال الوقت أما هي فقد أحست بنفسها ضعيفة، مذنبة، وامتلأت كراهية لهذهالغرف والأسرة والمقاعد، وأحست بالغثيان من منظر المرأة العارية لقد أصبح من الواضح لها أنها لم تعد تحب أندريه أندرييتش، أو ربما لم تحبه أبداً ولكن كيف تقول ذلك، ولمن تقوله، ولأي غرض، لم تكن تفهم ولا تستطيع أن تفهم، رغم أنها كانت تفكر في ذلك طوال الأيام والليالي كان ممسكاً بخصرها ويتحدث برقة وتواضع، وكان سعيداً جداً وهو يجول في شقته هذه أما هي فلم تر في كل هذا سوى الابتذال، الابتذال الأحمق الساذج غير المحتمل، وبدت لها ذراعه التي تطوق خصرها قاسية باردة كالطوق، وكانت على استعداد في كل لحظة لأن تولى هاربة، أو تنتحب وتلقى بنفسها من النافذة وقادها أندريه أندريتش إلى الحمام ولمس صنبوراً مركباً في الحائط فسالت المياه فجأة فقال وهو يضحك :

-ماذا تقولين؟ لقد أمرت بصنع خزان في السقف سعته مائة دلو، وسيصبحلدينا الآن مياه في المنزلوسارا في الفناء ثم خرجا إلى الشارع فاستقلا عربة كان الغبار يثورسحابات كثيفة، وبدا أن المطر على وشك السقوط.

وسألها أندريه أندريتش وهو يزر عينيه من الغبار: - هل تشعرين بالبرد؟ فلزمت الصمت وقال هو بعد فترة صمت :

-أتذكرين بالأمس عندما لامني ساشا لأني لا أفعل شيئاً حسناً، إنه على حق! على حق مائة في المائة! أنا لا أفعل شيئاً ولا أستطيع أن أفعل ما السبب في ذلك يا عزيزتي؟ لماذا أشعر بالقرف من مجرد فكرة أن أضع عمرة على رأسيفي وقت ما وألتحق بوظيفة؟ لماذا أشعر بالضيق عندما أرى محامياً، أو مدرس اللغة اللاتينية أو عضو مجلس المدينة؟ أوه أمنا روسيا! يا أمنا روسيا،كممازلت تحملين على ظهرك من أناس فارغين لا فائدة منهم! كم فيك من أشخاص مثلي أيتها المعذبة !.

وجعل من عدم قيامه بشيء وضعاً عاماً ورأى فيه دلالة العصر واستطرديقول :عندما نتزوج سنذهب معاً إلى القرية يا عزيزتي ونعمل هناك ! سنشتري قطعة أرض صغيرة ببستان ونهر، وسوف نكدح ونتأمل الحياة أوه ما أطيب ذلك؟ .

ونزع قبعته فتطاير شعره في الريح، أما هي فكانت تصغي إليه وتفكر :

يا إلهي ، أريد أن أعود إلى المنزل، يا إلهى!وقرب المنزل لحقا بالأب

أندريه فقال أندريه أندريتش سعيداً وهو يلوح بقبعتهها هو ذا أبي هناك! كم أحب والدي حقاً قال وهو يحاسب الحوذى.

عجوز رائع، عجوز طيب.

دخلت نادية المنزل غاضبة، مريضة، وهي تفكر أن المساء كله سيكون مشغولاً بالضيوف، وأن عليها أن تسليهم، وتبتسم، وتصغي إلى الكمان وتسمع أي هراء، ولا تتحدث إلا عن الزفاف وكانت الجدة جالسة بجوار السماور، وتبدو هامة، منتفخة في فستانها الحريري، ومتعالية كما كانت تتظاهر دائماً في حضرة الضيوف ودخل الأب أندريه بابتسامته الماكرة

وقال للجدة محيياً :يسعدني ويطيب لي أن أراك في كامل عافيتك وكان من الصعب أن تفهم هل يمزح أم يقول جاداً .

قرعت الريح النوافذ والسقف وتردد صفير، وغني عفريت البيت فيمدخنة المدفأة أغنيته باسترحام وجهامة كانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل وأوي الجميع في المنزل إلى أسرتهم ولكن أحد لم ينم، وتراءى لنادية أن الكمان لا يزال يعزف في الأسفل وسمعت طرقة حادة، لا بد أن مصراع الشيش قد انكسر

وبعد دقيقة دخلت نينا إيفانوفنا في قميص النوم وبيدها شمعة وسألت ـ :
ما هذا الذي طرق يا نادية؟

وبدت أمها في هذه الليلة العاصفة، بشعرها المجدول ضفيرة واحدة،

وبابتسامتها الوجلة، أكبر سناً وأكثر دمامة وأقصر قامة وتذكرت نادية كيف كانت تعد أمها منذ فترة قريبة امرأة غير عادية وكانت تصغي بفخر إلى ما تقوله من كلمات أما الآن فلم تستطع أبداً أن تتذكر تلك الكلمات،وكل ما خطر ببالها كان باهتاً، لا لزوم لهوتردد في المدفأة غناء عدة أصوات غليظة، بل سمعت حتى كلمة: آه، يا إلهى وجلست نادية في الفراش وفجأة شدت شعرها بقوة وانفجرت بالنحيب ودمدمت :

ماما، ماما، يا حبيبتي، لو تعلمين ما أعانى! أرجوك، أتوسل إليك، دعيني أسافر! أتوسل إليك !.

فسألت نينا إيفانوفنا دون أن تفهم:إلى أين؟ إلى أين تسافرين؟.

وجلست في الفراش وبكت نادية طويلاً دون أن تستطيع أن تنطق بكلمة وأخيرا قالت :

ـ دعينيأرحل من المدينة! لا ينبغيأن يتم الزفاف، ولن يتم؟ انهينى،أنا لا أحب هذا الشخص ولا أستطيع أن أتحدث عنه فقالت نينا إيفانوفنا بسرعة وقد خافت بشدة

ـ كلا، يا حبيبتى، كلا اهدئي، هذا بسبب المزاج المعتل سيزول هذايحدث أحياناً ربما اختلفت مع أندريه، ولكن شجار المحبين لهوفقالت نادية منتحبة : حسناً، اذهبى يا ماما، اذهبى!؟ وصمتت نينا إيفانوفنا ثم قالت :

-نعم، منذ فترة قريبة كانت طفلة، صبية، والآن أصبحت عروساً في الطبيعة يحدث دائماً تمثيل غذائى ولن تلاحظي إلا وقد أصبحت أماً وعجوزاً، وستكون لديك ابنة متمردة مثلما لدى.

فقالت نادية - :يا حبيبتي الطيبة، إنك ذكية، إنك تعيسة، أنت تعيسة جداً، فلماذا تقولين أشياء وضيعة؟ لماذا، أستحلفك بالله؟.

وأرادت نينا إيفانوفنا أن تقول شيئاً، ولكنها لم تستطع أن تنبس بكلمة فأجهشت وانصرفت وعادت الأصوات الغليظة تئز في المدفأة، وشعرت نادية بالخوف فجأة، فقفزت من السرير وأسرعت إلى أمها كانت نينا إيفانوفنا راقدة في الفراش، دامعة العينين، مغطاة ببطانية زرقاء وممسكة في يديها بكتاب

وقالت نادية ـ : أصغى إلى يا ماما !أتوسل إليك أن تتمعنى و تفهمى! انظرى كم هي ضحلة ومهينة حياتنالقد فتحت عيني وأرى الآن كل شيء وما هو أندريه أندريتش هذا ؟ إنه غير ذكى يا ماما! يا إلهى، يا ربى! افهمى يا ماما، إنه غبي.

فجلست نينا إيفانوفنا بحدة، وقالت وهي تجهش :

-أنت وجدتك تعذبانني أنا أريد أن أعيش أن أعيشرددت وضربت على صدرها بقبضتها مرتين - أعطوني حريتي! أنا ما زلت شابة، وأريد أن أعيش أما أنتم فجعلتم منى عجوزا !.

وبكت بحرقة ورقدت وتكورت تحت البطانية، فبدت جد صغيرة وبائسة وغبيةومضت نادية إلى غرفتها فارتدت ملابسها وجلست إلى النافذة تنتظر الصباح ظلت طول الليل جالسة تفكر بينما كان أحد ما يطرق الشيش طوال الوقت ويصفروفي الصباح اشتكت الجدة من أن الريح في الليل أسقطت كل التفاح في البستان وكسرت شجرة برقوق عجوز وكان الجو رمادياً كابياً، مقبضاً يتطلب إشعال الضوء واشتكى الجميع من البرد، وقرع المطر النوافذ وبعد تناول الشاى مضت نادية إلى ساشا، ودون أن تتفوه بكلمة ركعت على ركبتيها في الركن بجوار المقعد وغطت وجهها بيديها.

فسألها ساشا - :ماذا حدث؟

فدمدمت :

-لا أستطيع كيف احتملت العيشة هنا من قبل، لا أفهم، لا أتصور! إنني أحتقرخطيبى، أحتقر نفسي، أحتقر كل هذه الحياة الفارغة،العديمةالمعني.

فدمدم ساشا وهو لا يفهم بعد ماذا حدث :حسناً، حسناً، لا بأس، هذا حسناً فمضت نادية تقولمللت هذه الحياة لن أتحمل هنا يوماً واحداً سأسافر غداً خذني معك،أستحلفك بالله !

ظل ساشا يحدق فيها بدهشة حوالي دقيقة، وأخيراً فهم ففرح كطفل ولوح

بذراعيه وبدأ يدق بحذائه وكأنه يرقص من الفرحة وقال وهو يفرك يديه :
-هذا رائع، يا إلهي ما أروع ذلك !.

أما هي فحدقت فيه كالمسحورة، دون أن تطرف، بعينين واسعتين عاشقتين متوقعة أن يقول لها الآن شيئا ذا قيمة، لا حدود لأهميته ولم يكن قد قال شيئا بعد لكنه خيل إليها أن شيئا ما جديداً عريضاً لم تعرفة من قبل يتكشف أمامها، فراحت تنظر إلى ساشا وكلها انتظار، ومستعدة لكل شيء حتى ولو للموتوقال بعد لحظة تفكير :غدا سأسافر، ولتذهبي إلى المحطة لوداعى سآخذ أمتعتك في حقيبتي وأشترى لك تذكرة وعندما يدق الجرس الثالث ادخلى العربة، ونرحل معاً ستوصليتني إلى موسكو ثم تواصلين سفرك إلى بطرسبرج هل لديك بطاقة شخصية؟.

نعم.

وقال ساشا بحماس أقسم لك إنك لن تندمى ولن تأسفي وستسافرين وتلتحقين بالدراسة، ليتولك القدر عندما تقلبين حياتك ستغير كل شيء المهم أن تقلبي الحياة، وكل ما عدا ذلك غير مهمحسنا، إذن سنسافر غدا؟

-نعم أستحلفك بالله !

وخيل لنادية أنها مضطربة جداً، وأن قلبها منقبض كما لم ينقبض من قبل، وأن عليها من الآن وحتى الرحيل أن تعانى وتفكر بعذاب ولكن ما إن صعدت إلى غرفتها وتمددت على السرير حتى غابت في سبات عميق حتى المساء، بوجه باك عليه ابتسامة.

أرسلوا يستدعون عربة وكانت نادية قد ارتدت المعطف والقبعة وصعدت إلى أعلى لتلقي نظرة أخرى على أمها وعلى كل ما لها ووقفت في غرفتها بجوار الفراش الذي كان لا يزال دافئاً، ونظرت حولها، ثم ذهبت بهدوء إلى غرفة أمها كانت نينا إيفانوفنا نائمة، وساد الهدوء الغرفة وقبلت نادية أمها وسوت لها شعرها، وقفت حوالي دقيقتين ثم عادت إلى أسفل على مهلكان المطر شديداً في الخارج ووقف الحوذى بعربته المغطاة بجوار البابوملابسه كلها مبللة وقالت الجدة عندما بدأ الخدم يرتبون الحقائب في العربة :

-لن تتسع لكما يا نادية ما حاجتك إلى التوديع في هذا الجو !هلا بقيت في البيت يا للمطر؟.

وأرادت نادية أن تقول شيئاً ولكنها لم تستطع وها هو ذا ساشا يجلس نادية

ويغطى ساقيها بمئزرة وها هو ذا نفسه يجلس بجوارها.

وصاحت الجدة من السلاملك :طريق السلامة! في رعاية الله! اكتب لنا يا ساشا من موسكو !حسنا، الوداع يا جدتيفلترعك السماوات! ودمدم ساشاياله من جو؛الآن فقط بكت نادية أصبح واضحاً لها الآن أنها راحلة حتما، الأمر الذي لم تكن واثقة منه عندما ودعت الجدة وعندما كانت تتطلع إلى أمها وداعاً يا مدينة! وفجأة تذكرت كل شيء: أندريه، وأباه، والشقة الجديدة، والمرأة العادية مع المزهرية، ولم تشعر بالخوف من كل ذلك ولم تحس له وطأة، وبدا ساذجاً وتافهاً وتراجع إلى الوراء، إلى الوراء وعندما استقلا العربة وتحرك القطار، انكمش كل هذا الماضي الكبير والخطير قبضة صغيرة، وتكشف مستقبل ضخم عريض لم يكن واضحاً قبل الآن، وقرع المطر زجاج العربة، ولم يظهر سوى حقل أخضر، ومرقت أعمدة البرق والطيور الجالسة على أسلاكها، وفجأة بهرتها السعادة، وتذكرت أنها ذاهبة إلى الحرية، والتعلم، وهو نفس الأمر الذي كان يسمى في الماضي البعيد الذهاب إلى القوزاقلقد كانت تضحك وتبكي وتصلي.

وكان ساشا يردد مبتسما - :.لا بأس، لا بأس !.

مر الخريف، ومر من بعده الشتاء وأصبحت نادية تعاني وحشة شديدة وتتذكر كل يوم أمها وجدتها وتفكر في ساشا وكانت تتلقى من المنزل رسائل هادئة، طيبة، وبدا أن كل شيء قد غفر ونسي وبعد الامتحانات، في شهر مايو سافرت إلى البيت وهي ممتلئة صحة ومرا، وتوقفت أثناء الطريق في موسكو لتري ساشا وجدته مثلما كان في الصيف الماضي: بلحية، منفوش الشعر، وفي نفس السترة والسروال الخشن، وبنفس العينين الواسعتين الرائعتين ولكنه بدا مريضاً، مرهقاً، وهرم وهزل ولم يفارقه السعال ولسبب ما بدا لنادية رمادياً، ريفياً وقال وهو يضحك بمرحيا إلهي، نادية جاءت ! يا عزيزتي الوديعة !.

وجلسا في الورشة التي كانت معبأة بالدخان وفاحت فيها إلى درجة خانقة رائحة الجواش والأصباغ ثم توجها إلى غرفته،وكانت معبأة بالدخان وأرضيتها مغطاة بالبصاق وبجوار السماور البارد على الطاولة كان طبق مكسور وورقة سوداء، وكان على الطاولة وعلى الأرض عدد كبير من الذباب الميت وبدا واضحاً من كل شيء أن حياة ساشا الخاصة قد رتبت بإهمال، وكيفما اتفق، باحتقار تام للوازم الراحة، ولو أن أحداً تحدث معه عن سعادته الخاصة وحياته الخاصة وعن الحب الذي يكنه له لما فقه شيئاً ولضحك.

وحدثته نادية بعجلة - :لا بأس، كل شيء سار على ما يرام زارتنى ماما في بطرسبرج في الخريف، وقالت إن جدتي غير غاضبة وإن كانت تتردد على غرفتي كثيراً وترسم علامة الصليب على الجدرانوكان ساشا مرحاً، ولكنه كان يسعل ويتحدث بصوت مشروخ، وحدقت فيهنادية وهي لا تفهم أهو مريض مرضاً خطيراً بالفعل أم أن ذلك يخيل إليهاوقالت - :ساشا، يا عزيزى، ولكنك مريض - !كلا،لا بأس إنني مريض ولكن ليس بشدة فاضطربت نادية وقالت :- آه، يا إلهي، لماذا لا تتعالج، لماذا لا تحافظ على صحتك؟ ساشا يا عزيزى الغالي قالت وطفرت الدموع من عينيها ولسبب ما تجلى في خيالها إندريه إندريتش، والمرأة العارية والمزهرية، وكل ماضيها، الذي بدا لها الآن جد بعيد كالطفولة وبكت لأن ساشا لم يعد يبدو لها جديداً، مثقفاً، وممتعاً كما كان في العام الماضي - ساشا يا عزيزى، أنت مريض جداً جداً لا أدري ما الذي أستطيع أن أفعله لكي لا تكون شاحباً هكذاكم أنا مدينة لك! أنت لا تستطيع حتى أن تتصور مدى ما فعلت من أجلى يا ساشا الغالى! أنت بالنسبة لي في الواقع أقرب وأعز إنسان

جلسا وتحدثا وأحست نادية الآن، بعد أن قضت الشتاء في بطرسبرج، أنه قد انبعثت من ساشا، و من كلماته، ومن ابتسامته، ومن هيئته كلها روائح شيء عتيق، مضي وانتهى، بل ربما طواه القبر

وقال ساشا :

-سأسافر بعد غد إلى الفولجا، ثم إلى المراعي طلباً للبن الخيول أريد أن أشرب لبن الخيول وسيسافر معي أحد الأصدقاء مع زوجته إنها إنسان رائع ألح عليها لكي تدرس أريدها أن تقلب حياتهاوبعد أن تحادثا ذهبا إلى المحطة، وضيفها ساشا شاياً وتفاحاً وعندماتحرك القطار ولوح لها ساشا بالمنديل وهو يبتسم، بدا حتى من ساقيه أنه مريض جداً، ولن يعيش طويلاً على الأرجح.

وصلت نادية إلى مدينتها في منتصف النهار، وعندما توجهت من المحطة إلى البيت بدت لها الشوارع عريضة جدا والبيوت صغيرة مسطحة لم يكن هناك بشر فلم تقابل سوى ضابط المعازف الألماني في معطف أصفر وكأنماكانت البيوت كلها مغطاة بالغبار أما الجدة، التي هرمت تماماً، وإن بقيت ممتلئة ودميمة كما كانت، فقد أحاطت نادية بذراعيها وبكت طويلاً ملصقة وجهها بكتف نادية وهي لا تستطيع أن تنزعه وشاخت نينا إيفانوفنا بشدةهي الأخرى وازدادت قبا، وضمرت كلها، وإن ظلت كما كانت مشدودةبالكورسيه ولمعت الماسات على أصابعها.

وقالت وجسدها كله يرتعش - :يا حبيبتي، يا حبيبتي !

ثم جلسن وبكين في صمتوكان واضحاً أن الجدة والأم أحستا أنالماضي ضاع إلى الأبد وبلا رجعة: لم يعد ثمة مكانة في المجتمع ولا الشرف السابق، ولا الحق في دعوة الناس إليهم هكذا الحال عندما يحدث وسط الحياة السهلة الخالية من الهموم أن تأتي الشرطة ليلاً فجأة فتجرى تفتيشاً، ويتضح أن رب الدار بدد أموالاً أو زور أوراقاً، وعندئذ فوداعا إلى الأبد أيتها الحياة السهلة، الخالية من الهمومو صعدت نادية إلى أعلى فرأت نفس الفراش، ونفس النوافذ بستائرها البيضاء الساذجة، ورأت من النافذة نفس البستان الغارق في الشمس، المرح، الصاخب ولمست طاولتها، وجلست، وفكرت قليلاً وتغدت جيداً، وشربت الشاى بلبن دسم لذيذ، ولكنها أحست بشيء ناقص، أحست بخواء في الغرف، وكانت الأسقف منخفضة وفيالمساء أوت إلى الفراش، ولسبب ما أحست أنه من المضحك النوم في هذا الفراش الدافئ الناعم جداًوجاءت نينا إيفانوفنا للحظة، وجلست كما يجلس المذنبون، بوجل وحذر وسألت بعد صمت :

حسنا يا نادية، كيف الحال؟ هل أنت راضية؟ راضية جدا؟.

-راضية يا ماما.

ونهضت نينا إيفانوفنا ورسمت علامة الصليب على نادية وعلى النوافذ.

وقالت :أما أنا فقد أصبحت متدينة كما ترين أتعلمين، أنني أدرس الفلسفة الآن وأفكر كثيراً واتضحت لي الآن أشياء كثيرة كالنهار قبل كل شيء ينبغي أن تمضي الحياة كلها مثلما من خلال بؤرة العدسة.

أيونيتش

عندما كان القادمون إلى مدينة س عاصمة المحافظة يشكون من الملل ورتابة الحياة فيها، كان السكان المحليون يقولون، كأنما يعتذرون، إن الحياة في سعلى العكس جيدة جدا، وإنه توجد في س مكتبة ومسرح وناد، وتقام فيها الحفلات الراقصة، وأخيراً فهناك أناس شيقون وعائلات لطيفة يمكن التعرف إليها وكانوا يشيرون إلى عائلة توركين، باعتبارها أكثر العائلات ثقافة وموهبة .

كانت هذه العائلة تسكن في الشارع الرئيسي، بجوار المحافظ، في بيت ملكها وكان إيفان بتروفتش توركين نفسه،وهو رجل أسمر جميل، بدين، بسوالف، يقيم عروض الهواة التمثيلية لأغراض خيرية، ويلعب بنفسه أدوار الجنرالات العجائز، ويسعل أثناء ذلك بصورة مضحكة للغاية كان يعرف الكثير من النكات والألغاز والأمثال، ويحب المزاح والقفشات، وعلى وجهه يرتسم دائماً تعبير لا تفهم منه إن كان يمزح أم يتكلم بجد وكانت زوجته فيرا يوسفوفنا، وهي امرأة نحيلة، لطيفة، في عوينات، تكتب القصص والروايات، وتقرأها بصوت مسموع لضيوفها عن طيب خاطر أما ابنتهم، يكاترينا إيفانوفنا، الفتاة الشابة، فكانت تعزف على البيانو وباختصار كانت لكل فرد من أفراد العائلة موهبته الخاصة وكان آل توركين يستقبلون الضيوف بحفاوة ويعرضونعليهم مواهبهم بمرح، وببساطة قلبية

وكان بينهم الحجري الكبير رحباً، وفي الصيف بارداً، ويطل نصف النوافذ على بستان قديم ظليل تصدح فيه البلابل ربيعاً وعندما يجلس الضيوف في الداخل، تسمع من المطبخ ضربات السكاكين، وتفوح في الفناء رائحة البصل المحمر وكان ذلك يبشر في كل مرة بعشاء لذيذ حافل .

وقد قيل أيضا للدكتور ستارتسف، ديمترى أيونيتش، إثر تعيينه طبيبا إقليميا واستقراره في دياليج، على بعد تسعة فراسخ من س، إنه لا بد له كشخص مثقف من التعرف على آل توركينوذات مرة، شتاء، قدموه إلى إيفان بتروفتش في الشارع فتحدثا عن الطقس، وعن المسرح، وعن الكوليرا، وتلت ذلك الدعوة وفي الربيع، يوم العيد وكان ذلك عيد الصعود وبعد أن فرغ ستارتسف من استقبال المرضى، رحل إلى المدينة ليرفه عن نفسه قليلاً، وبالمناسبة، ليشترى بعض الأشياء سار على قدميه، على مهل لم يكن قد اقتنى خيوله الخاصة بعد وهو يدندن طوال الطريق :

لم أكن قد ذقت مر الدمع من كأس الوجود .

تغدى في المدينة وتنزه في الحديقة، وبعد ذلك تذكر عفواً دعوة إيفانبتروفتش فقرر أن يذهب إلى آل توركين ليرى أي ناس هؤلاء.

قال إيفان بتروفتش وهو يلقاه على الدرج :

-مرحبا سعيد، جداً برؤية مثل هذا الضيف اللطيف هيا أقدمك إلى نصفي الحلو ومضى يقول وهو يقدم الدكتور إلى زوجته إنني أقول له يا فيروتشك أنه لا يملك أي حق روماني في الاختفاء هناك في المستشفى عليه أن يعطي وقت فراغه للمجتمع أليس كذلك يا روحى؟<

- اجلس هنا - قالت فيرا يوسفوفنا وهي تجلس الضيف بجوارها يمكنك أن تغازلنيزوجي غيور، إنه عطيل، ولكننا سنحاول أن نفعل ذلك دون أن يلاحظ شيئاً .

-آه منك يا كتكوتة، يا شقيةدمدم إيفان بتروفتش برقة وقبلها في جبينها

جئت في الوقت المناسب قال مخاطبا الضيف من جديد لقد كتب نصفى الحلو رواية كبورة، وسوف تقرأها لنا اليوم .

فقالت فيرا يوسفوفنا لزوجها :ديا جانتشيكوقدموا لستارتسف يكاترينا إيفانوفنا، فتاة في الثامنة عشرة، تشبه أمها كثيراً، ومثلها نحيلة ولطيفة كانت قسماتها لا تزال طفولية، وخصرها دقيق ورقيق وكان صدرها العذري الكاعب، الجميل، العفى ينبئ بالربيع، الربيع الحقيقي ثم شربوا الشاي مع المربى والعسل والحلويات ومع بسكوت لذيذ جداً كان يذوب في الأفواه وبحلول المساء توافد الضيوف شيئاً فشيئاً، وكان إيفان بتروفتش يحدج كلا منهم بعينيه الضاحكتين

ويقول - : مرحبا .

ثم جلسوا جميعاً في غرفة الجلوس بوجوه جادة للغاية، وراحت فيرايوسفوفنا تقرأ لهم روايتها وبدأتها هكذا: صقع الصقيعكانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها، وسمعت ضربات السكاكين في المطبخ وتناهت رائحة البصل المحمر واطمأنت النفوس في المقاعد اللينة العميقة، وومضت الأضواء برقة في غسق الغرفة، وفي هذا المساء الصيفي، الذي تناهت فيه منالشارع أصوات وضحكات، وهبت من الفناء رائحة البنفسج، كان من العسير أن تفهم كيف صقع الصقيع، وكيف أضاءت الشمس الغاربة بأشعتها الباردة السهل الثلجي وذلك المسافر الوحيد في الطريق كانت فيرا يوسفوفنا تقرأ عن كونتيسة شابة جميلة نشيد المستشفيات والمدارس والمكتبات في قريتها، وكيف أحبت مصورا جوالاً كانت تقرأ عما لا يحدث أبدا في الحياة، ومع ذلك كان سماعها لطيفاً ومريحاً، فكانت تتوارد إلى الذهن أفكار طيبة مطمئنة، ولا تشعر بالرغبة في الانصراف .

وقال إيفان بتروفتش بصوت خافت - :لم بأس؟.

وقال أحد الضيوف لا يكاد يسمع وهو يصغي ويحلق بأفكاره بعيداًجداً :

-نعم بالفعل.

ومرت ساعة، وأخرى وفي حديقة المدينة، المجاورة لهم، عزفت فرقة موسيقية وغنت جوقة منشدين، وعندما أغلقت فيرا يوسفوفنا دفترها صمتوا حوالي خمس دقائق وهم يستمعون إلى أغنية لوتشينوشكا التي كانت الجوقة تغنيها، وعبرت هذه الأغنية عما لم يكن في الرواية وعما يوجد في الحياة .

وسأل ستارتسف فيرا يوسفوفنا - :هل تنشرين مؤلفاتك في المجلات؟ فأجابتكلا، أنا لا أنشرها في أي مكانأكتبها وأخبئها في الصوان وقالتموضحة ولماذا النشر؟ إن لدينا مواردنا .

ولسبب ما تنهد الجميع .

وقال إيفان بتروفتش لابنته - :والآن يا قطة، اعزفي شيئاً ما .

ورفعوا غطاء البيانو، وفتحوا النوت الموضوعة هناك سلفاً وجلست يكاترينا إيفانوفنا إلى البيانو وأهوت بكلتا يديها على المفاتيح ثم أهوت على الفور مرة أخرى بكل قوتها، ثم مرة أخرى، فأخرى وارتعش كتفاها وصدرها، وأخذت تدق بعناد على نفس الموضع، وبدا أنها لن تكف حتى تحشر المفاتيح داخل البيانو وامتلأت غرفة الجلوس بالرعد كان كل شيء يرعد: الأرض، والسقف، والأثاث كانت يكاترينا إيفانوفنا تعزف مقطعاً صعباً، أطرف ما فيه صعوبته، مقطعاً طويلاً رتيباً، فأخذ ستارتسف يصغي ويتصور أحجاراً تهوى من جبل عال، تهوى بلا انقطاع

وأراد أن تكف عن السقوط بسرعة، وفي الوقت نفسه أعجبته جداً يكاترينا إيفانوفنا، المتوردة من التوتر، القوية، النشطة، بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها وبعد الشتاء الذي قضاه في دياليج بين الفلاحين والمرضى، كان الجلوس في هذه الغرفة، والتطلع إلى هذا المخلوق الفتى الرشيق، والطاهر على الأرجح، والاستماع إلى هذه الأصوات الصاخبة المزعجة، والراقية مع ذلك كم كان هذا لطيفاً وجديداً .

وقال إيفان بتروفتش والدموع تترقرق في عينيه عندما انتهت ابنتهونهضت :يا سلام يا قطة، لعبت اليوم كما لم تلعبي أبداً لو مت يا دينيس، فلن تكتب أفضل من ذلك.

وأحاط بها الجميع، وهنأوها، وأعربوا عن إعجابهم وأقسموا أنهم لميسمعوا منذ زمن بعيد موسيقى كهذه، أما هي فأصغت في صمت، بابتسامة خفيفة، ونطقت هيئتها كلها بالظفر.

-رائع! ممتاز!-

-رائع ! قال ستارتسف أيضاً منساقاً مع الإعجاب العام، وسألها: أينتعلمت الموسيقى؟ في الكونسرفاتوار؟ .

-كلا، أنا أستعد للالتحاق بالكونسرفاتوار، لكني حتى الآن كنت أدرسها، عند مدام زافلوفسكايا-

-هل تخرجت من مدرسة المدينة؟.

-أوه، كلا أجابت عنها فيرا يوسفوفنا - لقد دعونا المدرسين لتدريسها منزلياً. ففي المدرسة أو المعهد يمكن أن تكون تأثيرات سيئة.الفتاة أثناء نموها يجب أن تكون تحت تأثير أمها فقط

فقالت يكاترينا إيفانوفنا: ومع ذلك سأذهب إلى الكونسرفاتواركلا، القطة تحب ماما القطة لن تفعل ما يغضب بابا وماما .

-كلا، سأذهب، سأذهب! قالت يكاترينا إيفانوفنا بمزاح ونزق، ودقتالأرض بقدمها .

أما أثناء العشاء فقام إيفان بتروفتش بعرض مواهبه كان يضحك بعينيهفقط وهو يروي النكات، ويمزح، ويطرح مسائل مضحكة ويحلها بنفسه، ويتحدث طوال الوقت بلغته غير العادية التي اكتسبها بالمران الطويل على التندر، وأصبحت عادة لديه منذ زمن بعيد فيما يبدو : كبور، لم بأس، شكرا هزيلاً.

ولم يكن ذلك كل شيء فعندما تزاحم الضيوف الشباع المسرورون فيالمدخل وهم يتناولون معاطفهم وعصيهم دار حولهم الخادم بافلوشا، أو كما كانوا يسمونه هنا: بافا، وهو صبي في حوالي الرابعة عشرة، حليق الشعر، بخدين ممتلئين

فقال له إيفان بتروفتش :

-هيا يا بافا، مثل! فاتخذ بافا وضعاً تمثيلياً، ورفع يده إلى أعلى وقال بصوت مأساوى :فلتموتي أيتها التعيسة! و قهقه الجميع .

طريف قال ستارتسف لنفسه وهو يخرج إلى الشارع وذهب إلى المطعم فشرب بيرة، ثم توجه إلى دياليج سيراً على الأقدام .

وظل طوال الطريق يدندنصوتك في سمعي عذب وشجى.

وعندما استلقي لينام بعد أن قطع تسعة فراسخ لم يشعر بأي تعب، بالعكس

فقد بدا له أنه يستطيع بكل سرور أن يقطع عشرين فرسخاً أخرى .

لم بأس. تذكر وهو ينعس فضحك .

نوى ستارتسف أن يزور آل توركين، ولكن العمل في المستشفى كان كثيراًجداً فلم يتمكن من اقتناص ساعة فراغ ومر أكثر من سنة على هذه الحال منالكد والوحدة ولكن ها هم أولاء قد جاءوا من المدينة برسالة في مظروفأزرق .

كانت فيرا يوسفوفنا تعاني من صداع نصفى منذ زمن بعيد، ولكن نوبات الصداع تزايدت في الفترة الأخيرة عندما أصبحت القطة تخيفها كل يوم بالرحيل إلى الكونسرفاتوار وجاء إلى آل توركين كل أطباء المدينة

حتى وصل الدور أخيراًعلى الطبيب الإقليمي كتبت له فيرا يوسفوفنا رسالة رقيقة دعته فيها إلى الحضور وتخفيف عذابهاوجاء ستارتسف، وبعد ذلك أصبح يتردد على آل توركين كثيراً، كثيراً جداً .

وبالفعل فقد خفف عن فيرا يوسفوفنا إلى حد ما، فراحت تقول لجميع الضيوف إنه دكتور مدهش، عظيم ولكنه لم يعد يزور آل توركين الآن من أجل صداعها .

كان يوم عيد وأنهت يكاترينا إيفانوفنا تمريناتها الطويلة المرهقة علىالبيانو وبعد ذلك جلسوا طويلا في غرفة الطعام يتناولون الشاى، وروى إيفان بتروفتش شيئاً ما مضحكا وها هو ذا جرس الباب يدق، ولا بد من الذهاب إلى المدخل لاستقبال ضيف ما وانتهز ستارتسف فرصة الاضطراب فقال ليكاترينا إيفانوفنا همساً وهو في شدة الانفعال :أرجوك، أتوسل إليك، لا تعذبينى، فلنذهب إلى البستان !

هزت كتفيها كأنما تستغرب ولا تفهم ما الذي يريده منها، ولكنها نهضتوذهبتوقال وهو يتبعها :

-أنت تعزفين على البيانو بالثلاث والأربع ساعات، ثم تجلسين مع ماما،

وليس هناك آية فرصة للحديث معك أعطيني ولو ربع ساعة، أرجوك .

كان الخريف يقترب، فكان الجو هادئاً وحزيناً في البستان القديم، وغطت أرض الممرات أوراق داكنة وأصبح الغسق يهبط مبكراً .

ومضى ستارتسف يقول - :أنا لم أرك أسبوعاً كاملاً، وآه لو تعلمين أن عذاب هذا فلنجلس أصغىإلى .

كان لديهما مكان مفضل في البستان: أريكة تحت شجرة قيقب عجوز

عريضةوها هما ذان قد جلسا على هذه الأريكة .

وسألت يكاترينا إيفانوفنا بجفاء، بصوت عملى :ماذا تريد؟.

-أنا لم أرك أسبوعاً كاملاً، لم أسمعك منذ مدة طويلة أنا مشتاق جداً، أنا

ظمآن إلى صوتك تكلمي .

أثارت إعجابه بنضارتها وبتعبير السذاجة في عينيها وخديها حتى في كون الفستان لائقاً عليها رأى ستارتسف شيئاً رقيقاً للغاية ومؤثراً ببساطته ورشاقته الساذجة وفي الوقت نفسه، وبالرغم من هذه السذاجة، بدت له ذكية جداً وناضجة بأكبر من سنها كان بوسعه أن يتحدث معها عن الأدب وعن الفن، عن أي شيء، بوسعه أن يشكو لها من الحياة والبشر، رغم أنه كان يحدث أثناء الحديث الجاد أن تضحك فجأة دون مناسبة أو تركض إلى البيت كانت ككل فتيات مدينة س تقرأ كثيراً

وعموما فقد كانوا فيس يقرأون قليلاً جدا، وكانوا في المكتبة المحلية يقولون إنه لولا الفتيات واليهود الشبان لوجب إغلاق المكتبة وكان ذلك يعجب ستارتسف إلى أقصى حد، وفي كل مقابلة كان يسألها بانفعال عما قرأته في الآونة الأخيرة، ويصغي مسحوراً إلى ما ترويهوسألها الآن - : وماذا قرأت في الأسبوع الأخير الذي لم نتقابل فيه؟ تحدثيأرجوك .

قرأت بيسيمسكيوماذا بالتحديد؟فأجابت القطةألف نفس كم كان اسم بيسيمسكى مضحكاً: أليكسيفيوفيلاكتش !

-إلى أين أنت؟قال ستارتسف بذعر عندما نهضت فجأة ومضت إلى البيت - أنا بحاجة إلى الحديث معك، يجب أن أصارحك ابقى معي ولو خمس دقائق ! أستحلفك !فتوقفت كأنما تريد أن تقول شيئا، ثم دست في يده بحرج قصاصة وركضت إلى البيت، حيث جلست إلى البيانو من جديد .

وقرأ ستارتسف: اليوم في الحادية عشرة مساء انتظرني في المقابر عند تمثال ديميتى.

وفكر عندما عاد إلى صوابه: ليس هذا ذكيا على الإطلاق ما دخل المقابر هنا؟ لأي غرض؟ .

كان واضحا أن القطة تعبث وبالفعل فمن ذا الذي يفكر جدياً في تحديدموعد ليلاً، بعيداً خارج المدينة، في المقابر، بينما من السهل تدبير ذلك في الشارع، في حديقة المدينة؟ وهل تليق به وهو طبيب الإقليم، الرجل الذكي الرصين هذه الزفرات والرسائل والتسكع في المقابر وارتكاب الحماقات التي يضحك منها الآن حتى تلاميذ المدراس؟ إلى أين ستقوده هذه الغراميات؟ وما الذي سيقوله رفاقه إذا علموا؟ هكذا فكر ستارتسف وهو يتجول في النادي حول طاولات القمار، ولكنه في منتصف الحادية عشرة قرر فجأة أن يرحل إلى المقابر .

كان قد اقتني زوجاً من الجياد وحوذيا يدعى بانتيليمون، يرتدى صديريامن القطيفة وكان القمر في السماء وساد الهدوء والدفء، ولكنه دفء خريفي وفي ضاحية المدينة، قرب المجزر، عوت الكلاب وترك ستارتسفعربته عند طرف المدينة في إحدى الحارات، وذهب إلى المقابر وفكر: لكل شخص غرائبه والقطة أيضاً غريبة ومن يدري، ربما لم تكن تمزح، وستأتي واستسلم لهذا الرجاء الضعيف الفارغ فانتشي .

قطع نصف فرسخ عبر الحقل ولاحت المقابر منبعيد خطاً أسود كالغابةأو البستان الكبير وظهر سور حجري أبيض وبوابة وكان من الممكن في ضوء القمر قراءة هذه الكلمات على البوابة: تأتى ساعة يسمع فيها جميع من في القبورودخل ستارتسف

وكان أول ما رآه الصلبان البيضاء والتماثيل على كلا جانبي الممر الطويل العريض، وظلالاً سوداء ترتمي منها ومن أشجار الحور كان الأبيض والأسود مرئيين لمسافة بعيدة حوله، وأسدلت الأشجار الناعسة أغصانها على الأبيضوبدا أن المكان هنا أكثر نوراً من الحقل وبرزت أوراق القيقب التي تشبه المخالب بحدة على خلفية الرمال الصفراء في الممرات وعلى الألواح كما كانت الكتابات على التماثيل بادية أذهل ستارتسف في اللحظات الأولى ما يراه الآن لأول مرة في حياته وما لن يتسنى له في الغالب أن يراه بعد ذلك عالم لا يشبه أي شيء آخر، عالم فيه نور القمر جميل وناعم إلى هذه الدرجة، وكأنما هنا مهده، عالم ليس فيه حياة أبداً أبداً، ولكنك تحس في كل شجرة حور قاتمة وفي كل قبر بوجود سر بعد بحياة هادئة رائعة خالدة ومع رائحة أوراق الخريف ينبعث من الألواح والأزهار الذابلة الغفران والأسى والسكينة .

الصمت يلف المكان وأطلت النجوم من السماء في استكانة عميقة، فترددت خطوات ستارتسف بحدة ونشاز وعندما بدأت ساعة الكنيسةتدق وتصور نفسه ميتاً ومدفوناً هنا إلى الأبد، عندئذ فقط خيل إليه أن أحداً يتطلع إليه، ففكر للحظة أن هذا ليس هدوءاً وسكينة، بل وحشة العدم الصماء، واليأس المكبوتكان تمثال ديميتي على شكل مصلى بملاك في أعلاه في زمن ما مرت بمدينة س فرقة أوبرا إيطالية، وتوفيت إحدى المغنيات فدفونها هنا وأقاموا لها هذا التمثال ولم يعد أحد يذكرها في المدينة، ولكن القنديل المعلق على المدخل عكس ضوء القمر فبدا وكأنما يشتعل

لم يكن هناك أحد ومن ذا الذي سيأتي إلى هنا في منتصف الليل؟ ولكن ستارتسف انتظر وكأنما ألهب فيه ضوء القمر العواطف الجياشة فراح ينتظر بهيام ويرسم في خياله القبلات والأحضان وجلس بجوار التمثال نصف ساعة، ثم تمشي في الممرات الجانبية وقبعته في يده وهو ينتظر ويفكر: كم يرقد هنا في هذه القبور من نساء وفتيات، كن جميلات، فاتنات، أحببن، وتأججت شهواتهن في الليالي مستسلمات للحنان وما أسوأ مزاح أمنا الطبيعة بالإنسان، في الواقع، وما أمر أن تعي ذلك! كان ستارتسف يفكر هكذا، وفي الوقت نفسهود لو يصرخ بأنه يريد الحب وينتظره مهما كان الأمر ولم يعد ما يلمع أمامه هو القطع المرمرية البيضاء بل أجساد رائعة، رأى تكويناتها تتستر في خجل بظلال الأشجار، وأحس بدفئها، وأصبح هذا الضني لا يطاق

كأنما أسدل الستار اختفى القمر خلف السحب، فأظلم المكان كله فجأة وبالكاد عثر ستارتسف على البوابة، فقد كان الجو مظلما ، ثم تخبط حوالى ساعة ونصف بحثاً عن الحارة التي ترك فيها العربة وقال لبانتيليمونأنا متعب، لا أكاد أقف على قدمى وعندما جلس بتلذذ في العربة فكر: آه، لا يجوز أن أسمن.

في مساء اليوم التالي رحل إلى آل توركين ليخطب ابنتهم ولكن الفرصة لم تكن مناسبة، إذ كان الحلاق يصفف شعريكاترينا إيفانوفنا في غرفتها كانت تستعد للذهاب إلى حفلة راقصة في النادي .

واضطر مرة أخرى إلى الجلوس طويلاً في غرفة المائدة وشرب الشايوعندما رأى إيفان بتروفتش أن ضيفه مستغرق في التفكير وضجر أخرج من جيبه أوراقاً وقرأ رسالة مضحكة من وكيل أعماله الألماني يقول فيها إن جميع أقفال الأبواب في الضيعة قد عندت وأن الحيطان قد جلست .

وفكر ستارتسف وهو يصغى إليه شارد البال: أظن أنهم سيعطون بائنة كبيرة .

كان في حالة من الذهول بعد ليلة مسهدة وكأنما سقوه شراباً حلواً منوماً. وكان الضباب يلف روحه، ولكنه أحس بالفرحة والدفء، وفي الوقت نفسهكانت ثمة قطعة باردة ثقيلة في رأسه تفكر :توقف قبل فوات الأوان؟ هل هي تناسبك؟ إنها مدللة، نزقة، تنام حتىالساعة الثانية، أما أنت فابن شماس، طبيب إقليميوقال في نفسه: وماذا؟ فليكن ومضت القطعة تقول: وعلاوة على ذلك إذا تزوجتها فسوف يرغمكأهلها على ترك العمل في الإقليم والعيش في المدينة.

وأخيرا دخلت يكاترينا إيفانوفنا في فستان سهرة ديكولتيه، جميلة، نظيفة، فمتع ستارتسف عينيه منها وتملكه الإعجاب لدرجة أنه لم يستطع أن يتفوه بكلمة، بل أخذ يتطلع إليها ويضحك وهمت بالانصراف فنهض فالمرضى في انتظاره

فقال إيفان بتروفتش - :طيب، ما العمل، اذهب، وبالمناسبة توصل القطة إلى الناديكان مطر خفيف يسقط في الخارج، والظلام حالك،ومن سعال بانتيليمونا لأبح وحده كان يمكن تحديد مكان العربة وشدوا غطاء العربية .

وقال إيفان بتروفتش وهو يجلس ابنته في العربة - :أنا أفقت من النوم، أنت أفقت، هو أفاق، هم أفاقوا أفاقون هيا، تحرك .

وتحركو وقال ستارتسف - :لقد ذهبت أمس إلى المقابر كم كنت ظالمة وقاسية على هل كنت في المقابر؟نعم، وانتظرتك حتى الساعة الثانية كنت أتعذب فلتتعذب ما دمت لا تفهم المزاح قهقهت يكاترينا إيفانوفنا وقد أسعدها أنها مزحت بهذه الصورة الماكرةمن عاشقها وأنه يحبها إلى هذه الدرجة، ولكنها صرخت فجأة رعباً، ففى تلك اللحظة انعطفت العربة بحدة إلى بوابة النادي فمالت وطوق ستارتسف خصرها فالتصقت به مذعورة، ولم يتمالك نفسه فقبلها بشهوة في شفتيها وذقنها، وضمها إليه بشدةفقالت بجفاءكفى .

وبعد لحظة لم تكن في العربة، وصاح الشرطى الواقف بجوار مدخلالنادي المضاء في بانتيليمون بصوت منفرمالك تقف أيها الغراب؟ سر في طريقك !ورحل ستارتسف إلى بيته، لكنه سرعان ما عاد ارتدى فراكاً مستأجراً ورابطة عنق بيضاء قاسية كانت تنفر وتوشك على الانزلاق عن الياقة وفي منتصف الليل كان جالساً في قاعة الجلوس في النادي يقول ليكاترينا إيفانوفنا بهيام

-أوه، ما أقل ما يعرف أولئك الذين لم يحبوا! يخيل إلى أن أحداً لم يصور الحب تصويراً صحيحا حتى الآن، ولا أظن أنه من الممكن تصوير هذا الإحساس الرقيق البهيج المضني، ومن كابده ولو مرة فلن يصوره بالكلمات ما الداعي للمقدمات والتصوير؟ ما الداعي للبلاغة التي لا معنى لها؟ إن حبي بلا حدود أرجوك، أتوسل إليك . قال ستارتسف أخيرا - كونى زوجتي ! ففكرت يكاترينا إيفانوفنا ثم قالت وعلى وجهها تعبير جاد جداً :

يا ديمترى أيونيتش، أنا ممتنة لك جداً على هذا التشريف، إنني أحترمك ولكن ونهضت وهي واقفة ولكن اعذرني، لا أستطيع أنأكون زوجتك.

فلنتحدث جدياً أنت تعرف يا ديمتري أيونيتش أنني أحب الفن أكثر من أي شيء، إنني أهوى الموسيقى، أحبها بجنون، وقد وهبتها كل حياتي أنا أريد أن أصبح فنانة، أريد الشهرة والنجاح والحرية، وأنت تريدنى أن أواصل الحياة في هذه المدينة، أواصل هذه الحياة التافهة الخاوية التي أصبحت لا أحتملها. أن أصبح زوجة أوه، كلا، اعذرني ! يجب على الإنسان أنيسعى إلى هدف أسمى باهر، أما الحياة العائلية فستقيدني إلى الأبد با ديمترى أيونتيتش وابتسمت قليلاً، فعندما قالت ديمترى أيونيتش تذكرتأليكسي فيوفيلاكتش، يا ديمترى أيونيتش، أنت رجل طيب، نبيل، ذكى،أنت أحسن الجميع واغرورقت عيناها بالدموع أنا أتعاطف معك من كل قلبى، ولكن ولكنك ستفهم واستدارت كى لا تبكي وخرجت من القاعة

كف قلب ستارتسف عن الخفقان المؤلم وكان أول ما فعله عندما خرج من النادي أن انتزع من رقبته ربطة العنق القاسية وتنفس بملء رئتيه كان يشعر بشيء من العار وبأن كرامته أهينت إذ لم يتوقع الرفض ولم يصدق أن كل أحلامه ولوعته وآماله قد أفضت به إلى هذه النهاية الحمقاء كما في مسرحية صغيرة من عروض الهواة وكان يشعر بالشفقة على إحساسه، على حبه هذا، كان يشعر بالشفقة إلى درجة بدا له فيها أنه مستعد لأن ينفجر بالبكاء أو يهوى بالشمسية على ظهر بانتيليمون العريض .

ظل ثلاثة أيام غير قادر على العمل، ولم يأكل ولم ينم، ولكن حينما بلغهأن يكاترينا إيفانوفنا قد سافرت إلى موسكو للالتحاق بالكونسرفاتوار، هدأت نفسه وعاد إلى حياته السابقة .

وفيما بعد، حين كان يتذكر أحياناً كيف تمشي في المقابر، وكيف قطعشوارع المدينة كلها بحثاً عن فراك، كان يتمطى في كسل ويقول - :أوه، يا لها من هموم كانتمرت أربع سنوات، وأصبح لدى ستارتسف الكثير من الزبائن في المدينة .

وكل صباح كان يستقبل المرضى في دياليج بعجلة ثم يرحل إلى مرضاه في المدينة، ويرحل الآن لا في عربة بجوادين بل في عربة ترويكا بأجراس، ويعود إلى البيت في ساعة متأخرة أصبح ممتلئاً، ، لا يحب السير على قدميه وبانتيليمون أيضاً أصبح بديناً، وكلما ازداد امتلاء زفر بحسرة واشتكى من حظه المرير: فقد قهرته السواقة

كان ستارتسف يتردد على بيوت كثيرة ويلتقي بأناس كثيرين ولكنه لم يوطد علاقته بأحد كان البرجوازيون الصغار يثيرونه بأحاديثهم وبآرائهم في الحياة، بل حتى بمظهرهم وعلمته الخبرة شيئا فشيئا أن البرجوازي الصغير، طالما تلعب معه الورق أو تشرب وتمز، فهو شخص مسالم، سمح، بل وحتى ذكى، ولكن ما إن تتحدث معه عن شيء لا يؤكل، عن السياسة أو العلم مثلاً، حتى يواجه مأزقا أو يشرع في الثرثرة بفلسفة بليدة، شريرة، حتى لا يعود أمامك إلا أن تشيح بيديك وتبتعد وحينما حاول ستارتسف أن يتحدث حتى مع برجوازى ليبرالي عن أن البشرية والحمد لله تسير إلى الأمام وأنها في المستقبل ستستغنى عن جوازات السفر وعن عقوبة الإعدام، نظر إليه البرجوازى شزراً وبريبة وسأله: وإذن فسيكون بوسع أي شخص أن يذبح في الشارع من يشاء؟ وعندما كان ستارتسف يتحدث في جمع أثناء العشاء أو تناول الشاي عن أنه لا بد من الكدح، وأنه لا يمكن أن تعيش بلا عمل، كان كلشخص يعتبر ذلك لوماً موجها إليه، فيتملكه الغضب ويشرع في الجدال بإلحاح وعلاوة على ذلك كله لم يكن البرجوازيون الصغار يفعلون أي شيء مطلقاً، ولم يهتموا بشيء، وكان من المستحيل إيجاد مادة للحديث معهم فصار ستارتسف يتجنب الأحاديث و يأكل فقط ويلعب وعندما تصادف زيارته عيداً عائلياً في أحد البيوت ويدعونه للمائدة، كان يجلس ويأكل في صمت محدقا في طبقه وكل ما كان يقال آنذاك كان غير طريف، ظالماً، أحمق، فيشعر بالانزعاج والاضطراب

ولكنه يصمت ولأنه كان يصمت دائماً في تجهم ويحدق في طبقه فقد سموه في المدينه البولندي المتعجرف رغم أنه لم يكن بولندياً في أي وقت من الأوقات .

كان يتحاشى ألوان التسلية من أمثال العروض المسرحية وحفلات الموسيقى، وفي المقابل كان يلعب كل مساء، حوالي ثلاث ساعات، وباستمتاع وكانت لديه تسلية أخرى انغمس فيها شيئاً فشيئاً ودون أن يلحظ: فقد كان كل مساء يستخرج من جيوبه أوراق البنكنوت التي حصل عليها من مرضاه، وأحياناً تكون جيوبه محشوة بحوالي سبعين روبلاًً .

وخلال السنوات الأربع التي مرت بعد رحيل كاترينا إيفانوفنا لم يزر آلتوركين سوى مرتين بدعوة من فيرا يوسفوفنا التي كانت لا تزال تتعالج من الصداع النصفي وكانت كاترينا إيفانوفنا تأتي إلى أهلها كل صيف لقضاء العطلة، ولكنه لم يرها مرة واحدة، لم يتصادف ذلك .

وها هي ذي السنوات الأربع قد انصرفت وذات صباح هادئ دافئ تسلم رسالة في المستشفى كتبت فيرا يوسفوفنا تقول إنها اشتاقت إليه جداً ورجته أن يتفضل بزيارتها حتماً ليخفف من عذابها، كما أن اليوم بالمناسبة عيد ميلادها. وفي أسفل الرسالة أضافت: أضم صوتي إلى رجاء ماماك .

وفكر ستارتسف ثم رحل مساء إلى آل توركين .

استقبله إيفان بتروفتش مبتسما بعينيه فقطبونجور عليكم .

وصافحت فيرا يوسفوفنا التي هرمت بشدة وابيض شعرها يد ستارتسفوتنهدت بتصنع وقالت :

-أنت يا دكتور لا تريد أن تغازلني، ولا تزورنا أبداً،أصبحت عجوزاً بالنسبة

لك ولكن ها هي ذي أخرى شابة قد جاءت، فربما كان حظها أسعد .

وماذا عن القطة؟ لقد هزلت وشحبت، وأصبحت أجمل وأرشق، ولكنها الآن يكاترينا إيفانوفنا وليست القطة لم تعد فيها تلك النضارة السابقة وتعبير سذاجة الطفولة وكان في نظراتها وحركاتها شيء جديد، شيء متردد ومذنب كأنمالم تعد تشعر هنا، في دار آل توركين،بأنها في بيتها .

من زمان لم نرك !قالت وهي تمد يدها إلى ستارتسف، وكان واضحاًأن قلبها يدق بقلق وحدجته بنظرة فاحصة وبفضول واستطردت كم سمنت! لوحتك الشمس ، وكبرت، ولكنك عموماً لم تتغير كثيراً .

كانت الآن أيضاً تعجبه، تعجبه جداً، ولكن كان ينقصها شيء ما، أو كان فيها شيء زائد، ولم يكن بوسعه أن يحدد هذا الشيء، ولكن شيئا ما كان يعوقه عن الإحساس بما كان يحس به من قبل لم يعجبه شحوبها، والتعبير الجديد على وجهها، وابتسامتها الواهنة، وصوتها، ثم بعد فترة قصيرة لم يعد يعجبه فستانها، والمقعد الذي جلست فيه، لم يعجبه شيء ما في الماضي عندما كاد أن يتزوجها وتذكر حبه وأحلامه وآماله التي أثارته قبل أربع سنوات، فشعربالحرج .

شربوا الشاي مع كعكة حلوة ثم قرأت فيرا يوسفوفنا رواية عما لا يحدث أبداً في الحياة، وأصغى ستارتسف وهو يتطلع إلى رأسها الأشيب الجميل منتظر أن تنتهي من القراءة وفكر: العاطل من الموهبة ليس ذلك الذي لا يجيد كتابة الروايات، بلذلك الذي يكتبها ولا يجيد إخفاء ذلكوقال إيفان بتروفتش :

-لابأستم عزفت يكاترينا إيفانوفنا على البيانو بصخب ولمدة طويلة وعندما انتهت من العزف شكروها طويلاً وأبدوا إعجابهم بها .

وفكر ستارتسفحسنا أنني لم أتزوجهاونظرت إليه وهي تنتظر على ما يبدو أن يقترح عليها الخروج إلى البستان،ولكنه جلس صامتاًفقالت وهي تقترب منه - :هيا نتحدث كيف أحوالك؟ ماذا لديك؟ لقد كنت طوال هذه الأيام أفكر فيك

استطردت بعصبية أردت أن أرسل إليك خطاباً، أردت أن أذهب بنفسي إليك في دياليج، وقررت بالفعل أن أذهب، ولكني عدلت، فمن يدرى ما هو إحساسك الآن نحوى بأي قلق انتظرت مجيئك اليوم أستحلفك بالله، فلنذهب إلى البستانو ذهبا إلى البستان، وجلسا هناك على الأريكة تحت القيقب العجوز كماحدث منذ أربع سنوات وكان الجو مظلماوسألته يكاترينا إيفانوفنا - :إذن كيف أحوالك؟ فأجاب ستارتسف: - لا بأس الأمور تسيرولم يستطع أن يجد أكثر من ذلك فصمتا وقالت يكاترينا إيفانوفنا وغطت وجهها بيديها :

-إنني مضطربة، ولكن لا تلق بالا كمأشعر بالراحة في البيت، كم أناسعيدةبرؤية الجميع ولا أستطيع أن أتعود على ذلك كم من ذكريات! بدالي أننا سنتحدث بلا توقف حتى الصباح .كان الآن يرى عن قرب وجهها وعينيها البراقتين، فبدت له هنا، في الظلام،

أصبى مما كانت في الغرفة بل وكأنما عاد إليها التعبير الطفولي السابق وبالفعل فقد كانت تنظر إليه بفضول ساذج، وكأنما تريد أن تتأمل وتفهم عن قرب هذا الرجل الذي أحبها في وقت ما بذلك التأجج وتلك الرقة وتلك النهاية التعيسة وشكرته عيناها على ذلك الحب فتذكر كل ما حدث، بأدق التفاصيل، كيفجال وسط المقابر، وكيف عاد بعدها إلى البيت قرب الصباح متعباً، فأحسفجأة بالحزن والأسف على الماضي وومضت في روحه جذوة

فقال - :أتذكرين كيف أوصلتك إلى الحفل في النادي؟ كان المطر يسقط آنذاك،والدنيا مظلمة وازدادت الجذوة اشتعالاً في روحه، وأحس برغبة في الحديث والشكومن الحياةوقال متنهداً:إيههها قد سألتني عن أحوالى وكيف أحيا كيف نحيا هنا؟ لا نحيا.

ولكن لديك عملاً، هدفاً نبيلاً في الحياة كمكنت تحب الحديث عن المستشفيات كنت أنا حينذاك غريبة، أتصور نفسى عازفة عظيمة كل الأنسات الآن يعزفن على البيانو، وأنا أيضاًكنت أعزف مثل الجميع، ولم يكن في أي شيء مميز أنا عازفة مثلما أمي كاتبة وبالطبع لم أفهمك آنذاك، ولكن فيمابعد، في موسكو، كنت كثيرا ما أفكر فيك كنت أفكر فيك وحدك يالها من سعادة أن تكون طبيباً إقليمياً وتساعد المعذبين وتخدم الشعب وكررت يكاترينا إيفانوفنا بحماس يالها من سعادة! عندما كنت أفكر فيك في موسكو كنت تبدولى مثالياً، سامياً.

وتذكر ستارتسف الأوراق التي يستخرجها من جيوبه بلذة كل مساءفانطفأت الجذوة في روحه ونهض لكي يذهب إلى البيت فوضعت ذراعه في ذراعه اومضت تقول:

-أنت أفضل من عرفتهم في حياتيسوف نتقابل ونتحدث أليس كذلك؟ عدني أنا لست عازفة بيانو، ولم أعد مخدوعة فيما يخصني ولن أعزف في حضورك أو أتحدث عن الموسيقى .

وعندما دلفا إلى البيت ورأى ستارتسف في ضوء المساء وجهها وعينها الحزينتين الشاكرتين المتفرستين والمصوبين إليه، أحس بالقلق وفكر ثانية

حسنا أنني لم أتزوجها آنذاك.

ونهض يودع فقال إيفان بتروفتش وهو يوصله :

ليس لديك أي حق روماني في الرحيل دون عشاء هذا من جانبك محورى

جداً هيا، مثل - قال مخاطبا بافا في المدخل .

أثار ذلك كله ستارتسف وعندما جلس في العربة ونظر إلى البيت المظلم والبستان اللذين كانا رقيقين وعزيزين عليه جدا في زمن ما، تذكر على الفور

كل شيء .

بعد ثلاثة أيام جاء بافا برسالة من يكاترينا إيفانوفنا .

أنت لا تزورونا لماذا؟ كتبت تقول أخشى أن تكون قد تغيرت نحوناأخاف وأشعر بالرهبة من مجرد التفكير في ذلك فلتطمئنى، تعال وقل إن كل شيء على ما يرام .

أنا بحاجة إلى التحدث معك المخلصة ى.ت.قرأ هذه الرساله، وفكر، ثم قال لبافا نقل لها يا عزيزي إنني لا أستطيع الحضور اليوم أنا مشغول جداً قل لهاإنني سآتى بعد حوالي ثلاثة أيام .

و مرت ثلاثة أيام، ومرأسبوع لكنه لم يذهب وذات مره كان ماراً بجوار منزل آل توركين فتذكر أنه ينبغي أن يعرج ولو لدقيقة ولكنه فكر ولم يعرج وبعدها لم يزر آل توركين أبداً .

الفهرس

مقدمة ٢
الراهب الأسود ٤
الفلاحون ٥٦
في الخور ٩٩
كاشتانكا ١٦٥
القبلة ١٩٩
اللعوب ٢٠٩
السيدة صاحبة الكلب ٢٤٦
العروس ٢٧١
أيونيتش ٢٩٩
الفهرس ٣٢٥